الإنسان حكمة الروح والجسد

تأويل المعاني والدلالات

د. على محمد عبد الله

الكتاب: الإنسان حكمة الروح والجسد .. تأويل المعاني والدلالات

الكاتب: د. على محمد عبدالله

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عبدالله، محمد، علي

الإنسان حكمة الروح والجسد .. تأويل المعاني والدلالات

/ د. على محمد عبدالله – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٢٧٥ – ٤٤٦ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان: ٨٢٤ رقم الإيداع : ٢٧٤٠٢

الإنسان حكمة الروح والجسد

تأويل المعاني والدلالات

إهـداء

إلى وطني الحبيب أسرتى الكبيرة، أمي وأبى أسرتى الصغيرة، أساتذتي وكل من علمني حرفاً.

أهداء لشهداء وجرحى وشباب ثورة ٢٥ يناير .

إهدى هذا العمل لروح أستاذى الأستاذ الدكتور/ حسن أبو السعود جامعة الأسكندرية، فإن أصبت فهذا من فيض علمه وإن كنت أخطأت فهذا قصور وعيب فى أدراكى الشخصى. فالكاتب يكن لروحه كل هذا الحب ولبحر المعرفة الذى كان متاحاً لنا ننهل منه أينما ووقتما نحب.

أصحاب الفضل كل الفضل على

نبذة عن الكتاب

قبل شروق شمس الحاضر على سهول ووديان الماضي جلس الشوق على ضفة نهر الذكريات يتأمل سمكات الماضي وهي تسبح بألوانها الزاهية وأشكالها العجيبة. كانت المياه صافية، وجلست أفكر فى صورتى التى رسمها لى ماء النهار على وجهه ونسيمات الهواء النقى العليل قادمة من حقول الحب مفعمة بروائح السلام والسعادة والمحبة تداعب هذه الصورة على سطح الماء. فأغمضت جفني ثم أخذت أغوص تحت صورتى أبحث عن الإنسان داخل الإنسان وعن معنى الإنسان، عن قدرة الخالق فى خلق الإنسان. فإن الارتقاء والسمو بالإنسان الكامل من المستوى الفردي مروراً بالجماعي للوصول إلى المستوى الكوني، هو رفع للكيان الإنسانى التقزمى إلى مركزية كونية. فالعالم خُلِق من أجل غاية محدَّدة، وهي الإنسان الكامل كعبد للخالق.

فهو العلَّة النظرية في وجود هذا العالم، وهو الغاية النهائية منه. فالكون مختصر الحقِّ، والإنسان الكامل مختصر الكون والحقِّ. فهو نقاوة المختصر.

وعندما يتعلم الإنسان أن تستمد النور الداخلي فإن الطاقة داخلك يمكنها أن تسمو لتعالج وتمدك بالقوة وتطهر كل خلية في جسدك. وللتأهل للدعاء فإننا نقوم بمجهود حتى نتحول بانتباهنا عن كل الصخب الموجود في الحياة، ونتجه للداخل ونتصور شعلة ناصعة داخل القلب. وعندما يدرك مركز السلام والنور داخل نفسه فإننا ندرك التناقض بين هذا الجزء داخلنا وبين العقل المليء بالتوتر والقلق الذي ينتج عنه بعض الأعراض مثل ارتفاع الأكتاف ورعشة اليدين. ولذا يفضل أن يبث الإنسان المحبة من داخل قلبه إلى البشرية ككل ويجلب نور السلام الداخلى لكل مناحى الحياة.

والفلسفة هى بوابة الجدلية، ومرجعية التحليل فى أطار من المنطق. وهى ارتداد لكل مطلق

غيبي بل هي منظومة من الاستدلالات لتقريب الواقع لمنهج المنطق و مدارك العقل. الفلسفة كلمة يونانية الأصل معناها الحرفي "حب الحكمة أو طلب المعرفة، حتى السؤال عن ما هي الفلسفة؟ يعد سؤالا فلسفيا قابلا لنقاش طويل. و هذا يشكل أحد مظاهر الفلسفة الجوهرية و ميلها للتساؤل و التدقيق في كل شيء و البحث عن ماهيته و مظاهره و قوانينه. لكل هذا فإن المادة الأساسية للفلسفة مادة واسعة و متشعبة ترتبط بكل أصناف العلوم و ربما بكل جوانب الحياة، و مع ذلك فالفلسفة مادة تحوي بقية العلوم و التخصصات. توصف الفلسفة أحيانا بأنها "التفكير في التفكير" أي التفكير في طبيعة التفكير و التأمل و التدبر، كما تعرف الفلسفة بأنها محاولة الإجابة عن الأسئلة الأساسية التي يطرحها الوجود و الكون.

إن الإنسان الذى يطمح للكمال يفضل أن يتناغم مع كل المعطيات من داخله، ويستمتع بكل معطايات الطبيعة من حوله فسيود داخله سلام ومحبة وهدوء بين العقل والنفس والروح. فكل المصاعب و الأمراض التي تمر بالإنسان في حياته وضعت في طريقه حتى يتعلم ويترقى فى داخله. الحياة بأسرها يحكمها القانون الإلهي، والإنسان يتعين عليه أن يتحمل الألم والصعاب و المشاكل في حياته، ويجب اعتبارها فرصة لاكتساب الحكمة وضبط النفس، والسمو والأرتقاء. إن الطاقة الروحية ترتقي بكم وتمنحكم سلام النفس وقوة الجسد وتروض النفس.

مقدمة :

أصل ومعنى كلمة إنسان

كلمة إنسان في كلام العرب يرجع إلى معنى الظهور، عكس الجن. ثم إنهم ذكروا للإنسان معنى آخر هو: النسيان. فقد أورد ابن منظور عن ابن عباس قوله: "إنما سمي الإنسان إنسانا؛ لأنه عهد إليه فنسي". و دورة حياة الإنسان: الولادة، الطفولة المبكرة، العمر الدراسي، مرحلة البلوغ، مرحلة الشباب، مرحلة النضج، الكهولة، الشيخوخة، الموت. والجسم الإنساني يحتوى على ٢٠٦ عظمة و ٦٣٩ عضلة غير مرئية. يوجد في كل جينة واحدة حوالي ١٠٠ ألف نوكليوتيد وسطياً، أي أن عدد النيوكليوتيدات في جسم الإنسان هو حوالي ١٠٠٠ مليار ترليون (واحد أمامه ٢٤ صفراً)، هذه الأرقام كلها في إنسان واحد وزنه ٧٠ كجم وطولة لا تتعدى مترين. وإذا تم ذلك بالنسبة لمجموع الصبغيات الموجودة في ألف مليون مليون خلية توجد في المتوسط في جسم الفرد الواحد من البشر، فإن طولها يزيد على المسافة بين الأرض والشمس. وأن عدد الخلايا التي تموت في الثانية الواحدة في جسم الإنسان يصل إلى ١٢٥ مليون خلية، وأكثر من هذا العدد يجدد يوميًا في سن النمو، ومثله في وسط العمر، ثم يقل عدد الخلايا المتجددة مع تقدم السن. والشفرة الوراثية في الواحدة من الخلايا العادية من خلايا جسد الإنسان تحمل٦،١٨ بليون جزيء من القواعد النيتروجينية، والسكر، والفوسفات، موزعة بالتساوي بين هذه المجموعات الثلاث (٢,٦ بليون جزيء لكلٍ منها).

والإنسان كائن حي يمشي على قدمين وهو من الثدييات الرئيسة، وهو العاقل الوحيد فيها. يمتلك الإنسان خلافا لبقية الحيوانات على الأرض دماغا عالي التطور قادراً على التفكير

المجرد واستخدام اللغة والتفكير الداخلي الذاتي وإعطاء حلول للمشاكل التي يواجهها الإنسان. ليس هذا فحسب بل أن الإنسان يمتلك جسما منتصبا ذا أطراف مفصلية علوية وسفلية يسهل تحريكها وتعمل بالتناسق التام مع الدماغ، وهي خاصية تجعل من الإنسان المخلوق الوحيد على البسيطة الذي يستطيع توظيف قدراته العقلية والجسمية لصناعة الأدوات الدقيقة وغير الدقيقة التي يحتاجها. أظهرت الأبحاث الإحفورية أدلة تشير إلى أن الإنسان الحديث ظهر في أفريقيا قبل حوالي ٢٠٠ ألف عام. الآن يستوطن البشر كل القارات ومدارات الأرض المنخفضة بعدد إجمالي يصل إلى٦,٧ مليار وذلك بحسب احصائية ٢٠٠٩.

الإنسان مثل معظم الرئيسيات العليا كائن إجتماعي بطبعه. ولكنه بشكل فريد بارع في استخدام نظم التواصل للتعبير عن الذات وتبادل الأفكار والتنظيم. كذلك يقوم الإنسان بتنظيم هياكل اجتماعية معقدة بالمشاركة مع مجموعات متعاونة ومتنافسة بدءا من تأسيس العائلات وانتهاءاً بالأمم. التفاعل الاجتماعي بين البشر أسفر عن ظهور عدد واسع ومتنوع من المعايير الاخلاقية والقيم الاجتماعية والطقوس الدينية التي تشكل عمليا أساس كل مجتمع إنساني.كذلك يتميز الإنسان بحسه الجمالي وتقديره وتذوقه للجمال وهو ما يبعث في الإنسان الحاجة للتعبير عن الذات والإبداع الثقافي في الفن والأدب والموسيقى. ومن المعروف عن البشر أيضا رغبتهم في الفهم والتأثير على محيطهم البيئي وحاجتهم للبحث والاستفسار عن الظواهر الطبيعية ومحاولة فهمها ومعرفة القوانين التي تضبطها. من هنا ظهرت العلوم والفلسفة والميثولوجيا والدين. وتميز الإنسان بالنظر للأمور بنوع من الفضول والتبصر أدى به إلى اختراع الأدوات الدقيقة وتطوير مهاراته ونقلها للآخرين عن طريق التبادل الثقافي. بالإضافة إلى ذلك، يعتبر الإنسان المخلوق الوحيد الذي يقوم بإشعال النيران وطهي طعامه والمخلوق الوحيد الذي يقوم بلبس الملابس واعتماد عديد من التقنيات التي تساعده على زيادة فعالية ما يقوم به من أعمال.

وحدة الإنسان

الإنسان وحدة متناسقة كل جزء منها مسؤول عن أعماله، كالنوايا الحسنة أو السيئة والاعتدال في التغذية وطهار الجوارح من الخبائث والذنوب والمعاصي، والمرض الكبير المجهول أو المنسي على أقل تقدير وهو الجهل الباعث على ظلم النفس وظلم الغير والمعرض لكثير من الأمراض الجسمية والعقلية والنفسية. وحدة الإنسان وصورته الشمولية التامة تتميز عن غيرها بلم وجمع شتات الإنسان الذي تبعثرت مقوماته في الحضارة المادية. وإذا كان الطب الصيني ينفرد بتشريح خاص للجهاز العصبي، فإن النظرة التعبدية لله تنفرد بالإتمام والإكمال في تكوين الإنسان وعرض صورته التي خلقت في أحسن تقويم والتي تتركب من مقومات كثيرة منها:

١. الجسم هو الصورة الظاهرة للهوية الإنسانية وهو نقطة التواصل بين العالم المادى المحيط وبين الإنسان.
٢. النفس هي ذات الإنسان المسؤولة والقابلة للتربية والتسامي والقرب من الله .
٣. العقل هو المكلف برسالة الإنسان في الأرض .
٤. القلب هو الحامل لنور الله وشريعته والإيمان بهما.
٥. الروح. وهي النفخة الربانية المضيئة على النفس بعد رفع الحجب والنزعات الظلمانية والتفتح لعالم الأمر والمؤهلة لخرق ما هو عادة وقوانين مألوفة وبها يمكن التصرف والنفوذ باذن الله وفراسة المؤمن وتصريف الطاقة البشرية.

الإنسان فلسفياً ودينياً

إن ما كُتب عن الإنسان الكامل، في هذا الفكر، يُعفينا من الحديث عن نشأته الأولى في القرن الثالث الهجري، وعن الدواعي الدينية والفلسفية التي دعت إليه. غير أنه لا يُعفينا من

استعراض الأشكال التي تمظهر بها الإنسان الكامل. هذه الأشكال يمكن حصرها بثلاثة، وهي: الشكل الاجتماعي، الشكل الفردي، والشكل الكوني. وعلى الرغم من الفوارق الأيديولوجية بين هذه الأشكال، إلا أنه لا يمكن الحديث عن قطيعة معرفية أو جمالية فيما بينها فثمة بنية معرفية وجمالية تختلف وظيفتها الأيديولوجية من مرحلة تاريخية إلى أخرى، أو في المرحلة نفسها.

إن المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي اللذين يحملهما فكر واحد ليس من الضروري أن يكونا متساويين، أي على درجة واحدة من التطور، بل غالبًا ما يكون أحدهما متقدمًا والآخر متخلفًا. وبعبارة أخرى إن الانتماء إلى نفس الإشكالية وإلى نفس الحقل المعرفي لا يعني بالضرورة الانخراط في نفس الأيديولوجية.

الفصل الأول
الإنسان والتطلع للكمال

مقدمة :

الإنسان الكامل، هو من يعرف بل ويقدر سرَّ الروح (نفحة ربانية) فيه، وسرَّ المادة، وسرَّ النفس، وسرَّ العلاقة بين المادة والنفس (الروح القائم في الأشياء)، فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه. وكإنى بإنسان ربانى أدراك بقدر ارتقائه ليتعرف على كل الأسرار المخبوءة في هذا الوجود، تذوق معية الخالق وصار على هذا الدرب قدوماً فتلذذ بهذا المسلك. ومن وصل إلى ذلك فقد خرق النواميس الكونية. وفي ذلك يتم الكمال فى استخلاف الإنسان الذي يغدو حاله المادى هو حاله اللطيف. حيث يصير العالم بأسره لذلك الشخص جسمًا وآلة وجنودًا وأعوانًا، ويكون هو منه بمنزلة الرأس الذي هو مكان العقل. وكل هذا لا يتم إلا من خلال التطور والوصول لبلوغ الكمال الإنساني المطلق من خلال الأنوار المتلاحقة والسببية وهى نور يتلو نور من نور الخلقة، مروراً بالأنوار والهداية الربانية للوصول لنور العبودية الكاملة.

فلسفة الإنسان الكامل

من الإنسان نبدأ، فالإنسان هو محور هذه الحياة ومنطلقها، وهو المخلوق المكرم. والمميز بالعقل، وهو يمكن أن يرتفع بنفسه ليقارَن بالملأ الأعلى، في مقعد صدق، ويباهَى به الملائكة. كما يمكن أن ينحط بنفسه فيصبح أدنى من البهائم، وهو في هذه الحالة الإنسان الآلة الميكانيكية الخالية من أي بعد ميتافيزيقي أو روحاني، إنه الإنسان الذي تقف حدود عقله في داخل هذا الكون المنظور المحسوس، وهو الإنسان الذي تقف حدود أمانيه ورغباته في داخل هذه المادة المتلاشية، وهو الإنسان الذي لا يطمع في مستقبل آخر وآمال أخرى خارج هذه الأرض وخارج حدود هذا الكون. بينما في إسلامنا فإن الإنسان هو المؤمن بالغيب وبالله الواحد الأحد، وبالعالم الآخر، ويعتبر حياته في هذه الدنيا هي الفصل الأول من المسرحية التي

لن تتم إلا بإسدال الستار على عالم التكليف، والانتقال إلى عالم الجزاء.

الإنسان الكامل، هو من يعرف سرَّ الروح (نور الله)، وسرَّ المادة، وسرَّ النفس (نور الله الكاشف)، وسرَّ العلاقة بين المادة والنفس، ومن يعرف أيضًا سرَّ الألوهية (الإحاطة الصمدية). إنه من عرف كل الأسرار المخبوءة في هذا الوجود، وتذوق طعمها وتلذذ به. ومن وصل إلى ذلك كان من السعداء الذين عاينوا الذوات المجردة، وطالعوا النظام القديم، وخرقوا النواميس الكونية. وفي ذلك يتم الكمال الإلهي في الإنسان الذي يغدو هو الأشياء والأشياء هو. حيث يصير العالم بأسره لذلك الشخص جسمًا وآلة وجنودًا وأعوانًا، ويكون هو منه بمنزلة الرأس الذي هو مكان العقل. فسعادة النفس في كمال ذاتها وتلطف وجودها و طمئنة تواصلها مع الروح. فالإنسان الكامل يمشى لهدف واحد هو نور التشرف بالعبودية فهو من خلاله وبه بل هو منه وإليه يكون الاستواء بل يكون حصد الرضا المرضى بالكمال وحب الحمد الدائم المستدام. وكل هذا لا يتم إلا من خلال التطور والوصول لبلوغ الكمال الإنساني المطلق من خلال لأنوار المتلاحقة والسببية وهى نور تلو نور ومنها:

نور الخلقة، نور المولد، نور النشأة، نور التربية، نور الاتِّباع، نور الإدراك، ثم نور الذكر، نور الإحاطة، نور التفضيل، نور التشريف، نور التسخير، نور الكَشْف، نور التزْكية نور الانتقال، نور البداية الجديدة، ثم نور المكانة الكبرى، ثم نور الانفراد، نور العبودية. ونور العبودية لا يتم إلا بالنفس التى وصلت لمرتبة الراضية المرضية.

الارتقاء والسمو

إن الارتقاء والسمو بالإنسان الكامل من المستوى الفردي مروراً بالجماعي للوصول إلى المستوى الكوني، هو رفع للكيان الإنسانى التقزمى إلى مركزية كونية. فالعالم خُلِق من أجل غاية محدَّدة، وهي الإنسان الكامل كعبد للخالق. فهو العلَّة النظرية في وجود هذا العالم، وهو الغاية النهائية منه. فالإنسان الكامل مختصر الكون، وفيه أنطوى العالم الأكبر.

والإنسان الواعي هو الذي يختار لنفسه الكمال على النقص، والتقوى على الفجور،لأنه

يعلم إنه إنسان بروحه وليس ببدنه، فإن البدن يبلى ويفنى، وأما الروح فإنها باقية خالدة حتى وإن مات البدن ودس في التراب. ويقول بعض الصوفية، لا غرابة في أن يكون علَّة بقاء العالم واستمراريته، فضلاً عن أنه علَّة وجوده النظرية وغايته النهائية.

ومن ذلك كله، ومن المفهوم الأكبر والمستدام للإنسان الكامل المتكامل هو أن يكون العرش الخالق مقابلاً بقلب الإنسان الكامل، والكرسي بأنيَّته، وسدرة المنتهى بمقامه، والقلم الأعلى بعقله، واللوحُ المحفوظ بنفسه الراضيه، وتلك هي العناصر الأربعة للإنسان الكامل. فالإنسان هو القطب الذي تدور حوله أفلاك الوجود من أوَّله إلى آخره بإذن الخالق. إن الارتقاء الإنسانى يلزمه تدريبات لاتنتهى ولكنها تساعده على معرفته لنفسه والاستزاده بمكونه الداخلى ليسمو فى أعماله وصوره الخارجية. أنها عملية تشبه ارتقاء السلم تتم من خلال درجات.

السمات الكمالية العامة

١. إن العنصر الروحاني عنصر أساسي في الإنسان الكامل، يتأتى له من الاتصال والادراك الواعى بالعقل الفعَّال أو العالم النوراني.

٢. إن الارتقاء على ما هو مادي وشهوي من أخصِّ خصائص هذا الإنسان حيث يتمكن من التحرر من أثر الطبيعة المادية–الظلمانية التي تنصاع لها الكائنات الأرضية. بل يجعله أيضًا أعمق إدراكًا واستيعابًا لما هو مادي ولما هو روحاني في الوقت نفسه. إذ أن المادة حجاب، ومن يتحرَّر منها يمتلك أسباب المعرفة الحقة.

٣. إن نيل الكمالات المادية والمعنوية هو أمرٌ لا غنى عنه في بلوغ الكمال الإنساني المطلق. وهو ما يحيل على الجانب الاجتماعي في الإنسان الكامل الذي هو إنسان اجتماعي فاضل أولاً، ومن ثم هو إنسان ربانى يطوق بالكمال. فالعالم المادى يختلف عن العالم النفسى أو العالم الروحى فى طبيعته وسرعته وكثافته بل وأهدافه.

٤. إن الفاعلية الاجتماعية أو الروحانية أو الكونية هي من السمات التي تجعل من الإنسان الكامل ذا مركزية لما وصل إليه من مستوى فى الارتقاء. مما يعني أن الجانب الخلاصي ذو

أهمية كبرى في هذا الإنسان، وسوف تنعكس الطاقات الإنسانية فيه على المستوى الاجتماعى وسوف ينير الظلم والفساد، أو يكون خلاصًا من أسر المادة والعدم على المستوى الكونى.

٥. إن الإنسان الكامل يجمع بين العالم المادي والعالم الروحاني، بين عالمى الغيب والمشهود، أو بين الحق والخلق، فيكون بذلك أهلاً لأن يكون الصلة بين هذين القطبين، وهو ما يجعله رحيمًا بمن هو دونه من الناس، أي رحيمًا بالبشر كافة. حيث إنه يعرف الطبيعة التي هم عليها، ويعرف تأثيرها فيهم، فلا يظلم ولا يبطش.

حقيقة الإنسان

حياة الإنسان على الأرض منذ ولادته حتى أنتقاله منها هى دورات لا تعد ولا تحصى فمثلاً: كل عام يمر على الإنسان ميلاد دورة سنوية جديدة أى عام جديد. كل صباح جديد هو وفاة يوم فى حياة الإنسان وولادة يوم جديد وهى بمثابة فرصة جديدة للكسب فى الله والارتقاء على سلم الخير وحب الناس للوصول لحب الخالق. والصلاة التى يؤديها للإنسان على اختلاف أديانه ومعتقداته هى دورة جديدة لآنها بداية جديدة بحصيلة ما كسبه الإنسان من صلاته. بل إن أنفاس الإنسان شهيقاً دورة دخول الأوكسجين للإنسان (أحتواء الأكسجين داخل الرئة) أو زفيراً دورة خروج ثانى أكسيد الكربون من الرئة (تخلص الجسم من الغازات الضارة).

وأيضاً الدورة الدموية والجهاز التنفسى والجهاز التناسلى والجهاز الهضمى والجهاز العصبى تعنى حدوث دورات متكاملة ومتكررة بل ومتناغمة مع بعضها لخدمة حياة الجسد البشرى، وتحدث خلال كل جهاز دورات أصغر ولكنها منضبطة. و نصل إلى المستوى الخلوى أى على مستوى كل خلية بالجسم فنجد إن الغذاء يصل لها من خلال الدم والتنفس من خلال الرئة وهكذا. ونأتى للمستوى التحت خلوى أى مستوى مكونات الخلية والتى تقوم بأدوار كبيرة وكثيرة للخلية، حيث تمتلك كل خلية نواة وداخل النواة توجد الأحماض النووية التى تحمل الشفرات الوراثية التى تتكون بدورها باعداد ضخمة من الأكواد التى تحدد الشفرات الوراثية للإنسان. إن كل إنسان يموت داخله ملايين الخلايا كل يوم وتولد ملايين أخرى.

ولتلخيص كل ذلك أحب أن أؤكد لك عزيزى القارئ أنها دورات تتم إما خلال أقل من ثانية إلى دقيقة أو ساعة أو مستوى اليوم وهكذا فتكامل الإنسان الداخلى وهذا الصرح العظيم بدءاً من نطفة أو بمعنى آخر خلية. ومن الجدير بالذكر أن كل إنسان خلال فترات نموه، يموت كل يوم فيه جزء وينمو جزء جديد، أنها حلقات ودورات متكررة و نمو متتالى وموت يتوالى فى أزمنه صغيرة بل دقيقة جداً وخلال فراغ تحت خلوى. أن الإنسان يتمدد و يتطور وينمو ويكبر كما هو الحال فى نظريات الكون من حولنا. والإنسان ليس مخيراً فى كل خطوة من خطوات تكوينه، (طور الماء المهين، طور النطفه أو العلقة أو بعد ذلك إلى الولادة). وبالتالى فالإنسان على المستوى تحت الخلوى والخلوى (الوظائف الحيوية والفسيولوجي) هو كائن مسير وليس مخيراً. بل أنه طول أطوار تكوينه داخل رحم الأم هو مسير. وعندما ينزل من بطن أمه فى وضع السجود فهو غير مخير. فكم من البشر أختار جنسه (ذكر أو أنثى) أو أسمه أو حتى لون بشرته أو فصيلة دمه.

وبديهى أنه ما من أم أختارات وليدها، وبالرغم من ذلك حملته ٩ شهور داخلها واستمرت فى تغذيته وهو يسكن جنبات رحمها، بل وتحملت الكثير والكثير منه من آلام وضربات فى البطن، فهل هى مخيرة؟. وعند بداية ولادته تتحمل آلام الولادة الصعبة والمستمرة. وعندما ينزل منها تحنو عليه وتسقيه من لبنها بالرغم من أنها لم تأمر صدرها بإفراز اللبن ولكن هى وجدت نفسها ترضعه وتسهر وتحنو عليه، ولكن فى الحقيقة هى لم تختار أن تكون أنثى بل ولم تختار وليدها. ولمعرفة أهمية الطفل لها، هل تقبل أى أم استبدال طفلها بطفل آخر قد يكون أجمل أو فى صحة أقوى؟ والأجابة تعنى ثقة الأم بعطية ربها لها وبحبها لرزق الله وهى الأمومة. إن السر فى الأمومة هو الرضا بقضاء الله.

فلسفة الجمال

كل حضارة وفلسفة ونظام يسعي إلي بناء الإنسان وفق رؤية معنية، الذي يستطيع استيعاب تلك الرؤية وتحقيقها علي أرض الواقع ورعايتها وضمان استمرارها وفاعليتها، ولا شك

أن مسألة بناء الإنسان لها صلة وثيقة بطبيعة القيم السائدة أو المراد إنتاجها في كل حضارة ونظام، علي نحو نشهد فيه نوعاً من التسابق وتحقق المصالح الفردية والخاصة، وتغليب المنجزات المادية، والاصطباغ بقيم الحرية في كل سلوك وتوجهات الإنسان الذي يحيا في ظل الثقافة الليبرالية. إن الإنسان هو محور البناء ومرتكز الوجود الحضاري، وأن بناء الإنسان يتحقق عبر اكتمال عناصر ثلاثة: الرؤية الواضحة والقيم الثابتة، والأداة الفاعلة، فالرؤية الواضحة تقوم علي التوحيد الخالص الذي يرتقي بالإنسان إلي مرتبة التحقق بالعبودية، فيستحضر في كل تعاملاته مع نفسه ومع الكون حقيقة عبوديته لله تعالي، علي حين أن القيم الثابتة هي التي تحفظ عليه خط السير باعتدال، فهو إنسان مستخلف في الأرض، يحمل أمانة الهداية، ومكلف بإعمار الأرض وفق عناصر تلك الأمانة، ثم يتحقق الربط ما بين الرؤية الواضحة والقيم الثابتة عبر الأداة الفاعلة، التي تعني ربط العلم بالعمل، ومداومة الإنجاز والإتقان .

والكمال قيمة عالية يسعى إليها الإنسان، وينشد الوصول إليها، سواء على مستوى الرجال أو النساء، ومعنى الكمال اجتماع صفات الحسن وانتفاء صفات السوء في الإنسان، والكمال منه ما يكون حسياً، ومنه ما يكون معنوياً. الكمال الحسي هو ما يتعلق بالصفات الجسمية للإنسان،من اجتماع صفات الجمال الخلقي وانتفاء صفات السوء الجسمي كالتشوهات والعيوب وما ينافي الجمال الجسدي، وكذا اجتماع مقومات صحة البدن وانتفاء ما يعارضها من الأمراض والعاهات الظاهرة وغير الظاهرة،وهذا النوع من الكمال يكون في النساء أكثر مما يكون في الرجال، فهو في الرجال قليل.

وأما الجمال المعنوي وهو الذي نعنيه في هذا المقال فهو اجتماع صفات الحسن وانتفاء صفات السوء المعنوي في الإنسان، وهذا النوع من الكمال يكون في الرجال أكثر مما يكون في النساء. ومن صفات الكمال في الإنسان: عدم الكبر والاعجاب بالنفس، (فالذي أضاع إبليس كلمة «الأنا» تلك، أي أنه رأي لنفسه الفضل علي الغير، وهو شعور باطني يثمر في سلوك وشعور بالترفع علي الغير)، وعدم الغضب ما أمكن، و عدم الرياء وعدم مراءاة الناس

(التباهى والامتنان على الناس).

إن الإنسان الكامل هو المثل الأعلى لجمال العبودية للخالق. فإليه ينبغي أن تتوجه أنظار البشر، للتخلص مما يشوبهم من تفاهة ومحدودية، وهم في سجن المحسوسات. فهو المعيار الذي ينبغي عليهم أن يقيِّموا به وجودهم الدنيوى المادى. وإلا فإن التفاهة سوف تشمل المسيرة الإنسانية عامة. ويبقى أن نقول إن جعل الجلال الإنساني على هذا النحو من السمو والرفعة هو، في حقيقته، دعوة إنسانية إلى أن يكون البشر كافة – وهم مؤهَّلون من حيث الإمكانية – ذوي جلال. إنها دعوة إلى تعميق الجوهر الإلهي في البشر، وإلى جعل الفردوس السماوي ممكنًا في الأرض. وكأن الدعوة إلى تعميم الإنسان الكامل هي دعوة إلى الارتقاء بالخَلْق إلى عوالم الحق، والارتقاء بالمجتمع الأرضي إلى مستوى المجتمع السماوي– الروحاني.

الجمال

فمن حيث ملامح الجمال، في الإنسان الكامل، يمكن أن ننظر إليها من عدة مستويات حسية وعقلية واجتماعية وروحانية بل وبيئية. نتناول كلاً منها على حدة، من دون أن نغفل عن أن الاعتدال هو الناظم لهذه الملامح. فعلى المستوى الحسي، يقرر ابن عربي أن الإنسان الكامل هو أعدل النشآت الإنسانية–الجسمانية. حيث تم تركيبه على أفضل شكل ممكن، فكان النور الجثماني بحسب ابن سبعين. ولأن الاعتدال ينظم بدنه، فإنه يستطيع أن يباشر الأفعال الحسية بيسر وسهولة، من دون أن يصيبه عناء أو تعب.

وهكذا نلحظ أن الجمال في الإنسان الكامل متعدِّد الجوانب والمستويات، فلقد جمع في ذاته الجمالين: المقيد والمطلق، الظاهر والباطن، الشاهد والغيب. فجمع بذلك بين الجمال والجلال في ذاته وصفاته. فجماله المقيد مرآة لجمال وكمال الكون.

وعلى الرغم من الفوارق الأيديولوجية، والمعرفية أحيانًا، بين ما يقول به أهل البرهان وأهل العرفان، إلا أن المضمون الجمالي، في الإنسان الكامل، واحدٌ تقريبًا في كليهما. فلا

فرق، كما نعتقد، على الصعيد الجمالي، بين أن يتصل الإنسان بالعقل الفعال فيكون كاملاً، وأن يتصل بالروحانيات فيكون كاملاً أيضًا. إذ إن العقل الفعال والوعى المدرك ما هو إلا جوهر روحاني. وهذا الكمال هو الأساس في الجمال والجلال اللذين يتصف بهما الإنسان الكامل، وهو الأساس أيضًا في اللذات الجمالية التي يحصل عليها – بصرف النظر عن هيمنة الجانب الحدسي العرفاني عليها عند المتصوفة، أو هيمنة الجانب العقلي البرهاني عند أهل البرهان.

السعادة

كلمة سعادة، بالعربية، متصلة أيضًا بمعنى فعل ساعَد، أي "عاوَن". إذ إن السعادة ليست خبرة فردية؛ إنها بالأحري خبرة الخروج من الذات، يحملنا فيها شيء يتجاوزنا، و يحركنا شيء يسمو بنا. وللمصطلح أيضًا بُعد وظيفي وتقني. فكلمة ساعِد، المشتقة هي الأخرى من الثلاثي سَعَدَ، تعني "الذراع": لنيل السعادة يُعتقَد أنه من الضروري تحريك الجسم؛ فكما أن الطائر الذي ينطلق محلقًا في الأجواء يستعمل جناحيه للطيران ويفوز بهذه الحركة بشكل من السعادة، كذلك فإن جسم الإنسان هو الآلة "التقنية" للسعادة. ومنه فإن كلمة "سعادة"، التي تعني في الآن نفسه الهناءة والغبطة، تشترك في الجذر مع كلمة "ساعِد" التي تنطوي على معنى "التعاضد" والقدرة على التحرك، بفضل الجسم، نحو الآخر ونحو العالم. وهذا التجاور اللفظي يوجِد كثافة معنوية تستحق الاستفسار عنها. أخيرًا، فإن معنى كلمة "سعادة". و السعادة التامة هى الرضا بما أنت فيه، والرضا بقضاء الخالق، والرضا عن نفسك، والرضا عن الآخر بصرف النظر عن سلوكه. فالرضا فى العون والمساعدة من الداخل للخارج من الباطن للظاهر هى رضا المحبة والطاقة الإيجابية الحقيقية والادراك الواعى لمعانى المحبة المستنيرة المادية والروحية بجلال وجمال قدرات الخالق الذى وهبك إياها فيك.

ويقود الإنسان حبه لنفسه و حبه للمرأة و حبه للجاه و السلطان إلى يأس بعد يأس وملل بعد ملل و إحباط بعد إحباط حتى يشرق فيه حب الحق ليدله على الطريق إلى الواحد الأحد الذي تجتمع فيه كل الكمالات. و يزداد حبه عمقاً ليصبح عبادة و صلاة و هو يصعد

في طريق العودة إلى منبع الأنوار. و هو يدرك أن كل ما عاناه من عذاب و ألم و إحباط و يأس لم يذهب عبثاً، فقد كانت كل تلك الآلام هي المؤشرات التي كشفت له طريقه و دلته على حقيقته، كانت بوصلته و دليله في بحر الظلمات و من أجل هذا خلق الله الحياة. إن الإنسان معجزة السمو والارتقاء، إنه مادة فانية ونفس تسعى للسمو، أنه ابن الموت يوم يولد للحياة، ويحتوي على الخلود (الروح)، فهو عبد يحتضن قلباً حراً، و حبه و فنه و تفكيره و صحته و مرضه و جسده و تشريحه تدل كلها على هذه التراكيب المتكاملة .

فالدنيا كلها تقيده و جسده يقيده مثل الجاكتة الجبس، ومع ذلك لا تمنعه هذه القيود من أن يضمر في نفسه شيئاً وأن يفرض هذا الشيء على ظروفه، فهو يصهر الحديد و يسوي الجبال بالأرض ويشق الأنفاق ويطلق قذيفة من عدة أطنان إلى القمر، كل هذا وهو جسم صغير هلامي من اللحم و الدم، و هو يرقد مريضاً مشلولاً يائساً، إذا اجتمع بزوجته أنجب طفلاً يرقص من الصحة والعافية. أين كانت هذه الصحة مختفية في المرض و هو يبدو ضعيفاً قليل الحيلة تقتله رصاصة بمليم، من أين يخرج صوته و ينساب تفكيره و ينصب شعوره و تتدفق قواه غير المحدودة.

إن أعضاءه تبدو في التشريح من مادة تقبل الوزن و القياس و تخضع للزمن و لكن شعوره يكشف عن مادة أخرى و زمن آخر يعيش فيه غير زمن الساعات و الدقائق، زمن حر يقصر و يطول حسب إرادته، و تعمق هذا الشعور في لحظات الحب و الإلهام و التصوف يكشف عن حقيقة أغرب، إن هناك أفقاً ثالثاً في داخله أفقاً غير زمني لحظاته أبدية مليئة لا تنقضي مثل اللحظات و إنما تظل شاخصة في الشعور مالئة الوجدان.

فلسفة الحب

الحب فرصة ليصبح الإنسان أفضل وأجمل وأرقى، ففي لحظة الحب تتعطل اللغة و يحل محلها سكوت ناطق معبر، و الزمان و المكان يتلاشيان في غيبوبة واعية تكف فيها اللحظات الزمنية عن التداعي، وتنصهر في إحساس عميق بالنشوة والنصر والفرح، قد تكون

هذه النشوة لحظة واحدة و لكن هذه اللحظة تصبح كالأبد. ففي لحظة الحب، تنفتح بوابة الجمال والمشاعر والسكينة كلها على مصراعيها، فتتلامس المعاني الجميلة التي يحتوي عليها الحبيبان. فالحب خلق ليعيش بينما الرغبة تحيا وتخبو فى لحظات. والحب يحتوي على الشهوة ولكن الشهوة لا تحتوي عليه.

والحب الذي هو أعمق من كل حب لا يفجره في القلب إلا التصوف و الشعور الديني، لأن الدين هو الذي يعيد الإنسان إلى النبع الذي صدر منه، ويأخذ بالإنسان الساقط في الزمان و المكان ليرفعه إلى سماوات الأبدية، ولا يرفعه إلى هذه السماوات إلا الحب منتهى الحب الذي يفنى به العابد عن نفسه و عن الدنيا شوقاً إلى خالقه. و ما حب الإنسان للمرأة و ما حب الإنسان للفن و ما حب الإنسان للجمال إلا خطوات الدليل الخفي الذي يقودنا إلى الله، إلى المحبوب الوحيد الذي يستحق الحب، محطات سفر إلى المحطة النهائية محطة الوصول. مرة بعد مرة يكتشف الإنسان أن موضوعات حبه لا تملك وجوداً حقيقياً فالوردة تذبل و الشمس تغرب والمرأة تشيخ و الجديد في الفن يبلى، ويبقى حب الله المطلق فى حبه وحب عبوديته. و ما رآه في المرأة جمالاً يكتشف أنها لا تملكه و أنه يزايلها بالشيخوخة. إنه لم يكن جمالها لقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردها صاحبها.

إن الحب ديناميكا العطا المستمر بل ينبوع الحنان الذى لا ينضب، بل أن النظرة فى عين محب كالخوض فى بحور متلاطمة الأمواج من شعور بالسلامة والهدوء لتطرف شعورى مجنون، من هدوء واع للمحبة لسخط وعدم مبالاة. فالإنسان يعبر عن الحب بالغايات المحدودة ويتجاوزها إلى قيم الفن و الجمال و الخير و العدالة و الحقيقة. و هو على عتبة هذه المجردات يكتشف أنه يريد الله بكل حبه، فهو الواحد الذي تتجسد فيه كل هذه القيم اللانهائية. وهو اللامحدود في مقابل المحدود. و ها هو أخيراً يجد الجواب على السؤال اللغز الذي طالما حيره لماذا خلقت؟ لماذا وجدت في هذه الدنيا؟ والآن يعرف لماذا خلق، ليصل إلى حقيقة نفسه وليدرك عبوديته لخالقه. وما أرض الواقع إلا المزرعة التي يلقي فيها بإمكانياته

لتورق وتثمر وتتحقق تلك الإمكانيات الباطنة فيه بطون جنين القمح في بذرة القمح. و هو يرى نفسه كإدارة هائلة تتخبط في سروال ضيق من الجلد و اللحم لا يسمح له إلا بالسير البطيء خطوة خطوة و الحياة بالقسط لحظة لحظة. و في كل خطوة من خطواته و في كل لحظة من لحظاته يترك بأعماله أثراً يدل عليه.

اللغة تتعطل في لحظة الحب ويحل محلها سكوت ناطق معبر. والزمان و المكان يتلاشيان في غيبوبة صاحية تكف فيها اللحظات عن التداعي و تنصهر في إحساس عميق بالنشوة و النصر و الفرح.. قد تكون هذه النشوة لحظة واحدة .. و لكن هذه اللحظة تصبح كالأبد.. الحب يؤبدها فتستمر ماثلة أمام الشعور .. تستمر في المستقبل لسنوات طويلة تلاحق صاحبها و قد ألقت ظلاً طويلاً على حياته .. و امتزجت بصحوه و نومه و أحلامه و هذيانه .. و التصقت به من داخله فأصبح من المستحيل عليه أن ينفضها مع ثرثرة كل يوم و مشاغله وتفاهاته.. أصبحت بعض نفسه .. تحيا بحياته .. و تموت بمماته.

فلسفة الأبتسامة

للابتسامه فلسفه خاصه جدا في التعامل مع الناس، إن غضب شخص ما وابتسمت هدأ، إن جاء شخص غاضب إليك وابتسمت هدأ، وإن كان هناك شخص خائف قلق متوتر وابتسمت في وجهه هدأ وهذا كله بصورة نسبية. فالإبتسامة هى هدوء وسلام داخلى للمبتسم والمبتسم إليه، بغض النظر عن ماهية العلاقة.ولقد خلق الله فى الرأس سبع عظام تعمل أثناء أداء الابتسامة مع مجموعة العضلات كلها، تعمل فى صورة متكاملة لتأمين السلام النفسى على المكان المحيط. و عندما يظلمك من حولك .. ابتسم لأنك لم تظلم أحدا يوما. عندما تعرف أن فلانا من الناس لا يحبك .. ابتسم فهناك العديد من الأشخاص الذين يحبونك ويتمنون لك السعادة. ....أنت من تملك حياتك وأنت من تعيشها فبإرادتك الواعية وضميرك المنتبه تجعلها جنة صغيرة سعيدة أو تجعها سوداء مليئة بالأحزان .. فلك الخيار لتختار مهما قابلت من ضغوط ومخاطر.

فالابتسامة طريقك لكسب القلوب ومفتاحك اللطيف لفتح أقفال قلوب الآخرين. حركة بسيطة، بإمكانها أن تغيّر أشياء كثيرة فهي كالبذرة الصغيره. ترميها في نفسية من أمامك. فتحلو وتصفو الدنيا لك تزيدكِ جمالا، تزداد وسامة بفعلها، يقرأ من أمامك أفكارك، يتعرف إلى شخصيتك، يستطيع التعرف على حالتك النفسية والمزاجية منها. يقال أن للابتسامة فلسفة، تخيل معي شخصاً متوتراً قلقاً مرتبكاً خائفاً قابلته بابتسامة صافية، نقية نابعة من قلبك فماذا ستكون ردة فعله؟ سيهدأ وسيزول القلق.

فسلفة الخير

الخير هو المبدأ الأخلاقي بالفطرة السليمة أو هو حالة مرغوبة، ممتعة، أو ما يُعتبر من الناحية الأخلاقية أفضل من شيء آخر أو من حالة أخرى. والخير هو نقيض الشر أيضا. يُعرف الشيء الخيّر أو حالة الخير دائما بشكل نسبي لأشياء أو لحالات أخرى، وتعريفه هو دائما شخصي ذاتي متعلق بسياق الزمان والمكان والعلاقات بين البشر. هو الأداء الذى يجعل القائم عليه فى سعادة وبشاشة ويعطى الطابع الاجتماعى القدر الكافى من السلام والمحبة. ويتجلى مفهوم الخير في مفاهيم أكثر تحديداً مثل الفضيلة والعدالة والسعادة وغيرها. وهو سلوك لا تستمد نتائجه من المقاصد التي يحققها، أو الغايات التي يعمل من أجلها هذا السلوك. فالإنسان الخيَر يفيد الوجود من عوض، أو غرض من المدح، أو التخلص من الذم، والله تعالى يفعل الخير لأن الخير مقتضى ذاته. وكمال الوجود هو كمال الخير.

فلسفة القدر

قد يسال سائل مستنكراً ما جدوى أن نخوض من جديد في مسائل تنتمي إلى المناظرات والجدالات الكلاميّة العقيمة للإجابة عن سؤال إن كان الإنسان مسيّراً أو مخيّراً!!! والحال أنّ البشريّة، بعد ثوراتها المعرفيّة والتكنولوجيّة الكبرى، أثبتت طاقات الإنسان الخارقة وقدراته الذّاتيّة المتميّزة والخلاّقة على قيادة نفسه وقيادة العالم والسّيطرة على الطّبيعة وتطويعها لمصالحه وحاجاته الآنية أو ما يسمى طموحاته الأنانية؟ وتعريف القدر هو إيجاد الأشياء على

صفة مقصودة وهو مشتق من القدْر بسكون الدال وهو الكمية المحددة المضبوطة. أمّا في اصطلاح المتكلّمين فالقدَر اسم "للإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه ويطلقونه على الشيء الذي تعلق به القدر وهو المقدور".

قضية القدر فى الفلسفة الحديثة ترتد بجملتها إلى موضوع إنسانية الإنسان، كيف تتبلور هذه الإنسانية من خلال الوسط الذى نعيش فيه. فالإنسان يرتبط ارتباطاً وجدانياً بوسطه وبيئته، وهو فى سلوكه وتصرفاته يعقد علاقات كثيرة وينظم ويؤلف توازنات مما حوله. فإنسانية الإنسان لا تكتمل إلا إذا وقف حيال كونه موقف الفاعل لا موقف المتلقى، ومن هنا يبرز التمايز الموجود بين الفلسفة الكلاسيكية والفلسفة الحديثة فى مفهوم وفلسفة القدر، فالفلسفة الكلاسيكية لم تتخط اعتبار الإنسان عقلاً قابلاً فهم بموضوعه المعطى له. بينما الفلسفة الحديثة كما نرى تتخطى حدود العقل المدرك بالتأمل إلى العقل الذى يمارس تلقائية فاعلة تجاه موضوعه. فالقدرة إذن هى الأساس، وهى التى ينتج عنها الفعل العملى. وبذلك يتقدم الفعل على الحقيقة الناجمة عنه.

فلسفة القدر عبر الأديان

ويمكن أن يعرف القدر حيث الدّال مرادف القدْر بسكونها وهو تحديد الأمور وضبطها، والمراد أنّ خلق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة. ومما يقتضيه معنى القدر وفق هذا التّعريف "أنّ كلّ شيء مخلوق هو جار على وفق علم الله وإرادته لأنه خالق أصول الأشياء وجاعل القوى فيها لتنبعث عنها آثارها ومتولداتها، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه. وهذا قد سمي بالقدر في اصطلاح الشريعة كما جاء في حديث جبريل الصحيح في ذكر ما يقع به الإيمان"وتؤمن بالقدر خيره وشره". ولولا أن القدر منسوب في التأثر لإرادة الله تعالى لكانت التفرقة بين أفعال الخير وأفعال الشر في النسبة إلى الله ملحقة باعتقاد المجوس بأن للخير إلها وللشر إلها وذلك باطل لقول النبي صلى الله عليه وسلم "وتؤمنوا بالقدر خيره وشره" وقوله "القدرية مجوس هذه الأمة.

فالقدر إذا هو ما يحصّله الإنسان بمشيئته من استثمار لآثار قدرة الله في الكون المعبّرة عن مشيئته وذلك ما يفسّر قول الأشعري في معنى الكسب والاستطاعة "إنها سلامة الأسباب والآلات"، وحاصل هذا التّأويل أنّ به "بطل مذهب الجبرية لأن هناك مشيئة للناس وجعلت مشيئة الله شرطا فيها لأن الاستثناء في قوة الشرط فللإنسان مشيئته لا محالة. وأما مذهب المعتزلة فغير بعيد من قول الأشعري إلا في العبارة بالخلق أو بالكسب وعبارة الأشعري أرشق وأعلق بالأدب مع الخالق".

فلسفة الفراغ

إن ذرة التراب ليست شيئاً تافهاً، ففيها حركة وفيها نبض. إن الجماد في حقيقته غير جامد و لا حتى سائل إنه مخلخل من داخله و مؤلف من منظومات هائلة من الذرات و الجزيئات تسبح في فراغ أثيري. و الجزيء هو معمار من الذرات و الذرات نفسها معمار جميل من جسيمات صغيرة نووية تدور حولها كهارب غاية في الصغر منتظمة في أفلاك. والذرات والجزيئات مترابطة مع بعضها بقوانين من الجذب والتنافر تشدها إلى بعضها دون أن تسمح لها بأن تصطدم ببعضها وتذوب وتفقد شكلها وشخصيتها. إنها كالشمس ومنظومتها الكبرى من والكواكب والأقمار تترابط بالجاذبية ولكنها جاذبية لا تزيد إلى القدر الذي يؤدي إلى تلاحمها وفنائها في بعضها وإنما هي جاذبية يعادلها تنافر يؤدي إلى احتفاظ هذه الأجرام السماوية بأشكالها وشخصياتها وهي تدور حول بعضها كما تدور كهارب الذرات وكما يدور كل شيء في العالم حياً وميتاً جامداً وسائلاً وغازياً. ولا فرق بين جامد وسائل وغازي، إلا في سرعة الدوران، السائل ذراته أسرع والغاز ذراته أسرع جداً ولذلك تتفكك جداً وتصبح هباءً منثورا أو بالتعبير الساذج هواء.

وكل شيء في الكون له صورة ونظام وتفصيل وفيه نبض وهنا يبدو الفاصل بين الحي والميت فاصلاً رفيعا هو يزداد شفافية كلما نظرنا بتعمق في طبيعة المادة، فالمادة ليست في حالة حركة فقط وإنما هي في حالة حركة هادفة أيضاً. ومعنى هذا أن تركيب المادة فيه نظام

وحركة وهدف، وليس هذا فقط بل أن تكوينات المادة فيها طابع الشخصية والتفرد أحياناً وهي تلتزم طابعها وتحافظ عليه، فمادة كبريتات النحاس تنظم نفسها في بلورات محددة ذات شكل محدد وهي تجدد نفسها في المحاليل بنفس الشكل دائماً وهي تنمو في المحاليل وإذا قطعت بلورة منها إلى جزئين فإن كل جزء ينمو محتفظاً بطابعه.

معني أن الصلة غير مقطوعة بين المادة الحية و الميتة يعني أن العالم متدامج في وحدة ومنبثق من أصل واحد و طبيعة واحدة، يعني أن الروح مبثوثة فيه كله والعقل باطن في كل تضاعيفه بشكل جعله كله مصوراً في تراكيب و أنماط و قوالب و طرز فيها نظام و قانون وجمال. ومهما بلغت الفروق بين هذه القوالب والطرز والأنماط الحية والميتة فإن التعمق في فهمها يردها جميعاً إلى أصلها الواحد و جذعها المشترك الذي انبثقت منه، إنه يكشف عن تشابها جميعاً و وحدتها الجوهرية.

إن الكون يمت لبعضه بصلة القرابة، نحن و الشمس و القمر و الثعبان و الميكروب أولاد عمومة واحدة، و حينما كشف داروين عن تأصل الأنواع جميعها في نظريته عن التطور ضحك عليه الناس كيف يكون القرد و الإنسان أولاد عمومة واحدة. و لكن "داروين" برهن بالدراسة التشريحية أن المسألة ليست نكتة و أن التركيب التشريحي و السلوك الوظيفي للحيوانات و النباتات و الأحياء جميعها يسلكها في عقد عائلي واحد. الكون هرم يتربع الإنسان على قمته و لكن كل حجر من حجارة الهرم مرحلة من هذا النظام البديع الذي كان تتويجه النهائي الإنسان.

الإنسان والفراغ الداخلى

لا يرى الانسان منجسمه إلا الجلد الذي يغطية. عينه لا ترى نفسها ولا ترى الأذن أو الفم أو الأنف. أما الرأس فهو غلاف مرأس يحتوي على ٢٠٦ عظمة، و٦٣٩ عضلة غير مرئية.

تكون العقل البشرى من نسيج ثابت لا يتجدد يحتوى على ملايين المراكز المسؤولة

عن الحركة والحس والفهم والإدراك واكتساب المواهب. ينقسم العقل البشري إلى مساحات صغيرة تعد بالآلاف وكل مساحة بها مئات الألوف من المراكز التى تنتظر التنشيط تبعاً لنشاط صاحبه وسعيه وراء الفهم ورغبته الجامحة فى المعرفة. و النسيان ظاهرة نفسية شائعة، وهي ليست عملية عقلية لأنها عجز دائم أو مؤقت عن استرجاع الخبرات والمعلومات والمعارف التي كنا قد اكتسبناها، ولكن النسيان لا يكون دائما سلبيا فهو في كثير من الحالات نعمة للفرد، ولكن قد يكون نقمة في مجالات التعلم والخبرات السعيدة. والمهم فى المخ هو أنه أداة فصل بين المنطق المرئى والغير مرئى الإحساس وعدم الإحساس، أنه المركز الذى ينشط بدخول الإنسان للنوم ويجرى العديد من العمليات ويتحكم فى الجنس البشرى أثناء النوم.

فلسفة التقنية والعلم

يعيش الإنسان المعاصر الحضارة وسط زخم التقنية بين عدة أجهزة وآلات مختلفة أنتجتها التكنولوجيا الحديثة فانتظمت حياته أفرادا وجماعات بانتظام كل ميادين الحياة بانتظامها، فمن الميدان السياسي إلى الاقتصادي نجد المعدات والآلية تخترق الحياة البشرية حتى أضحت مألوفة لدى الناس ولا يستطيعون العيش بدونها .

المعنى الشائع لمفهوم التقنية في اللسان العربي نجده يقابل العلم، كما يقابل الممارسة النظرية وتطبيق المعرفة، ثم أنها شيء محايد، وهي ليست خيرا في ذاته ولا شرا في ذاته، إنما مجرد وسيلة تتخذ معناها من التوظيف التي توظف فيه. ويعرف معجم لالاند التقنية بأنها "مجموعة من العمليات والإجراءات المحددة تحديدا دقيقا، والقابلة للنقل والتحويل والرامية إلى تحقيق بعض النتائج التي تعتبر نافعة .

يشير هذا التعريف في دلالاته الأولى إلى كل إنتاج لأشياء مختلفة (أدوات، آلات) لا تستطيع الطبيعة توفيرها وإنتاجها بذاتها، ويحمل دلالات ثانية يمكن أن نجملها في كونه أولا بتركيزه على خاصية التحديد الدقيق يقصي من دائرة التقنية كل الوسائل التي لا تتلاءم بصفة مع الأغراض التي صنعت من أجلها، وفي كونه ثانية يربط التقنية بخاصية النقل والتحويل وهو ما

يضفي عليها طابعا اجتماعيا تصبح التقنية بمقتضاه قابلة للتعلم والاكتساب والتطوير والانتشار داخل الوسط الاجتماعي، وأخيرا يربط ذلك التعريف التقنية بأهداف عملية ونفعية. و يمكن أن نستخلص من هذا التعريف إذن أن التقنية نشاط إنساني أساسي تقوم عليه باقي الأنشطة الإنسانية الأخرى، وأنه جزء من نسيج العلاقات الاجتماعية، وبذلك فالإنسان لم يحول الطبيعة باعتماده على التقنية بل تحول هو نفسه إلى كائن ثقافي يعيش حياة اجتماعية واعية .

لماذا تحولت التقنية إلى قوة مسيطرة على وجود الإنسان؟

انتقد ميشيل سير المسلك الذي سار عليه العقل الغربي وذلك باتخاذه التقنية كوسيلة للتحكم في الطبيعة، وهذا الأسلوب أدى بدوره إلى تحكم التقنية نفسها على الإنسان والطبيعة معا فتحولت من مجرد أداة لتحكم الإنسان على الطبيعية إلى عنصر يهدد كيانهما ووجودهما معا. وخطورة هذا التحكم حسب ميشيل سير أنه مقتصر على فئة أو منطقة دون أخرى أو أنه محلى، بل سيكون ذا بعد كوني وعالمي وشامل. فلا خيار أمامنا إلا إعادة النظر في علاقتنا بالأشياء التي أصبحت تسودها علاقة التملك والتحكم عن طريق إيجاد السبل الكفيلة للخروج من هذا الإشكال العويص، وهذا السبيل هو تحكم جديد في التحكم الحالي المستمد أصوله من العقل الغربي الحديث.

يرى كارل ماركس أن كل الأشياء تبدو جلية وواضحة من خلال نقيضها، وهكذا فإذا كانت التقنية تحمل في ذاتها إيجابيات وتبهر الإنسان وتملك قدرة إيجابية في اختصار الوقت وتحد من ساعات العمل عبر الآلات المختلفة فإنها في الوقت نفسه تسبب الجوع والإنهاك المفرط، لتتحول الثورة التقنية إلى مصدر البؤس، فأصبح كل انتظار تقني ثمنه انحطاط معنوي.

ومن خلال مفهوم الاستلاب فإن ماركس يؤكد أنه بقدر ما فتئ الإنسان يصبح سيدا وممتلكا للطبيعة بقدر ما تمارس عليه الآلات والقدرات التي يمتلكها استلابا ويتحول إلى عبد لهاته الآلات التي يمتلكها. وإن التقنية حسب ماركس تستدعي استغلالها والتحكم فيها من طرف أناس جدد غايتهم تحويلها إلى وسيلة لنفع المجتمع لا لممارسة الاستلاب والاضطهاد.

الفصل الثانى
الروح والنفس والجسد

مقدمة :

في اللغة الدارجة نخلط دائما بين النفس و الروح، من الغريب أن يحدث خلط بين الروح والنفس، مع كل الأيضاح فى كل الأديان السماوية. فكمال اللطائف من عند الله فلا يحدث لها أى سمو أو تطور وإنما هى أسمى الكمال فهى من عند الخالق. كما أن الأديان السماوية لم تذكر إلا النفس التى تحيا فى حلة الإنسان الفانية لتكتسب فى الله وترتقى لإعلى درجات السمو فهى إما تكون أمارة بالسوء أو اللوامة أو مطمئنة أو راضية مرضية لتكون ضمن عباد الله. أما الجسد فهو الحلة الفانية فالجسد من وإلى التراب. فالتي تخرج من بدن الميت عند الحشرجة و الموت هي نفسه و ليست روحه، و التي تذوق الموت هي النفس و ليس الروح.

فلسفة الروح والنفس

الروح عبارة عن مصطلح ذو طابع ديني وفلسفي يختلف تعريفه وتحديد ماهيته في الأديان والفلسفات المختلفة، ولكن هناك إجماع على أن الروح عبارة عن ذات قائمة بنفسها، ذات طبيعة معنوية غير ملموسة. ويعتبرها البعض مادة أثيرية أصلية من الخصائص الفريدة للكائنات الحية**.** كلمة الروح العربية قريبة جدا من كلمة ريح مما جعل البعض يعتقد أن مصدر ومعنى كلمة الروح هي "ذَات لَطِيفَة كَالْهَوَاءِ سَارِيَة فِي الْجَسَد كَسَرَيَانِ الْمَاء فِي عُرُوق الشَّجَر".

ويقال إن حقيقة الروح وماهيتها أنها جوهر نوراني غير قابل للتقدير أو الوزن أو الحصر الخاص بالمادة لطيفها وكثيفها، منافية لجميع ما هو معلوم، عاقلة عالمة بذاتها وبربها علماً ذاتياً بكليتها لانطباع جميع محيطاتها من عالمها فيها انطباعاً تقابلياً بالذات؛ إذ هي وحدة لا تتجزأ فينطوي فيها كل ما حولها انطواء الصور بالمرآة على أقرب تشبيه. ترى وتسمع وتذوق وتلمس بذاتها لا بحواس متفرعة كما للجسم، فتعلم بمقدار قوة إمدادها من أصل منزعها من النور

الأول الصادر من الأمر الإلهي، وأسبقيتها في الرتبة والصفاء؛ إذ لكل روح قوة علمية ونورية تختلف عن الأخرى وتتميز في الشكل النوراني واللَمْحَةَ للتباين والتعارف كما جاء في حديث عالم الذر "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"، وهذه اللمحة والشبه التي تظهر في ملامح الوجه البشري عند التخليق في الرحم قال تعالى: (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)، وأن الجسم ينشأ على منوال تشجع الروح ذرة ذرة، وأن اختلاف قوة النور ومقداره هو العامل لمواهب الشخص في هذه الدنيا من قوة وضعف في المعلومات والمعارف، إذ لكل روح طاقة، كما للجسم كلٌ بماهيته وإلا تساوت المعلومات وهذا محال في الإبداع الإلهي." ويمكن وضع معادلة بلسيطة وهي:

روح + جسد = نفس

النفس تذوق الموت و لكن لا تموت.. فتذوقها الموت هو رحلة خروجها من البدن، و هي باقية بعد الموت، و عن وجود الأنفس قبل ميلاد أصحابها يقول الله: إنه أخذ الذرية من ظهور الآباء قبل أن تولد و أشهدها على ربوبيته حتى لا يتعلل أحد بأنه كفر لأنه وجد أباه على الكفر. كما أن الروح لا توسوس، و لا تشتهي و لا تهوى و لا تضجر و لا تمل و لا تتعذب، و لا تعاني هبوطا و لا انتكاسا. إنما تلك كلها من أحوال النفس و ليس الروح فهى قمة كمال اللطائف، فهى من روح الله. والدليل على ذلك نأتيه لك عزيزى القارئ من القرآن:

قول الملائكة في القرآن للمجرمين ساعة الموت:

"أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون" (٩٣ – الأنعام).

" كل نفس ذائقة الموت" (١٨٥ – آل عمران).

"فطوعت له نفسه قتل أخيه" (٣٠ – المائدة)

"و لقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه" (١٦ – ق)

"و نفس و ما سواها، فألهمها فجورها و تقواها" (٧، ٨ – الشمس)

"بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل" (١٨ – يوسف)

"و ضاقت عليهم أنفسهم و ظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه" (١١٨ – التوبة)

"إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا و تزهق أنفسهم" (٥٥ – التوبة)

"و من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" (١٣٠ – البقرة)

"و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" (٩ – الحشر)

و أحضرت الأنفس الشح" (١٢٨ – النساء)

و ما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء" (٥٣ – يوسف)

"يأيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، و ادخلي جنتي" (٢٧ – ٣٠ الفجر)

"و من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه" (١٥ – الإسراء)

"و ضاقت عليهم أنفسهم" (١١٨ – التوبة)

"و ما أبرئ نفسي" (٥٤ – يوسف)

و كذلك سولت لي نفسي" (٩٦ – طه)

النفس البشرية مكنون ليس من السهل أستجلاء مواطن الخفاء والتعقيد فى جوانبها المحيرة، ومازال الإنسان يدرس تراكيب هذه النفس من المعلومات التراكمية الإنسانية السابقة.

والنفس البشرية هى مردود لوجود الإنسان وتفاعله مع الروح الربانية. و النفس هي المُخاطبة والمُكلفة دوماً من الخالق، وهى التى سيقع عليها الثواب والعقاب. فلو أفترضنا أن الجسد المادى هو السيارة، فالأطارات تملؤها النفس أما السائق فهو العقل، فلابد أن يكون العجل مملؤاً بحجم معين من الهواء وإلا ستنقلب السيارة، ومهما كانت مهارة السائق فلابد من توازن السيارة (حجم الهواء وتوازن العجلة). أما الروح فهى الوقود الذى يحرك السيارة.

إن هذه النفس هى الصورة السالبة فى الكيان الإنسانى للروح فهى متعالية ومغرورة يحركها التعالى وحب السيطرة والبطش، والحقد والغضب حالها والشهوة سلطانها. فالشهوة شيء غير الحب بل أقل من الحب بكثير .. فهي رغبة النوع وليس رغبة الفرد .. إنها علاقة بين طبيعتين و ليست علاقة بين شخصين ..علاقة بين الذكورة والأنوثة .. والفرد لا يكتشف فيها نفسه ولكنه يكتشف نوعه و ذكورته .. والحب يحتوي على الشهوة ولكن الشهوة لا تحتوي عليه .. بالحب لا تكتشف فقط أنك ذكر .. ولكنك تكتشف أيضاً أنك فلان وأنك اخترت فلانة بالذات و لايمكن أن تستبدلها بأخرى.

وأحوال النفس غير مستقرة وشاردة وضالة الهوى. ولكن بأذن من الله يحدث تطابق بين الصورة الموجبة والصورة السالبة وهى النفس فينتج التقوى الحقة فى الكيان الإنسانى والتوحد فى محبة الخالق. والنفس أكثر أرتباطاً بالمادة البشرية الغير راقية أو الغير متعاونة مع العقل البشرى بل قد تتسلط عليه وتصل للتحكم به فيكون إنسان حقود غير خير، بل ويحب كل ما يخالف الفطرة. وقوة الضمير هى القوة الجاذبة ناحية النفس اللوامة (هى النفس المتصارعة بين الخير والشر فتارة تتلغب الطاعة على سلوكها وتارة يتغلب الجانب الآخر عليها، فهى فى صراع مستمر) أو النفس البصيرة (هى النفس التى أمتثلت لطاعة و أمر الله). ومع قوة الإيمان ترتقى سلالم الإيمان والمحبة فى الله لتصل للنفس المطمئنة (وهى النفس التى الفضيلة والمحبة مسلكها الدائم فترقى وتتسامى وهى التى أستوثقت من أمر الله فيها). والنفس المطمئنة داخل الذات الإنسانية هى دالة لإرتقاء الإنسان ليصل لمحبة خلق الله وطاعة الله وتوحده مع

المحبة المطلقة الإنسانية لتسود الروح مسلك المادة الفانية وتكون المادة تابعة مطيعة للروح بل وتذوب المادة فى الروح.

والنفس هي المتهمة في القرآن بالشح و الوسواس و الفجور و الطبيعة الأمارة، وللنفس في القرآن طرق وعروج، فهي يمكن أن تتزكى و تتطهر، فتوصف بأنها لوامة و ملهمة و مطمئنة و راضية و مرضية. و النفس محلها الصدر فالله يشرح الصدر للإيمان أو شرح بالكفر وليس العقل ولكن أقترن شرح الصدر بالنفس والإيمان والارتقاء والسمو أو بغضب الله. حيث أن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح والعكس بالعكس. القلوب القاسية مرتبطة بالنفس الغير مؤمنة و القلوب الرقيقة مرتبطة بالنفوس المؤمنة، وأبواب النفس السبعة هى:

١– الشهوة. ٢– الغضب. ٣– الكبر. ٤– الحرص. ٥– الحسد. ٦– البخل. ٧– الحقد. وأصل هذه الأبواب كلها و أخطرها و لبها الشهوة و الغضب و يتفرع منها الباقي. ومراتب النفس هى:

١- النفس الأمارة بالسوء.
٢- النفس اللوامة
٣- النفس المطمئنة.
٤- النفس الراضية
٥- النفس المرضية

أما الروح في القرآن فتذكر دائما بدرجة عالية من التقديس و التنزيه و التشريف، و لا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى أو شهوة أو شوق أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط أو ضجر أو ملل، و لا يذكر أنها تخرج من الجسد أو أنها تذوق الموت.. و لا تنسب إلى الإنسان و إنما تأتي دائما منسوبة إلى الله .

"فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا" (١٧ – مريم)

"فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" (٢٩ – الحجر).

"و أيدهم بروح منه" أي من الله (٢٢ – المجادلة)

"و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا" (٥٢ – الشورى) .

فالنفس الإلهية هي غيب الغيب، فالله ليس كمثله شيئ و هو مما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل له شبيها و لا يصح أن نقيس النفس الإلهية على نفوسنا... فالنفس الإلهية لا تتشابه مع النفس الإنسانية إلا في اللفظ و لكنها شيء آخر البتة..

"و يحذركم الله نفسه" (٢٨ – آل عمران)

"تعلم ما في نفسي و لا أعلم ما في نفسك" (١١٦ – المائدة)

أما نصيبنا من الروح فهو النفخة، ما حدث من أمر التسوية و التصوير و النفخ في صورة آدم يعود فيتكرر في داخل الرحم في الحياة الجنينية لكل منا.. فيكون لكل منا تسوية و تصوير، ثم نفخة ربانية حتى تتهيأ الأنسجة و يستعد المحل لتلقي هذه النفخة، و ذلك يكون في الشهر الثالث من الحياة الجنينية، و ينتقل الخلق بهذه النفخة من حال إلى حال ..

"ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" (١٤ –المؤمنون).

"ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه و نفخ فيه من روحه و جعل لكم السمع والأبصار و الأفئدة" (٨، ٩ – السجدة).

نفهم من هذا أن السمع والبصر والفؤاد هي من ثمار هذه النفخة الروحية.. وإنه بهذه المواهب ينقل الإنسان من نشأة إلى نشأة ومن مستوى إلى مستوى، وهذا هو معنى .. إن

نصيبنا من هذه الروح إذن هو نصيبنا من هذه النفخة.. وكل منا يأخذ من هذه النفخة على قدر استعداده. و بفضل هذه النفخة يصبح للواحد منا خيال وضمير وقيم وعالم من المثل.. والجسد و الروح فينا أشبه بأرض الواقع و سماء المثال .

علاقة نفس كل منا بروحه و جسده هي أشبه بعلاقة ذرة الحديد بالمجال المغناطيسي ذي القطبين. والذي يحدث للنفس دائما هو حالة استقطاب، إما انجذاب و هبوط إلى الجسد، إلى حمأة الواقع وطين الغرائز والشهوات، وهذا هو ما يحدث للنفس الجسدانية الحيوانية حينما تشاكل الطين وتجانس التراب في كثافتها، وإما انجذاب وصعود إلى الروح، إلى سماوات المثال والقيم والأخلاق الربانية، وهو ما يحدث للنفس حينما تشاكل الروح و تجانسها في لطفها وشفافيتها.. والنفس طوال الحياة في حركة وتذبذب واستقطاب بين القطب الروحي والقطب الجسدي.. مرة تطغى عليها ناريتها و طينتها، ومرة تغلبها شفافيتها و طهارتها .

والجسد و الروح هما مجال الامتحان والابتلاء، فتبتلى النفس و تمتحن بهاتين القوتين الجاذبتين إلى أسفل و إلى أعلى لتخرج سرها، وتفصح عن حقيقتها و رتبتها و ليظهر خيرها وشرها . ومن هنا نفهم أن حقيقة الإنسان هي (نفسه)، والذي يولد و يبعث و يحاسب هو نفسه، و الذي يمتحن و يبتلى هو نفسه، و ما يجري عليه من الأحوال و الأحزان و الأشواق هي نفسه.. أما جسده وروحه فهما مجرد مجال تماما مثل الأرض والسماوات في كونهما مجال حركة بالنسبة للإنسان لإظهار مواهبه و ملكاته .. فكما أعطى الله لهذه النفس عضلات (جسدا) كذلك أعطاها روحا لتحيا، وتعمل وتكشف عن سرها ومكنونها و تباشر خيرها و شرها.

وبهذا المعنى تكون كلمة (تحضير الأرواح) كلمة خاطئة، فالأرواح لا تستحضر، ولا يمكن لأي روح أن تستحضر، لأن الروح نور منسوب إلى الله وحده، وهو ينفخ فينا هذا النور لنستنير به.. وهذا النور من الله وإلى الله يعود ولا يمكن حشره أو استحضاره.. أما ما يحشر ويستحضر فهي الأنفس و ليس الأرواح.. هذا إذا صح أن هؤلاء الناس يستحضرون أنفسا في

جلساتهم و أغلب الظن أن ما يحضر يكون من الجن المصاحب لهذه الأنفس في حياتها (القرناء)، و كل منا له في حياته قرين من الجن يصاحبه، و هو بحكم هذه الصحبة الطويلة يعرف أسراره و يستطيع أن يقلد صوته و إمضاءه، و هذا الجن هو الذي يلابس الوسيط في غرفة التحضير المظلمة، و يدهش الموجودين بما يحسبونه خوارق .

أما الأرواح فلا يمكن استحضارها. أما الأنفس فلا يحشرها و لا يحضرها إلا ربها. و النفس لا يمكن أن تتحول إلى روح، و إنما هي في أحسن أحوالها ترتقي حتى تشاكل الروح و تجانسها بقدر ما تتخلق بالأخلاق الربانية، و بقدر ما تقترب من المثال النوراني (الروح التي نفخها الله في الإنسان). كذلك يمكن لهذه النفس أن تتدنى و تهبط حتى تشاكل الشياطين، و تجانس إبليس في ناريته .

والنفس التي تتطهر و تتزكى حتى تشاكل و تجانس الروح في لطفها هي التي يقربها الله من عرشه يوم القيامة، لأنها بهذا التطهر و الترقي تصبح نفسا ربانية مكانها إلى جوار الله. و ما النفوس المظلمة التي تهبط إلى فجور وغلظة الدرك الشيطاني، سيكون أما مكانها مع النفوس النارية السفلية في قاع الظلمة والجحيم. أما الروح فلا مكان لها في جنة أو جحيم، و إنما هي نور من نور الله تنسب إليه، و هي منه و لايجري عليها ابتلاء ولا محاسبة و لا معاقبة و لا مكافأة.. وإنما هي المثل الأعلى.

النفس والطاقة

القشة في البحر يحركها التيار و الغصن على الشجرة تحركه الريح و الإنسان وحده .. هو الذي تحركه إرادته..فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح ..ويضع شراعه في مواجهته يمتطي الريح ويسخره لخدمته وحينما يفطن إلى أن الخشب أخف من الماء .. و يصنع مركباً من الخشب .. يمتطي الماء .. وبالمثل حينما يفطن إلى نفع الناس و يسير في اتجاههم .. يكسب الناس ويكسب معونتهم .. إن المجتمع يضغط على الفرد و على حريته .. و لكن العقل يستطيع دائماً أن يقلب هذا الضغط إلى مصلحة و منفعة و حرية .. بأن يكتشف ببصيرته

القوانين التي تربط الأشياء بعضها ببعض.

الطاقة هي القدرة على احداث فعل أو تأثير" و هذا التعريف أيضا لا يعرّف ماهية الطاقة على الإطلاق بل يقر صفة أو مظهراً من مظاهرها و هو القدرة على التأثير. و بجانب أشكال ظهور الطاقة المعروفة المختلفة كالحرارة و الحركة... الخ، هناك " تأثيرات" مختلفة يمكن أيضا أن تعرف كمظاهر أشكال للطاقة. أليست الإحساسات قادرة على إحداث تأثير مثلا؟ فأنا حينما أغضب ألا تتولد طاقة حرارية في جسدي كله؟ و يتولد عن هذا الغضب ارتفاع في ضغط الدم و نسبة السكر؟ وإذا فرحت برؤية إنسان أحبه، ألم يقر الطب التقليدي نفسه بعد إجراء التجارب و القياسات بأن هذا يتسبب في تغيرات تطرأ على وظائف أعضاء جسدي المختلفة ؟ وكذلك الأفكار سواء سلبية كانت أم ايجابية، أليست لها القدرة على إحداث تغيرات فسيولوجية؟ الصلاة و مختلف الطقوس الدينية، أليست قادرة على تحويل الطاقات الفكرية السلبية إلى أخرى ايجابية؟ أليست قادرة على الشفاء؟ ألا تبدل الحرارة المتولدة عن الأفكار والإحساسات السلبية بطاقة باردة لها تأثير مهدئ للجهاز العصبي؟ يجب أن تتسع كلمة طاقة لتشمل الطاقة الحيوية، الحسية، الفكرية، والروحية .

هكذا تظهر لنا صورة جديدة بحاجة الى فيزياء جديدة أيضا للتعامل معها. يقول لنا بعض علماء الفيزياء أن خلق هذا الكون بدأ بانفجار أولي كبير أسموه "البيج بانج"، نوع من الانفجار نتج من حالة عدم هاوء سبقت الانفجار وتولدت عنه طاقة، لم يخلقها هو لأننا نعلم في الفيزياء أن الطاقة لا تخلق من عدم و لا يمكن إعادتها إلى حالة عدم إذن فالطاقة لابد أنها كانت موجودة أصلا في حالة العدم هذه قبل بدء الكون، كانت صفة أو قدرة موجودة كامنة فيما نطلق عليه الآن كلمة العدم، فالطاقة اذن هي " شئ " عندما يكون كامناً نعرفه بأنه " لا شئ " ويصبح شيئاً فقط حينما تتحرك الطاقة تنتج عنها الحركة الأولية، الطاقة تتسبب في " الحركة الأولية ". الاختلاف الوحيد بين لا شئ وكل شئ هو الحركة ولكن ما هو هذا الشئ الذي يتحرك ؟ نحن لا نعلم. كل ما يمكن معرفته هو أن هذه الحركة تتسبب في خلق ثنائية

الأضداد، و أن هذه الحركة متوازنة و منتظمة بطريقة يمكن أن نطلق عليها " هندسية ". توازن يحول الأضداد إلى مكملات مما يعطي فرصة الخلق على جميع المستويات بما فيها المستوى المادي أيضا، هذه الحركة المنتظمة تخلق الزمان و المكان اللذان يظهران في مستويات مختلفة تبعا لقانون ومستوى الإدراك و جميع الصفات لا يمكن لها أن تتواجد الا في الزمان و المكان لأننا بحاجة إلى مضاداتها لندركها بها، كالنور ندركه فقط بالظلام و فوق ندركه بتنسيبه إلى تحت، وهكذا إذن لا يمكن لنا أبدا معرفة جوهر الطاقة الذي هو وراء الزمان والمكان. من خلال الصفات يمكن لنا أن نحاول كيفما شئنا و لكننا في النهاية سنظل دائما مع هذا السؤال الذي لا جواب له: ما هو جوهر الطاقة؟

فلسفة الموت

ليس هناك أغرب من الموت ..إنه حادث غريب ..أن يصبح الشيء .. لا شيء ...ثياب الحِداد .. و السرادق .. و الموسيقى .. و المباخر .. و الفراشون بملابسهم المسرحية و نحن كأننا نتفرج على رواية و لا نصدق .. و لا أحد يبدو عليه أنه يصدق .. لا أحد يبدو أنه يصدق أو يعبأ بالموت .. حتى الذي يحمل النعش على أكتافه .. الخشبة تغوص في لحم أكتافه .. و عقله سارح في اللحظة المقبلة و كيف يعيشها .. الموت لا يعني أحداً .. و إنما الحياة هي التي تعني الكل .. نكتة !! من الذي يموت إذن؟ الميت؟ و حتى هذا لا أحد يدري مصيره .. إن الجنازة لا تساوي إلا مقدار الدقائق القليلة التي تعطل فيها المرور و هي تعبر الشارع .. و هي عَطلة تتراكم فيها العربات على الجانبين .. كل عربة تنفخ في نفيرها في قلق .. لتؤكد مرة أخرى أنها تتعجل الوصول إلى هدفها .. و أنها لا تفهم .. هذا الشيء الذي اسمه الموت.

إن الغيب أساس الوجود والغيب أساس الحياة، كما أن الفراغ دالة المادة، والحركة دالة الزمن. فالروح دالة وجود الجسد الحى أو بمعنى آخر أن دالة حياة الجسد هو أتصاله بالروح.

فأساس أى شئ الغيب قبل الشهادة والعدم قبل الزمن. كما أن الموت دالة الحياة، ذلك أن الإنسان وجد فى حيوات غيبية متتالية فقد كان فى ظهر أبيه كغيب، ثم فى عالم النطفة ثم عالم المضغة، ثم عالم كمالة التكوين لمدة ٤٠ يوماً ليبدأ عالم اكتمال الخلق، وهنا هو بداية لكتابة اسم المولود فى عالم الحياة المشهو وفى نفس الوقت عالم الموت وهو عالم غيب مطلق حيرت العقول. والموت حق باعتباره أمر واقع لامحالة، فلا فرار من الموت ولانجاة منه، وهو سنة أوقعها الله على جميع أصناف خلقة فلا يبقى ألا وجهه الكريم، وكل شيء هالك إلا وجهه. إن الموت هو انطفاء بذرة الحياة الذي يعقب توقف الجسد عن أداء وظائفه الفسيولوجية، والموت على هذا حالة هو العدم، ومجرد اضمِحْلال وتوقف. و أن الموت مخلوق وأنه نعمة كالحياة، مع أن الموت في الظاهر انحلال وعدم وتفسّخ وانطفاء الحياة وهادم اللذات، فكيف يكون الموت مخلوقاً ونعمة؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يجب أن نذكر عدة نقاط:

- الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظمى!
- إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدّرها حزن ولا همّ.
- إن الشيخوخة وأمثالها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورتَ أن أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حالياً مع والديك اللذين بَلغا أَرذل العمر، لفهِمتَ مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة؛ بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضاً بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.
- كما أن النوم راحة للإنسان ورحمة، ولاسيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت –

الذي هو أخو النوم– رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم إلى الانتحار.
إنّ القلب عبارة عن عضلة قوية إلى درجة مدهشة. وينبض القلب حوالي ٧٠ مرة في الدقيقة الواحدة. ويضخ في كل مرة ٥٩ سنتمترا مكعبا من الدم. وينبض القلب خلال ٧٠ عاما ٢,٥ مليار مرة يضخ خلايا ١٥٢ مليون لترا من الدم. وهذه الكمية تساوي ما يعادل ملء خزان الوقود لعشر طائرات من طراز بوينغ ٧٤٧ في كل عام. فماذا لو ترك لك هندسة وترتيب هذه الدقات القلبية؟ حيث يسع خزان الوقود لطائرة من طراز بوينغ ٧٤٧ كمية قدرها ٢١٧٠٠٠ لترا من الوقود، فأين أنت وكيف تتحكم فى هذه الكميات أيها الإنسان.

١-الموت الجسدى

الحديث عن الموت يتضجر منه كثير من الناس لأنهم يكرهون الموت فيكرهون الحديث عنه، ولكن الموت حتم على جميع الأحياء ولا مهرب لنا عنه سواء كرهناه أم لا وفيه يتبين مصيرنا النهائي. والشخص الميت دماغيا لا يستطيع التنفس لذلك نسبة الأكسجين في الدم تقل بشكل تدريجي وسريع مما يؤدي في النهاية إلى توقف القلب أيضا عن العمل بسبب قلة الأكسجين اللازم لعضلات القلب. فطبيا هناك تعريفان للموت:

الموت السريري **Clinical death** هو حالة الانعدام الفجائي لدوران الدم في الأوعية الدموية والتنفس والوعي. في أحيان قليلة يمكن بواسطة انعاش القلب والرئتين إحياء شخص ميت سريرياً. نقطة مهمة هنا وهي إذا لم يتم التدخل بسرعة في الإنعاش فإن الشخص سيدخل حالة الموت البيولوجي.

الموت البيولوجي **Biological Death** وأحيانا يسمى الموت الدماغي أيضا هو حالة انعدام وظائف الدماغ والنخاع الشوكي بشكل كامل ونهائي. وهذه الأعضاء الثلاثة المذكورة لن ترجع إليها وظائفها أبداً (على الأقل وفقا لمعلوماتنا العلمية والتقنية الحالية).

٢-مفهوم الموت الحقيقى

كل منا يحمل جثته فى ظاهرة فليس هناك أغرب من الموت كحالة أن يصبح الشيء

.. لا شيء .. حتى المشيعين الذين يسيرون خلف الميت لا يفكرون إلا في المشوار. وأولاد الميت لا يفكرون إلا في الميراث. والحانوتية لا يفكرون إلا في حسابهم. والمقرئون لا يفكرون إلا في أجورهم .. وكل واحد يبدو أنه قلق على وقته أو صحته أو فلوسه.. لأن الموت في حقيقته حياة. ولأنه لا يحتوي على مفاجأة .. ولأن الموت يحدث في داخلنا في كل لحظة حتى و نحن أحياء .. كل نقطة لعاب .. وكل دمعة .. وكل قطرة عرق .. فيها خلايا ميتة .. نشيعها إلى الخارج بدون احتفال .

ومن الخطأ أن يحاول الإنسان إثباتَ هذه المعارف الدقيقة للغاية بالعقل المجرد. فيجب أن نعرف أنه كما لا يمكن للعين أن تخبر عن مذاق الأشياء الحلوة، ولا يمكن للسان أن يرى الأشياءَ كذلك تماما لا يمكن للعقل وحدة أن يحلَّ عقدةَ تلك العلوم الأخروية التي لا تحصل إلا بالمكاشفات الربانية.

الموت إذن حدث دائب مستمر .. يعتري الإنسان وهو على قدميه و يعتري المجتمعات و هي في عنفوانها و هو في نسيج الإنسان .. في جسده .. وفي كل نبضة ينبضها قلبه مهما تدفقت بالصحة و العافية، وبالموت تكون الحياة .. وتأخذ شكلها الذي نحسه ونحياه .. لأن ما نحسه و نحياه هو المحصلة بين القوتين معاً .. الوجود و العدم و هما يتناوبان الإنسان شداً .. وجذبا. إذن ما السر في هذه الدهشة التي تصبينا حينما يقع أحدنا ميتاً. والموت فضيلة و خير بالنسبة للكون كله لأن به تكون الأشياء موجودة و تكون المخلوقات مضطربة بالشعور والحياة، و لكنه شر الرذائل بالنسبة للإنسان الفرد .. بالنسبة لك أنت .. و لي أنا .. لأنه ينفقنا كضرائب إنشاء و تعمير .. و يقدمنا قرابين على مذبح الوجود و نحن لا نفهم هذا النوع من القربان .. و لا نستطيع أن نفهمه لأنه قربان فظيع .. و تضحية معناها أن نموت و نهلك .

حينما نعيش حياتنا لا نضع اعتباراً للموت و نتصرف في كل لحظة دون أن نحسب حساباً للموت .. و ننظر إلى الموت كأنه اللامعقول .. فنحن في الواقع نفكر و نتصرف بهذه الأنا العميقة التي هي الروح و التي لا تعرف الموت بطبيعتها. فالموت بالنسبة للروح التي تعيش

خارج منطقة الزمن هو بالنسبة لها .. لا أكثر من تغيير ثوب .. لا أكثر من انتقال .. أما الموت كفناء وعدم فهو أمر لا تعرفه، فهي أبداً و دائماً كانت حالة حضور وشخوص .. إنها كانت دائماً هنا إنها الحضرة المستمرة التي لم ولا يطرأ عليها طارئ الزوال . وكل ما سوف يحدث لها بالموت .. أنها سوف تخلع الثوب الجسدي الترابي ..

وكما تقول الصوفية تلبس الثوب البرزخي .. ثم تخلع الثوب البرزخي لتلبس الثوب الملكوتي .. ثم تخلع الثوب الملكوتي لتلبس الثوب الجبروتي .. كادحة من درجة إلى درجة ارتفاعاً إلى خالقها .. كل روح ترتفع بقدر صفائها و شفافيتها و قدرتها على التحليق .. على حين تتهابط النفوس الكثيفة إلى ظلمات سحيقة و تنقضي عليها الآباد و هي تحاول الخلاص.

وأترك الصوفيين لمشاهداتهم حتى لا نضيع معهم في التيه، و ليس هدفي من هذه الدراسة عبور حاجز الموت لمعرفة ما وراءه ، فهذا طمع في غير مطمع و رغبة في مستحيل و يكفي أن أقف بالقارئ ليتأمل نفسه و يكشف ذاته العميقة الحاكمة الآمرة تلك التي أسميتها الروح .. و التي استدللت عليها بأبلغ دلالة .. بشعور الحضرة التي يشعر بها كل منا في داخل نفسه تلك الحضرة المستمرة التي لا يطرأ عليها طارئ الزوال و لا تهب عليها رياح التغيير وكأنها العين المفتوحة داخلها على الدوام.

ذلك الصحو الداخلي ذلك النور غير المرئي في نفوسنا و الذي نرى على ضوئه طريق الحق و نعرف طريق القبح من الجمال و الخير من الشر .. تلك العتبة إلى نرصد من فوقها حركة الزمن و ندرك مروره .. و نرى مرور الأشياء و ندرك حركتها .. تلك النقطة في داخل الدائرة .. المركز الذي تدور حوله أحداثنا الدنيوية الزمنية و هو شاخص في مكانه لا يتحرك و لا ينصرم له وجود .. الروح .. حقيقتنا المطلقة التي هي برغم ذلك لغز. فعالم الروح هو عالم المطلق أو اللطيفة النورانية وعالم المادة هو عالم الملموس والمحدود فطبيعة الجسد تراب الأرض وهو دالة الحياة الظاهرية.

الموت والغيب ولماذا؟

إذا كان النوم هو الميتة الصغرى فالموت له مراحل مختلفة تبتدئ بحشرجة الموت وتنتهى بإنفصال شبه كامل بين الروح والنفس والجسد ويأخذ كلاً منها وجهته فيذهب الجسد لدود الأرض ليحلله لمكوناته الأصلية مرة أخرى وهى أيضاً لها مراحل عديدة وإن لم تحدث بالسرعة المطلوبة تشم رائحة كريهة مثلاً. والروح تذهب لصاحب النفخة فى الجسد وهو الخالق أما النفس فيستمر أنفصالها عن الجسد لعدة مراحل تنتهى بعد أربعين يوماً، يكون خلالها هناك وعى بما حول المتوفى، ويقل تدريجياً مع مرور الوقت. والموت يعنى الاستمرارية الكلية للحيوات للنفس فهو خطوة فى طريق الدوام للنفس الإنسانية. فموت الثمرة وتحللها وخروج البذرة التى تنبت فى الأرض مرة أخرى هى استدامة للثمرة واكتمال لنموها من جديد. فالموت انتقال من الحياة الظاهرة المشهودة للحياة الغيبية، وحتى الجسد عندما يموت يدفن داخل الأرض ليتحلل إلى تراب ويرجع للأرض الأم حيث يكون مادة غنية لحياة أخرى. فالإنسان فى رحم أمه يخلق فى ظلمة ليكون صالحاً للحياة الأرضية بجميع مقوماتها، أما النفس بعد الموت فهى مرحلة نمو فى عالم ألطف من هذا العالم المشهود. ومن الغريب أننا نقوم بذلك يومياً فعندما يولد الطفل يؤذن وتقام الصلاة فى أذنيه بدون صلاة، وعندما يموت يصلى على الجثمان بدون إقامة وكأن كل هذا هو دوام للعبادة.

٣-الحاضر هو جثة الماضي

الموت في حقيقته حياة، ملايين الكرات الحمر تولد و تعيش و تموت في دمنا دون أن ندري عنها شيئاً، ومثلها الكرات البيضاء و خلايا اللحم و الدهن و الكبد و الأمعاء كلها خلايا قصيرة العمر تولد و تموت و يولد غيرها و يموت، وتدفن جثثها في الغدد أو تطرد في الإفرازات في هدوء و صمت دون أن نحس أن شيئاً ما قد يحدث. حتى الأفكار تولد و تورق وتزدهر في رؤوسنا ثم تذبل وتسقط، حتى العواطف تشتعل و تتوهج في قلوبنا ثم تبرد، حتى الشخصية كلها تحطم شرنقتها مرة بعد أخرى و تتحول من شكل إلى شكل. إننا معنوياً و أدبياً و مادياً نموت جزئياً ليولد جزء جديد كي تستمر الحياة تتطور بداخلنا. فالموت هو فى نسيج

الإنسان في جسده و في كل نبضة ينبضها قلبه، وفى كل شهيق وزفير، فلكى تستمر الحياة لابد أن يستمر الموت فتطور الإنسان الجسمانى والنفسى هو تصارع وتقابل بين لحظة وجود ولحظة عدم.

ما يحدث داخلنا من موت لا نراه لا نرى كرات الدم و هي تولد و تموت، لا نرى الخلايا و هي تحترق، لا نرى صراع الميكروبات و هي تقتلنا ونقتلها، وخلايانا لا ترى نفسها وهي تفنى، كل ما يحدث في داخلنا يحدث في الظلام.

والجسم الميت يبدأ تدريجيا بفقدان درجة الحرارة ويصبح الجسم بارداً ويتحلل تدريجيا بمرور الزمن وتنبعث منه أيضا رائحة كريهة.

متى بدأ الموت؟

ويعتقد أن الموت خلق منذ نزول آدم وحواء للأرض بسبب خطيئة آدم وحواء التي أدت إلى طردهما من عالم الخلد. فالموت أمر قبلي، خلقت الحياة وخلق الضد معها. و بالتالى فكل حياة يكمن الموت في جوفها. والموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهي؛ لأن موت أبسط الأحياء –وهو النبات- يُظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها. فموت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسّخاً وتحللاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكّل للذرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث إن هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً، بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛ فهذا الموت إذن مخلوق منتظم كالحياة .

وكذلك فإن ما يحدث في معدة الإنسان من موت لثمرات حية أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغذاء في أجزاء الحياة الإنسانية الراقية. فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية. فلئن كان موت النبات –وهو في أدنى طبقات الحياة– مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموتها نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة في عالم الهواء".

فالموت بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئية المألوفة. والموت بهذا هو قنطرة العبور وممر الخلوص إلى الحياة الألطف. ومصيرُ الإنسان في هذا أشبه ما يكون بمصير حبة القمح أو النواة التي تُودع الأرضَ وتغمر بالماء فيؤدي ذلك إلى تحولات كيميائية غير عشوائية تخضع لقانون صارم في التحول والتغير وهي مع ذلك تتبدى للناظرين مجرد حبة عفنة متفسخة، لكنها سرعان ما تنبثق عن فسيلة تحمل سنابل عديدة في كل سنبلة منها عشرات الحبات. وهذا التجلي اليانع ليس في الحقيقة إلا حياة جديدة للحبة الواحدة الواهنة المتمزقة في أحشاء الأرض، ولولا ذلك التفسخ والاضمحلال لما وجدت الحبة إلى هذه الحياة الأوفر طريقاً أو سبيلاً. وتفسخها الذي يُرى اضمحلالاً وتحللاً إن هو في واقعه إلا إشراقة جديدة للحياة.

وإذا كان هذا الانتقال يتم بهذه الكيفية وبهذا الانضباط التام لقوانين كيميائية صارمة، فمعنى ذلك أن هناك حركة قوية منضبطة يراها الناس اضمحلالاً وهي عمليات معقدة محكومة بسنة الله في الخلق؛ وحين تصير حبة القمح مئات الحبات، فإنها قد تصير غذاء للإنسان، فتخالط منه الدم والخلايا وتدخل في تركيبه وبنائه وتصير جزءاً من خلايا التفكير ومن الأعصاب فيه، فتنتقل إذن لتحيا مجدّداً في صورة أشرف بكثير من صورتها الأولى. وما كان لها أن تكون كذلك لولا ذلك الاضمحلال الظاهري الذي يُرى في أعين الناس فناءً وعدماً وهو في واقعه وجود جديد وتجلٍّ أبرز من الأول. إن صورة استعادة الحبة للحياة ليست في واقعها إلا صورة

مُقرِّبة لاستعادة الإنسان حياته بعد أن يموت فينتقل إلى وجود ليس الوجود الأول شيئاً بالنسبة إليه، ومفارقته الحياة الدنيا أمر ضروري ليُسَنْبِل حياة جديدة سالمة من كل منغصات الحياة الأولى.

هذا الموت عبارة عن تفاعلات منضبطة منسقة يَنتُج عنها استعادة الإنسان لوجوده مرة أخرى، وهذه التفاعلات ليست ولا شك إلا أمراً وجودياً. وتكمن أهمية هذا التحليل في أنه استطاع أن يعطي صورة غيرَ مُرعبة عن الموت، لأن الموت بهذا ليس فناء ولا اضمحلالاً ولا انسحاباً، وإنما هو مجرد تحول ونُقلة إلى الأكمل والأشرف. ولقد كان الخوف من الموت دائماً مرتبطاً بتصوره عدماً وفناء، فمن ثَم كان الإنسان أسير ذلك الخوف، يراه حرباً على الوجود الإنساني وهدماً لكينونته، فيكرهه ويتحاشى أسبابه حتى لو كانت جهاداً من أجل الحق ودفاعاً عن العقيدة ومواجهة للباطل. إن فلسفة الموت إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأخرى بالأولى، وهي رفض لفلسفة العدم والإلغاء والتشاؤم التي أشاعتها الفلسفات المادية التي حصرت حياة الإنسان في البعد الأول من رحلته، وأَوهَمَته أن الموت نهايته ودماره فتأزم لذلك.

الموت التي هي عتبة اليوم الآخر، وهو جزء من الغيب الذي يؤمن به كل مؤمن. التحليل الفلسفي للموت مفيد على المستوى النفسي لأنه يكسب المرء اطمئناناً وانسجاماً مع الذات وثقة بالحياة في بعدَيها الظاهر والباطن؛ كما أنه يهوّن من شأن الموت فلا يجعله ذلك الشبَح المرعب الذي يفني الإنسان ويدمره. ومثل هذا الإحساس لا يكسب الإنسان إلا شجاعة خاصة لمواجهة المشاق واقتحام الصعاب مادام الموت وهو أقصى ما يراد بالإنسان ليس في حقيقته إلا رحلة نحو حياة تقر النفس بها وتطمئن، لأن الدار الآخرة هي دار الحياة لو كانوا يعلمون. الموت ليس نهاية للحياة بل هو مجرد نقلة برزخية لحياة أخرى غير مشهودة، فالزمن بمفهومه الدنيوى ينقطع فيه الجسم المادى فقط أما النفس والروح فهى لا تتعامل مع هذا الزمن

في الأساس وبالتالى لا يحدث انقطاع لمن لم يوصل.

فلسفة النوم

في ختام يوم من العمل المضني، ليس هنالك أفضل من الاستغراق في سبات عميق للتخلص من تعب النهار والاستعداد لصباح جديد مليء بالنشاط والحيوية. ولكن هل تقتصر فوائد النوم على الراحة الجسدية؟ وما علاقة النوم بالدماغ والذاكرة والقدرة على الإنتاج والإبداع؟ فيما ما مضى اعتبر القدماء أن النوم مضيعة للوقت ليس إلاّ، أما اليوم فقد أثبت العلم الحديث أن الدماغ يعمل خلال النوم خمسة أضعاف ما يعمله خلال الوعي. فتستمر الحياة على شكل وظائف فسيولوجية، دورة الدم تجري، النفس يتردد، الخلايا تفرز، الأمعاء تهضم، كل هذا يتم بطريقة تلقائية والجسد ممدد بلا حراك تماماً مثل نبات مغروس في الأرض تجري فيه العصارة و تنمو الخلايا و تتنفس من أكسجين الجو. إن سر الموت يكمن في لغز النوم لأن النوم هو نصف الطريق إلى الموت، أنها لحظة غريبة يسقط فيها الجسد في هوة التعب و العجز. و هذه اللحظة لحظة عميقة لأن العقل يخرج فيها من إطار ظروفه المكانيه والزمانية و يتحرر من الألفة و التعود والأحكام العادية و ينظر حوله من جديد ليصدر أحكاماً جديدة أكثر تحرراً و إلهاماً.

والنوم هو حالة طبيعة من اللاوعي الكامل التى يحتاجها الإنسان لاستكمال وظائفه الحيوية، فلو لم نكن ننام لفقدنا جزءا كبيرا من ذاكرتنا و لتعطلت عملية نمونا و لعجزنا عن أبسط المهمات. وعندما ينام الإنسان يرسل جذع الدماغ إشارات محبطة بواسطة هرمون السرتونين إلى الجهاز الشبكي المنشط **RAS**، وهو مركز الانتباه والتحفيز في الإنسان ونشاطه مهم للحفاظ على الوعي واليقظة. وعند وجود أي خلل به يصاب المرء بما يعرف بالغيبوبة خلال النوم يزداد تركيز هرمون الملاتونين في المخ (وهو الذي يساعدنا على مواصلة النوم) ليصل إلى أعلى تركيز له في آخر مراحل النوم. و عندما تشرق شمس الصباح يحفز الضوء

خلايا معينة في شبكية لترسل إشارات للمراكز في الدماغ لتحبط من إفراز الهرمون ويبدأ الإنسان فى الصحو.

وأثناء النوم يتم تصحيح وترميم ومساعدة على الشفاء، ويتم تركيب المواد الغذائية في المخ، ويرتاح الجسم من التعب، ويشعر بالراحة، ويزداد فيه إفراز هرمونات النمو، ويزداد إنتاج البروتين. النوم له أثر على حيوية ونضارة الوجه والجمال.. ونمر بمرحلة منه تسمى النوم العميق وهي تشكل ١٥% فقط من النوم الهادئ، (هذه ربما التي نسميها بالعامية سابع نومة). كما أن النوم الصحّي يعود على الإنسان بفوائد جمّة أبرزها تحسين قدرة الذاكرة، وتقوية جهاز المناعة، والمساعدة على النمو، وزيادة القدرة على الإنتاج والإبداع، إضافة إلى إراحة العضلات لا سيما عضلة القلب.

كما أن النوم يعطي القدرات العقلية للمبدعين، و القوة في التركيز، و يتعامل ويحلل ويتطور البرامج المخية من خلال كل المعطيات اليومية المرتبطة باللاوعى وربطها بالمتاح منها فى المخ من الأصل، وبالتالى تحدث كثير من حالات الأبداع أثناء النوم. و هنا نذكر أحلام المبدعين والمفكرين، فهناك الكثير مثل قانون "مالديف" في الرموز الكيميائية.. اكتشفه هذا العالم أثناء النوم، أيضا العديد من قصائد "أحمد شوقي" رآها في النوم، ينقل ذلك عن "أديسون" أيضا.. فهذه هي الأحلام الإبداعية. بالتأكيد تكون هذه الفكرة مسيطرة على ذهن المفكر أو العالم وتؤرقه، لكن عقله الواعي لا يجد لها حلا، أما عندما ينام المرء، فأحد وظائف هذا النوم أنه يرتب الأفكار ويصنفها، والأفكار التي ليس لها دور يلقي بها جانبا.. ففي حالة الصحو واليقظة لم يكن له قدرة على تصنيفها بشكلها السليم، لكن عقلك اللاواعي هو عقل ذكي جدا أذكى بكثير من عقلك الواعي والآن جاء دوره وهو الذي يستطيع أن يصل بهذه المعلومات إلى نتيجة سليمة.

والفرق بين شخص وآخر في وقت النوم هي مساحة الرؤيا التي تنكشف لكل واحد. فشخص لطيف يشبه جهاز تلفزيون به مليون صمام مساحة الرؤيا فيه شاسعة و قدرة

استقباله كبيرة فهو يستطيع أن يستقبل صوراً من المريخ على شاشة بانورامية عريضة لأنه مؤيد بوسائل إلهية. و الإنسان الآخر هو جهاز ترانزيستور صغير يسمح له باستقبال ترددات محددة، لإنها ستمسك بالذات الدنيوية من مال وسلطة، ولكن الاثنين يسبحان في بحر الحقائق كلاً لما يسر له من الخالق.

كان الشاعر الروماني "أوفيد" يسمي النوم "الموت المزيف" الذي يعيش في كهف على شواطئ نهر (ليثي)، بينما كانت بعض الفلسفات مثل الفلسفة الهندية القديمة المعروفة بـ "الأوبانيشاوز" تعتبر النوم العميق الهادئ حالة تعبر عما يمكن أن نسميه السلام الكامل مع النفس والعالم فإن فكرة النوم استخدمت أيضًا كرمز على الغفلة وفتور الهمة والجهل.

والنوم عملية مركبة شديدة التعقيد رغم أنها لا تبدو هكذا في ظاهرها فأسلوب النوم في أغلب الأحوال يعتبر نتاجًا للتقاليد والأعراف الاجتماعية، ففي شمال أوروبا ووسطها وشمال أمريكا على سبيل المثال يندر أن تجد الراشدين من العاملين يأوون إلى القيلولة، بينما تجد هذا أمرًا شائعًا في بلاد البحر المتوسط وفي أجزاء كثيرة من أمريكا الوسطى والجنوبية، ومن شأن عادة القيلولة أنها تتيح للناس في البلاد الجنوبية تجنب أشد الأوقات حرارة من اليوم ليقضوه في النوم، ثم ليعودوا من بعد ذلك إلى العمل والاستمتاع.

وهناك اعتقاد أن كل مرحلة من النوم متخصصة في تحليل نوعية معينة من المعلومات، ولذا فإن الفروق الحادة بين مرحلة حركة العين السريعة ونوم الموجة البطيئة وغيرها من المراحل تزداد أهمية. فبينما أدوية علاج مشاكل النوم المطروحة في الأسواق تعمل على تأكيد النوم، إلا أنها لا تزيد نوم الموجات البطيئة. هناك رباعية مشهورة للخيام يقول فيها :

فما أطال النوم عمرًا   وما قصَّر في الأعمار طول السهر

وعلمياً يجب أن نعرّف أن النوم له مراحله المختلفة. فالنوم هو حالة من اللاوعي يقسم إلى خمس مراحل أولها النعاس، ثم النوم السطحي، فالنوم العميق، يليه النوم العميق جداً، ثم مرحلة الأحلام.

النوم يساعد على التكيّف

النوم يعد نوعًا من التكيف الإنساني الداخلى وفترة ترتيب لكل مكتسبات اليوم الداخلية والخارجية بصورة متناسقة مع سابقتها من المكتسبات المتاحة، و بذلك يحدث تعاظم لما هو متاح من موجودات ومكتسبات من البيانات. والإنسان أثناء النوم يستهلك قدراً أقل من الطاقة عندما تنخفض معدلات التمثيل الغذائي عنده، وكذلك معدلات تبدد الحرارة وضياعها من الجسم وهكذا يمكن أن تنظر إلى خمول وسكون ظاهرى بالرغم من وجود نشاطات داخلية خاصة فى الرأس بصورة ملحوظة.

النوم والزمن

السياق الزمني في النوم غريب، إنه زمن آخر غير زمن الساعة فالحلم قد يحتوي على أحداث سنة كاملة بتفاصيلها من حب إلى زواج إلى طلاق إلى جريمة ومع هذا لايستغرق بحساب الساعة أكثر من ثانية. والعكس يحدث أحيانا فتمر على النائم عشر ساعات وفي ظنه أن عقرب الساعة لم يتحرك إلا دقائق معدودة. الزمن يتخلص من قيود الساعة أثناء النوم ويخضع لتقدير آخر هو تقدير المخيلة التي توسع وتضيق فيه على حسب ازدحامها بالحوادث والرغبات. إن الزمن أثناء النوم من صناعة النائم فهو شخصى و محدود، كالفنان الذي يؤلف قصة ذات تسلسل زمنى يتسارع ويتباطأ حسب المؤلف. ومعظم أحلامنا عبث في عبث وأمنيات مستحيلة ولكننا نعيشها كما نريدها ونحن نائمون.

والنوم حالة سكون لصور الحياة من حيث أن مقدار السكر والأكسجين الذي يحتاجه النائم ليستمر في الحياة أقل بكثير من المقدار الذي يحتاجه في اليقظة. والإنسان الذي يعيش مائة سنة بين نوم ويقظة يستطيع أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا عمل على حسابه أن ينامها كلها. ولكنه صورة مهمة للحياة باليقظة فتصور شخصاً لم ينم ٧٢ ساعة كيف يكون معدل تركيزه وتفكيره وأدراكه السوى؟ فالنوم وظيفة اعادة الإدارك وترتيب الأفكار وكذا الاتصال

بالعوالم الخارجية الألطف وقد تكون العوالم النورانية حسب ارتقاء النفس البشرية فى هذه العوالم اللطيفة.

وعندما ينام الإنسان ينتهي إحساسه بانسياب الزمن وينتهي تفاعله مع تغير عناصر المكان فبعد مرور فترة من نومه يأخذ الجسم حاجته الكاملة من الراحة، و بعد أن يفيق من نومه لا يمكنه تقدير الزمن الذي مر عليه أثناء هذا النوم سواءً كان ساعة أم عام، وفي هذا أكبر دليل على أن في تلك الفترة الإنسان يكون مادة مغيبة الإدراك الواعى الخارجى وتكون مادة الجسد خارج حدود الزمان والمكان. فمادية الإنسان غير مدركة لما هو محيط بها من زمكان. فالنوم هو ابن الموت إلا أن النوم هو تجربة حياتية ندخل ونخرج منها لعالمنا ولفترات قصيرة، أما الموت فهو تجربة كونية فى اتجاه محدد بالنسبة لمادة الإنسان المغيبة الإدراك وتنتهى بفناء المادة الإنسانية وتحولها لمادة كونية.

وبالتالي فجوهر النوم هو انفصال الإدراك الواعى للمادة الإنسانية بصورة نسبية عن البيئة الخارجية. فالنسيج الإنسانى المكون من الروح والنفس والجسد بالإضافة للأجسام الطاقية للجسد الإنسانى تكون فى حالة تحرر ولكن بصورة مرتبطة وفى إطار كونى محدد. الإنسان يرى داخلياً الأحلام وتتحرك العين بسرعات متفاوتة حسب درجات وعمق النوم، ويكون هناك نشاط كبير بالمخ فقط دون بقية الجهاز العصبى، بالإضافة لحركة القلب والرئة وبعض حركات التقلب أثناء النوم ولكن بإدراك داخلى، بمعنى أنه أثناء النوم يكون إنفصال للأدراك الخارجى فقط أما الأدراك الداخلى والوظائف الحيوية تستمر. ويمكن تقريب ذلك بمثال الكومبيوتر أثناء عمل تنظيم لملفاته من خلال أمر "دى فراج **Defrag**" لاتحس أنت أمام الكومبيوتر بما يحدث داخل القرص الصلب لجهازك ولكنك تعلم بوجود عمل مضن يقوم به الجهاز لترتيب هذه الملفات.

والإنسان يحدث له تغييب أثناء النوم وهذا رحمة من الخالق وهذا لعدم قدرة الإنسان على استيعاب العمليات التى تتم من خلال نبضات طاقية، وتواترات مع الطاقة الكونية

واللطائف المحيطة. فالإنسان وهو نائم هو كائن أجتماعى لطيف على المستوى الكونى. فالإنسان لا يحيط بسرعة الأرض الذى يعيش عليها ولا يستطيع أن يسمع كل الترددات الصوتية أو يرى كل الطاقات والترددات الضوئية.

والثبات النسبى للحركة الظاهرية للجسدالإنسانى أثناء النوم أدى لتوقف الإحساس بالزمن الخارجى ولكن دون حدوث خلل للساعة البيولوجية الخاصة بالإنسان. وبالتالى يمكن تلخيص حالة النوم ظاهرياً بانفصال الإدراك الواعى للمكان والزمان الخارجى فقط. والنفس أثناء النوم على الرغم من وجودها خارج الجسد فإنها تعود إلى الجسد فور تعرضه لمؤثر خارجي كافٍ لعودتها، وبعد هذه العودة تحس بالعالم خارج الجسد، أما إذا كان المؤثر الخارجي غير كافٍ لعودتها فإننا لا نحس بها إطلاقاً. و لذلك نرى أنه حين يخضع الإنسان للتخدير الجراحي لا يحس إطلاقاً بالألم على الرغم من تعرض جسده للعمل الجراحي، وسبب ذلك دخولنا فى ثبات عميق. وعندما يفيق من هذا التخدير بعد زوال تأثير مادة التخدير، يكون الجسد الإنسانى فى حالة الإحساس بالألم.

الدليل على أن النفس جوهر غير مادي، وتحس باللذة والألم في هذا العالم المادي عبر مادة الجسد، هو أننا أثناء أحلامنا في النوم نحس باللذة و الألم على الرغم من أن الجسد لم يتعرض لأي مؤثر مادي يؤدي إلى تلك الأحاسيس. إن النفس في المنام ترى دون آلية العين الضوئية، وتسمع دون آلية السمع الأذنية وتمارس كل أحاسيسها دون آليات الجسد الحسية، ودون تأثير العالم المادي المحيط بأجسادنا. إذن الجسد بحياته ونبضه وحركة مكوناته الداخلية، ليس أكثر من وعاءٍ للنفس التي تنتمي لعالمٍ غير مادي، والجسد يعمل بأمر هذه النفس ويستجيب لشهواتها ورغباتها، وبالمقابل فإن النفس عندما تحل بهذا الجسد تصبح محكومة في إطار المكان والزمان الذي ينتمي إليه الجسد، فحركتنا في هذه الحياة تتكون من وجهين متمايزين:

١-حركة لا شعورية ترتبط بحياة الجسد من حركة للقلب وغيره من أعضاء الجسم، وهذه

الحركة لا علاقة للنفس بها، بدليل بقاء هذه الحركة مستمرة أثناء النوم.

٢-حركة إرادية تقوم بها النفس عبر الجسد.

وأفضل تشبيهٍ للعلاقة بين النفس والجسد، هو العلاقة بين السائل والوعاء الذي يُوضع به هذا السائل، فالسائل هو الذي يعطي الوعاء الوظيفة التي صُنع من أجلها، والوعاء هو الذي يحجز السائل داخل جدرانه ويمنعه من الانفلات، ويفرض عليه شكل سطحه الداخلي. وما يؤكد أن النفس جوهر غير مادي، وأن الجسد ليس أكثر من وعاء لها، هو أنه بتطور العلوم الطبية أصبح من الممكن نقل الأعضاء من إنسانٍ لآخر، واستبدال بعض الأعضاء كالقلب والكلى بأجهزة من صناعة البشر وعلى الرغم من ذلك لا يتبدل الإنسان كنفسٍ عاقلة مدركة نتيجة استبدال بعض أعضائه إذن النفس هي القوة العاقلة المدركة التي تقف وراء استقرار الإنسان وتعقله وشهوته.

وكما تؤكد الديانات السماوية فإن النفس هى من تُحاسب يوم القيامة، لأنها هى المكلفة في الحياة الدنيا من بين جميع المخلوقات المحسوسة في هذه الدنيا. وورود كلمة النفس في النص التالي بالصيغة المطلقة التي تشمل كل نفس دليل على أن النفس خاصة بالإنسان من بين المخلوقات الأخرى المحسوسة في هذا الكون. و لما كانت النفس والأدراك الواعى الداخلى منه والخارجى خاص بالإنسان من بين المخلوقات المحسوسة، فإن العقل مسألة خاصة بالإنسان من بين هذه المخلوقات، لأن قوة التعقل والأدراك والتدبر ترتبط ارتباطاً كاملاً بالجانب المجرد للنفس ولذلك فعدم تعقل الإنسان يجعله كالأنعام.

وفرقت الديانات السماوية بين الإرادة والأدراك الواعى كقوة مجردة تنبع من النفس المجردة عن المادة، وبين المشيئة كقوة مادية ساحتها عالم الوجود المكاني والزماني، نتيجة تنفيذ الإرادة في هذا العالم الحسي. وبما أن العالم المجرد الذي تنتمي إليه النفس المجردة، لا يقبل المتناقضات للمسألة الواحدة ، فإن الإرادة كقوة تنبع من هذه النفس المجردة بجميع صيغها بحيث لا تحمل المتناقضات للمسألة الواحدة، فمثلا لا توجد عبارة قرآنية واحدة ترد

فيها مشتقات الإرادة بحيث يتم عطف مسألتين متناقضتين على هذه الإرادة.

ظاهرة السقوط أثناء النوم

كم منا قد جرب الشعور بالسقوط من مكان مرتفع عند بدء الدخول في النوم واستيقظ بعد ذلك على وقع اهتزاز جسمه ليجد نفسه يرقد في فراشه، وكل ما حوله ساكن؟ لا بد أن الجميع قد مر بهذه التجربة وتساءل حينها، ماذا حدث لي خلال النوم وهل كنت أحلم أم أن هناك أمراً غير طبيعي حدث في جسمي وسبب لي ذلك الإحساس؟ هذه ظاهرة معروفة لدى المختصين في طب النوم، وتعرف باهتزازات بداية النوم، وهي عبارة عن انتفاضة لا إرادية تحدث عند الانتقال من اليقظة إلى النوم ويشعر خلالها الشخص بأنه سقط، ويصاحبها حركة مفاجئة في الجسم قد يشعر بها الشخص الذي يشارك المصاب في السرير.

وهذه الحركة لا تحدث في مرحلة الأحلام ولكن تحدث عند الانتقال من الاستيقاظ إلى المرحلة الأولى من النوم وهي المرحلة الانتقالية التي يمر بها النائم قبل التقدم إلى مراحل النوم المتقدمة، وهي مرحلة بين النوم واليقظة. وتسبب الاهتزازات التي تصاحب الشعور بالسقوط الاستيقاظ من النوم مصحوبا بشعور من الفزع اللحظي يدرك بعده الشخص أنه ربما كان يحلم! وعادة لا يجد الشخص صعوبة في العودة مرة أخرى للنوم.

نظريات حول الظاهرة الحركة أثناء النوم

ولا يعرف السبب الحقيقي لهذا الظاهرة، ولكن هناك عدة نظريات منها أن هذه الظاهرة ناتجة عن الارتخاء الطبيعي لعضلات الجسم أثناء الدخول في النوم، مما قد يفسره المخ عند بدء النوم على أنه نوع من السقوط. وتزداد هذه الظاهرة عند الأشخاص المنهكين أو الذين حرموا من النوم لساعات طويلة، أي الأشخاص المنهكين الذين يحاولون مقاومة النوم. أي أنها قد تحدث بصورة أكبر لمن بقي صاحيا لمدة ٢٤ ساعة أو أكثر. كما أنها تزداد عند النوم في أوضاع غير مناسبة مثل النوم جالسا. وتحدث هذه الظاهرة مرة او مرتين

في الليلة ولكنها عند الأغلبية تحدث على فترات متباعدة، ويبدو أن هذه الظاهرة تصيب جميع الفئات العمرية بلا استثناء وتعتبر ظاهرة حميدة ولا تحتاج لأي علاج، وينصح الذين يعانون من تكرر المشكلة بالبعد عن الإجهاد والسهر.

الروحانيات ومركزها في الإنسان

الروحانيات عادة ما تتحرك في الإنسان بالفكر والتركيز العالي في تحكم الروحانيات. والإنسان الروحاني بوسعه أن يعرف ما يدور بمشاعر الأشخاص المحيطة حوله وأفكارهم وذلك لا يستطيع الجن أن يعرفه، والدليل على عدم معرفة الجن ما بداخل الإنسان أنه حينما مات سيدنا سليمان لم يعرف الجن بموته إلا بعد أن أكلت القارضة العصا. إن الإنسان المؤمن يستطيع بنورية إيمانه العالية رفع قدراته الحسية المادية مثل قدرته على رؤية أشياء لاتراها العين العادية، أو سماع ترددات لا تسمعها الأذن العادية. ولا يشترط الإنسان أن يكون متابعا نوعا معينا من العبادة أو يسلك سلوك غير مشروع، فكل هذه الأساليب تنمى الروحانية حسب ما يسلك الإنسان، أن يكون عابدا فتكون روحانيته شفافة وطاهرة أو يكون غير ذلك في سلوكه. وقد ذكرنا أن الإنسان بطبيعته روحاني ولكن شخص تظهر علية هذه الروحانية وشخص لا تظهر عليه ومن الممكن أن ينمى أي شخص روحانيته بتدريبات معينة، وإذا تقرب الإنسان إلى العبادة فسوف تعلق روحانيته بروحانية الملائكة كما ذكرنا في أول الأمر، أما إذا بعد عن ذلك فسوف يسير معه الشيطان ويشعره بأنه هو الذي يمن عليه بكل هذا العلم ويوجهه إلى الخير حتى يصدقه وبعد ذلك يوجهه إلى الشرور والمعاصي حتى يكفر ولا يستطيع الإنسان أن يرجع عما هو فيه لأنه يشبع رغبته بكل شئ موجود حوله .والغيب يلف الإنسان من قبل ولادته فإين كانت روحه قبل الولادة وحياة الدنيا وحياة ما بعد الانتقال؟

الأحلام وعلاقتها بالتخيل

الحلم لغة إنسانية عالمية، لكنها مع ذلك لغة ذاتية إلى أبعد الحدود. فمن الصعب

جدًا على الحالم أن يعيد صياغة حلمه بدقة وبذاتية رؤيته له. فالحلم لغة باطنة، أي إنه ليس لغة تعبيرية قاصرة على نقل معلومات معينة، بل لغة تفعيلية شكل جملها ورموزها أفعال وتحولات على مستوى النفس الإنسانية. وعندما نفك رموز الأحلام اعتمادًا على معارفنا الحالية، نجد أنفسنا أمام عملية نفسانية معقدة تسبر أغوار النفس وتحولاتها الديناميكية وتعيد مجمل العناصر الحلمية إلى شخصية الحالم. فالإنسان الكفيف منذ الولادة لا يستطيع أن يصف لك أى شيء حوله لأنه لم يره فى حياته، ولكن الكفيف الذى أصيب وهو كبير يستطيع أن يصف لك ما يسمعه فعندما يسمع صوت طائرة يمكنه وصف الطائرة وهى تتخلل عباب السماء فهو تخيل لصور من الذاكرة، أى أنه يستطيع أن يتخيل.

وكذلك الإنسان الذى يحلم لا يستطيع أن يتخيل بصورة واضحة فالأحلام هى صورة مباشرة للتمرين على التخيل الواضح. فأنت عزيزى القارئ عندما تحلم أنك على شفا الوقوع تشعر بالخوف بالرغم من أنك نائم، فالحلم تتداخل فيه الصورة والشعور وبعض الإدراك الواعى بالمعانى والأحاسيس "الخوف، الراحة والسكينة". فعند نوم الإنسان يكون هناك جسم موازى لوضع وحالة الجسم المادى النائم فى صورة واعية، وقد يكون هناك جسم نجمى وهو جسم لطيف يمكنه التجول والخروج والرجوع للجسم المادى أثناء النوم أو أثناء شبه النوم، وهى يعتمد على مدى شفافية الشخص وطاقة الإيجابية. فالشخص ذو الوعى الحقى اللطيف تكون له مراكز طاقية مفتوحة تدله على طاقات حيوية متنوعة والتى يمكن من خلالها خروج الجسم النجمى بطاقات نورانية تجوب جنبات كون الخالق.

الطريق إلى النور

المحبة ..... نعم المحبة. فالمحبة فى الله ولله بها يتميز الخلان، وعليها مدار الصِّدق والإيمان، فكل محبة وتعظيم للبشر فإنما تجوز تبعًا لمحبة الله وتعظيمه، فمحبة الأنبياء والمرسلين هي من تمام محبةِ مُرسلهم وتعظيمه، وكذلك محبة الوالدين، والزوجة والأبناء

والأهل، والأصحاب والخلان. المحبة هي من كمال التوحيد، وتمام الإخلاص. وللمحبة العديد من الأوجه. فالعطاء لعباد الله هو محبة، وأعطاء النصح إذا طلب محبة، والمساعدة في الخير محبة، والاستغفار للمسلمين محبة، والتجاوز عن أخطاء الآخرين فيك محبة.

التأليف بين قلوب الناس لا يمكن أن يكون إلا بالحب، وهو النعمة التي تضئ بها صدورهم، بل و ترتحل إليها إراداتهم، فالتقت جميعها على أمر قد قُدِّر لها؛ وهو اتحاد القلوب على محبة الله وطاعته.فأرواح أهل الإيمان تهيم بحثًا عن أقرانها، والعكس بالعكس. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَف. فالطباع جمّاعة، والنفوس جوّالة؛ تبحث عن أقرانها ونظرائها. فسبيل الإيمان والطريق إلى محبة الله؛ هو الحب في الله .

ونحن في زمان أضحى الحب فيه سلعةً تُباعُ وتشترى، وليت الثمن الذي يدفعه الشّاري للبائع يزيد من قيمتها إذا قلّت في السوق كغيرها من السِّلع، بل لقد أقدم على سَوْمِها الفقيرُ المُعْدَمُ، أما البائع فقد سَئمها لقلة من يسومها أو يطلبها، وأما الشاري فقد اغتنى عنها بأحسن منها عنده، لقد صار البغض هو الأحب والأقرب إليه! فالأحسنُ والأحبُّ إليه ما يُجْرِي إليه نفعًا! أو يُصلِحُ له شأنًا! في غير تحرُّرٍ من شبهةٍ ولا تعفُّفٍ عن حَرَامٍ ولا اعتبار لقيم أو أخلاق. ولقد كانت كلمةُ الْحُبِّ يهتز لها الوجدان، وتتحرك لها الأركان، وتدمع لها العينان، أما الآن! فأصبحت كلمة سهلة على كُلِّ لسان؛ بل هي بضاعة تنفق من كل مفلسٍ خسران، حتى أصبح وقعها لا يحرك ساكنًا، ولا يطرب الآذان.

إن العبودية لله، تحرر الإنسان من أن يكون عبداً لغيره بل تكمن بها الحرية الإنسان. والمتابعة والإقتداء هنا، هو بالمنهج، والوسيلة للارتقاء. لا يصح في أي أمرٍ أرضي دنيوي حياتي، أن تُطلق فيه عباراتٌ مجردة غير محددة. لا يصح أن نتخذ ألفاظاً رنانة، ويخشى الناس أن يقفوا أمامها، مثل الدين، بأن ينسب إنسانٌ إلى نفسه، أن مفهومه هو دين الله، دون أن يحدد ما هو مفهومه، وكيف يطبق هذا المفهوم على أرض الواقع. هل كل كلمةٍ يقولها، هي الدين؟

هل كل كلمةٍ ينطق بها، هي الدين؟ إن أي إنسانٍ عاقل، يخشى أن يقول أنه يتكلم باسم الدين.

علينا أن نُكبر الدين كمفهومٍ حقيّ، فوق أي مفهومٍ أرضيّ. إن الدين، هو أن يراعي الإنسان ضميره، وأن يحترم عقله، وأن يحترم عقل غيره، وأن يقبل آراء الآخرين، إنه ممارسةٌ خاصةٌ بالإنسان. هذا الإنسان، الذي يراعي ربه، والذي يتعامل مع ربه، والذي يقرأ كتاب ربه – لن يقول أبداً، إني أحكم باسم الدين، أو أن ما أرى هو الدين، لأنه يخشى أن يكون مخطئاً، فكيف ينسب شيئاً إلى الدين، ليس فيه؟

فنحن في حاجةٍ إلى هذا التجمع، الذي يجمع كل إنسانٍ، بقدراته وعلمه ومعرفته، لنعرف كيف نُقوّم حياتنا، وكيف نسن قوانيننا، بوعيٍ عميق لآيات الله لنا، وسنة نبيه في أرضنا. علينا أن نتخلص من هذه الصورة، التي نعتقد فيها، أن كل من اتخذ لقب عالمٍ في الدين، يستطيع أن يفعل كل هذه الأمور، هذا ليس صحيحاً، وعلينا أيضاً، ألا نقف أمام الصورة، التي نخاطب بها أي إنسان، ونقول له: أنت لست عالماً في الدين، فلا يحق لك أن تتكلم في أمرٍ. إنما علينا أن نقيس الأمور بما يُقال، وأن تُقارَع الحجة بالحجة. إذا كان إنسانٌ غير مطلعٍ على قضيةٍ ما، أو على حديثٍ ما، أو على آيةٍ ما، أو على سببٍ ما ـ أياً كان ـ أن نزوده به، وأن نعطيه له، وأن نتكامل جميعاً، داعين إلى الأفضل والأحسن والأقوم.

الفصل الثالث

الإنسان والغيب

مقدمة

إن الاستغراب من بنى جنس الإنسان يصل لمادة مما يشعر به الإنسان من أنه سيد الكون وأنه بلغ بالتكنولوجيا الكاذبة ما لم يصل له أحد، وأنه أخترق العلم من أوسع أبوابه، ولكن كل خطوة فى هذا التقدم لتقليل الغيب الذى يحيط به، ويجاهر بأنه لا يخاف وأنه بالحسابات والأجهزة التكنولوجية والكمبيوتر أصبح يتقدم على الطبيعة بما تحتوى من أشياء مادية وغيبية.

فلسفة الغيب

الغيب وجمعه غيوب، وغيابة كل شيءهو " قعره". تعريف الغيب في الاصطلاح، ما غاب عن الحواس. فالميزة الأولى للمتقين هي الإيمان بالغيب، فهو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس. وهو إما غيب مطلق أو غيب نسبى والذى ينقسم لغيب الماضى و غيب الحاضر أو غيب المستقبل.

وينقسم الغَيبُ إلى قسمين:

الغيب المُطلق: و هو الغيب الذي يستحيل الإطلاع عليه بواسطة الحواس أبداً، و يمتنع إدراكه بالآلات و الأدوات المادية كذات الله سبحانه و تعالى و صفاته و غيرها، وهذا الغيب المطلق لا يعلمه أحد إلا الله سبحانه و تعالى.

الغيب النسبي: و هو الغيب الذي يتفاوت إمكان الإطلاع عليه بحسب الظروف و الأفراد و الأزمان، فقد يكون غيباً بالنسبة لإنسان و لا يكون كذلك لإنسان آخر، أو يكون غيباً في زمان دون زمان، و لا يستحيل الإطلاع على هذا القسم من الغيب إذا توفرت الأسباب و الأدوات اللازمة لذلك فيصبح محسوساً بعد أن كان غيباً .

ومن أمثلة ذلك: أن أذن الإنسان غير قادرة على التقاط الأصوات التي تقل عدد (ذبذباتها: اهتزازاتها) عن ٢٠ اهتزازة في الثانية (دون سمعية) و لا تلك التي تزيد اهتزازتها عن ٢٠٠٠٠ اهتزازة في الثانية (فوق سمعية) في حين تستطيع كثير من الحيوانات سماع معظم تلك الأصوات وتمييزها، فتكون هذه الأصوات بالنسبة إلى الإنسان غيباً و لا تكون بالنسبة إلى تلك الحيوانات غيباً كما هو واضح .

نسبية الغيب

ولا بُدَّ من التنبيه هنا على أن مقصودنا من الغيب النسبي، نسبيته بالنسبة إلى الإنسان، أو بالنسبة للسن، فمشهود الأب هو غيب للأبن والعكس صحيح، أما بالنسبة إلى الله عَزَّ و جَلَّ فالأشياء كلها حاضرة لديه، و الماضي و الحال و المستقبل عنده سواسيه. بل مكان المشهود هو غيب الغير حضور، فالكعبة هى غيب الغير حاضر للحج فى عام ما. بل يومك التالى وزوجتك وأبنك هم غيبك الشخصى.

عصر التكنولوجيا هو عصر الغيب و العلم ذاته هو اعتراف بليغ بالغيب. والدليل لا يوجد أحد من هؤلاء العلماء رأى رؤية العين الكهرباء ولكن نحن نعرف أن الكهرباء هى موجات. إننا نتكلم عن الكهرباء و لا نعرف عنها إلا آثارها من حرارة و ضوء و مغناطيسية و حركة.. أما الكهرباء ذاتها فهي غيب. نتكلم عن الإلكترون و نقيم صناعات إلكترونية و لا نعرف ما هو الإلكترون فهو غيب، ونطلق الموجة اللاسلكية و نستقبلها و لا نعلم عن كنهها شيئا ولماذا هى ثابته على المستوى العالمى، و هي بالنسبة لنا غيب. بل إن الجاذبية التي تمسك بالأرض و الشمس و الكواكب في أفلاكها– و هي أولى البداهات – هي ذروة الغيب. وتكمن عظمة خلق الله فى غيب الإنسان وهى الروح، ويكمن غيب القرآن فى الكلمات التامات مثل "الم" فهل وصل آى شخص لتفسيرها ؟

إن الغيب هو خلق الله وأمرنا أن نؤمن به، فهو في الحقيقة النور الأسطع للشهود.

فاللّب أهم من القشرة، ومن أراد شراء بضاعة ما فهو يهتم بتحديد حقيقة هذه البضاعة دون الاكتفاء أو الاهتمام بما يعكسه مظهرها. وعلى الرغم من أنّ ضوء الشمس ليس هو الشمس، ولكنه ناتج عن التفاعلات الذرية الحادثة باستمرار في الشمس، ولولا هذه التفاعلات لما أضاءت الشمس ولو للحظة واحدة وإن غيب الإنسان ليس حركته أو سكنته، وإنما الغيب فيه كامن في الروح فلا قلب ينبض ولا رئة تتنفس فى الشخص المنتقل أو المتوفى. وإذا أمعنا النظر في حقيقة الإنسان لوجدنا أن ماكينه الإنسان لا تتحرك ولا تؤدى وظيفتها إلا ببنزين الروح لها، فالقدرة الكامنة في الروح تقف وراءالإنسان المشهود، ولو لم تكن الإرادة الإلهية في إيجاد الروح والقدرة لدى الإنسان، لأصبح هذا الأخير كالجماد أو هو أعجز من الجماد، إن صحّ التعبير عن وجود جمادٍ في هذا الكون العجيب!

إذن فالحاضر هو الظل لغيب الماضى والمستقبل، بل ولا يتواجد الغيب إلا بوجود الحاضر، ولا يتواجد الغيب إلا بوجود الشاهد. بل أن الإنسان هو دالة لوجود غيب الروح، فالمشهود أو الظاهر هو دلالة الغائب أو الغيب. فالمرض هو دالة الميكروبات الغير مرئية أو الغيبية للإنسان. والسؤال أين تقع الطاقة الإيجابية أو الإرادة الحديدية فى الإنسان، أهى فى عالم المادة أم عالم الغيب؟

هل يستطيع العقل أن يرفض الغيب؟

وعجز العقل عن إدراك حقيقة الألوهية ليس أمرا غريبا لأن العقل جزء من الكون، والجزء لا يحيط بالكل بل قد يستدل عليه ببعض آثاره. فالحقيقة العقلية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بها عبر الحواس والسنن والقوانين المترتبة عنها سواء كانت طبيعية أو اقتصادية أو اجتماعية .ولو كان كلّ ما غاب عن حسك وهماً يجافي العلم ويناقض مكانة العقل، إذن لكانت سائر دراساتنا التاريخية وهماً باطلا، ولكانت سائر أحكامنا على المستقبل وجميع توقعاتنا الغيبية فيه خرافة يتنزه عنها العقل! وهكذا فإن أكثر المشكلات تعقيداً تلك التي

واجهها العقل، والتي كانت شديدة الاتصال بالغيب ذلك العالم غير المنظور، والذي كثرت فيه هزائم العقل لأنه جاوز الحدود. وكثير من الفلاسفة بذلوا كل ما يملكون من ذكاء ثم كانت خاتمة المطاف الإقرار بالعجز عن إدراك ذلك الخضم المليء بالأسرار الذي لا ينفذ العقل إلى اختراق حجبه. فالإنسان هو مخير فيما يعلم، مسير فيما لا يعلم.

لماذا لم يكشف الله لنا الغيب؟

لم يكشف الله الغيب امتحاناً منه لنا وابتلاء. ولو كشفه لسقط أمر التكليف ولفقدت الحياة سرها وبطلت الحكمة وانتفت المقاصد العامة للدين. ولو كشف الله لنا الغيب لخلع الناس صفات الإقبال على العمل، بل إن بعضهم يركن إلى الكسل والخنوع لأن قدره قد كشف له، فيعرف رزقه وأجله؛ وقد يرتكب الجرائم بناء على هذا الاطلاع، وقد يفعل ما لا ينسجم مع الحياة الإنسانية التي رسمها الله بحكمته وسطرها وفق إرادته وقدرته وعلمه سبحانه وتعالى. ثم إن العلم بالغيب عن طريق إدراك الإنسان بحسه أو عقله غير متحقق نظرا لكون عالم الغيب فوق طاقات الإدراك الحسي والعقلي، وهما وسيلتان للإدراك الإنساني وجدتا لتتعاملا مع كثير من مظاهر الكون المادي المتفق مع الإنسان في ماديته وعناصره، أي أن الإدراك الحسي يناسب فقط الكون المادي.

المؤمن بالغيب هو ذلك المؤمن بقدرة الله المطلقة، المصدق للرسل في كل ما جاؤوا به ونطقوا به، فهو في هدوء وانسجام مع ما جاء به الدين من الغيبيات، جاهد وفكر وصدق ثم آمن. ومنطق الإيمان أعطاه الراحة النفسية والاطمئنان الدائم واليقين الحقيقي، وهو دليل على قوة الثقة بالله. وسبب ضعف الإيمان بالغيب في عاَلمنا المعاصر المعاصر يعود أساسا إلى شيوع الحضارة المادية بما فيها من فكر لا يؤمن إلا بما تدل عليه التجربة، ولا يقدس إلا هذا المنهج.

ولكن هل الغيب موجود؟ والحقيقة المدركة هو نعم ولكن لمحدودية أدراكنا لقبناه بالغيب، إذا فالغيب النسبى هو الغيب عن الحواس والقلب والعقل، ويكون الغيب هو من غاب

عنك، وإن تواجد بصفته الديناميكية المستمرة لحالة الغيب. ويكون الغيب لغير المدرك وليس لحالة الغيب نفسها. وبالتالى فالقصور فى الإدراك هو نوع من أسباب الإيمان وطلب السمو. القضية بسيطة جداً، أنت أمام جدار، وراء الجدار دخان، والقاعدة "لا دخان بلا نار" فإذا ذهبت إلى خلف الجدار رأيت النار بعينك، "ليس مع العين أين"، لا نريد دليلاً. أما إذا ابتعدت عن الجدار ورأيت الدخان، الآن يحكم عقلك من أثر النار على وجود النار. تقول: لا دخان بلا نار، ما دام هناك دخان إذاً يوجد نار، مع أنَّك لم ترَ النار. هذا أحد أنواع الغيوب، غيبٌ له آثار، شيءٌ غاب عنك وله آثار، فوسيلة إدراكه العقل. يمكن أن نسمي هذا الغيب: بالغيب الشهودي، الغيب الذي له في عالم الشهود آثار.

ومن أهم مميزات خلق الغيب هو الرحمة بالإنسان فمثلاً نحن لا نرى الملكين: رقيب وعتيد اللذين يلازماننا، ولا الملائكة السيَّارين الذين يلتمسون حِلَقَ الذِّكْرِ، ولا كثيرا ممن يحيط بنا من الجن، وكل يوم يدرك الإنسان أنه قاصر القوى، ضعيف في بصره وسمعه وقوته... وكل هذا من الغيب الذي نؤمن به وهذا رحمة بنا من الخالق فلو رأينا حولنا من جن وملائكة ومخلوقات سفلية لما انتقالنا من مكان لآخر من شدة الزحام. وقد تبقى العين المحبوسة في المسموح حتى يمدد لها في اللامسموح لترى جزءا منه، كما يحدث فى حالة الاحتضار. كما أن الله تعالى يريد أن يجنبنا الإشعاعات الضارة التي لا نراها فتؤذى العين.

انواع الغيب

دعونا نتأمل هذا المثال لشخصين: الأول يولد ويفتح عينيه ويستقبل الدنيا، والثاني يغمض عينيه للمرة الأخيرة ليودع هذه الدنيا. فلا الوليد الذي ولد استطاع أن يتدخل في ولادته، ولا الشخص الذي مات استطاع التدخل في موته. لأن الله وحده الذي يملك هذه المقدرة والقوة، يخلق من يشاء ويقبض روح من يشاء. وقد حمل المولود عند ولادته وهو عار تماماً إلا من بطانية لفوه بها بعد الولادة وضمته أمه، ولم يكن يدرك ما حوله، وقد بدء بالصراخ والبكاء

(نتيجة وخز الشيطان وميلاد النفس). وقد سمى وحمل الاسم طوال حياته بل وأخذ ما يفيد من الدولة والمجتمع ما يفيد اسمه وسنه (بطاقة تحقيق الشخصية)، بينما حمل الإنسان عند موته ولم يضمه إلا قبره وقد غسل وهو عار ولفه ذووه بالكفن ولم يدرك ماذا يحدث له. وقد أحطه أهله بالبكاء، ثم واروه في التراب، ثم وضعوا الشاهد يكتب عليه اسمه وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، ولكى يؤذن لك بدخول باطن الأرض (تصريح الدفن) تسحب منك بطاقة تحقيق الشخصية، بمعنى يلغى وجودك المادى بين اطراف المجتمع.

والروح لها ثلاث حيوات منفصله أولها ما قبل الدخول للجسد وثانيها وهى فى الجسد (أثناء الحياة) وثالث حياة بعد الخروج من الجسد. ولكن النفس تولد بعد ميلاد الجسد وتستمر معه إلى وفاته وتبقى معه لفترة ثم تفترق لتكون لها حياتان فقط. ونأتى للجسد الذى يكون وعاء أحتواء يحيا حياة فانيه واحدة. والنفس هى فى الحقيقة الصندوق الأسود الذى سجل به كل وعى بل ولاوعى الشعور والحركات والنيات للجسم المادى، بل أن النفس تعتبر ذاتية الطاقة حيث أنها يحدث لهذه النفس أرتقاء ومكتسبات نتيجة الصدقات الجارية والدعاء المستمر لها فهى ذات صلة متصلة مع الجوانب المادية بالأرض ولا تنقطع عنها. ومن الغريب أن يبدأ نشأة الإنسان الحى بخلية مشتركة واحدة وتنتهى بحبة رملية أو طينية. وأحب أن أضيف أن أثناء النوم تخرج الروح كل يوم لربها وتبقى النفس فى حالة أتصال بحبل سرى فضى لاتترك الجسد وبالتالى فعملية موت جزئية تتم كل يوم أثناء النوم بجانب أن الإنسان يطرد ملايين الخلايا الميتة أثناء العرق وفرك الجلد، واللعاب، والدموع وخلايا الدم والبول. فعملية الموت والنشؤ تتم فى كل ثانية للجسد المادى دون تحكم من الإنسان (بصورة غيبية عن الإنسان).

والغيب النسبي هوما تمكن من معرفته أحد الأفراد أو الرسل بعد ان سمح الله له ومكنه بذلك بحسب الظروف أو الامكانيات.أما الغيب المطلق فهو ما اختص بمعرفته الله تعالى دون سواه واستحال على غيره من الأفراد حتى المنجمين و إن صدقوا. ولكن ليس هذا كل أنواع الغيب، فالغيب ممكن أن يكون غيباً مادياً وغيباً معنوياً أو دينياً، أو غيباً داخل الإنسان وغيباً

خارج الإنسان، غيباً ماضياً أو غيباً حاضرا، وقد يكون غيباً زمانياً أوغيباً مكانياً، فالغيب هو ما يغيب عما نمتلك من الحواس وملموس. وبعد هذا الغيب المحيط والملتف حول الإنسان عندما تناقش الإنسان يبدأ بتغيب أى غيب ويقول ناقشنى علمياً، بل أن العلمانيين يغيبون الغيب المطلق. ولكنى أقول لك عزيزى القارئ ونحن نحبوا سوياً داخل طيات هذه السطور وبين جنبات هذه الوريقات، إن الغيب غائب من فرط حضوره وكذا لقصور مداركنا عن الألمام به.

الغيب فى يوم الإنسان

الظاهر لنا هو أن قانون العمل وقانون الجهاد وقانون الاجتهاد للإنسان يرفعه ويزيد من ماله وسلطانه. ولكن دعنا عزيزى القارئ نشاهد سوياً يوماً عادياً لدى شخص ما. فالغيب لا ينتهي وكلما اطلعنا على جزء منه، كان هناك غيب أكبر، هكذا هو قانون الحياة. تعلم أننا ما علمنا إلا القليل، ولكن علينا أن نعمل بما تعلمنا وهو القليل، ولا نهمل ما تعلمناه. إن بعض الناس الذين يعتقدون أنهم يدافعون عن الإيمان فيقللون من قدر ما عَلِم الإنسان حتى يجعلوه ييأس مما علم، ويعتقد أنه طالما أنه قد علم القليل القليل فما معنى هذا القليل؟ ويعتقد أنه لا يساوي شيئا، وكيف يعمل بهذه القطرة؟ وماذا تفيد هذه القطرة، وهذه النقطة، وهذه الحبّة؟ حبّةٍ في صحراء شاسعة، ماذا تفعل هذه الحبة من الرمال؟ فهذه عدم استقامة، لأن هذه الحبة بالنسبة لله، هي حبة لا قيمة لها، ولكنها بالنسبة للإنسان هي بحر واسع يمكن أن يستفيد منه، ويمكن أن ينمو من خلاله .. من خلال ممارسته لما عَلِم، لذلك فنجد أن الفريق الآخر الذي يدافع عن العلم المادي ويرى فيه كل شيء، هو قد أصاب في جزئية وهى الاهتمام بما يعلم الإنسان، وأخطأ في جزئية أخرى أنه اعتقد بأنه بهذه الجزئية الصغيرة سوف يستغني عن إيمانه بالغيب.

إن البديهيات التى يقوم بها أى إنسان فى كل لحظة من حياته هى فى الحقيقة إيمان تام بقدرة الله فى صنع خلقه. فعندما يفتح الإنسان عينه من النوم فإن بامكان العين تعديل بؤرتها

بسرعة بين النقطة البعيدة والقريبة ويتحرك الإنسان بسرعة فى المساحة المتاحة فى حجرة النوم معتمداً أعتماد كلياً على قدرة العين وعلى يقينه بقدرة الخالق فى نفس اللحظة.

وحين يقوم الإنسان بالقيادة يعتمد على الوظائف الإرادية بصورة مباشرة دون مراجعة منه لحسابة المسافات أو الاجاهات. أنها أمور غيبية تتم ليس بتحكم منه إلا قليل جداً. فالصورة الذهنية التى يتم تحضيرها ومتابعتها أثناء القيادة لوعلم كيف يتعامل معها المخ لأصيب بالحيرة والاضطراب. ولكن كل شيء يتم بعمل مسح شامل فى لحظة وتغير المسافات بينه وبين العربات و الرصيف والمارة بل وبينه بين قرب وبعد الإشارة. أنها ملايين الصورة التى يتم اتخاذ القرار فيها وتعديلها دون تحكم منك، وبالتالى فإن مهاراتك فى القيادة تعتمد بصورة مستمرة على لاوعيك وليس على وعيك بصورة عامة. فمثلاً عندما تحب أن تدوس على دواسة الفرامل فإنك عزيزى القارئ لا تبحث عنها ولكن من تجاربك السابقة ومخزونك المكتسب تدوس مباشرة على الدواسة، وبالتالى فغيب اللحظة هو مدرك بلاوعيك. وبالتالى فمخزون اللاوعى والحركة اللإرادية هى إيمان بالغيب واليقين فى خلق الله. بل أن سلوك المحيط بك من أشياء متحركة (سائقيين ومارة) غيب بالنسبة لك وسلوك أنت بالنسبة لهم غيب.

ونأتى لشئ أخر فمن منا لم يدخل امتحانا وأنتظر النتيجة فالامتحان غيب نسبى حتى تدخل فيه وتتعامل معه، وكذا نتيجته غيب نسبى لحين ظهور النتيجة، ولكن لماذا نسبى وبسهولة يمكن القول إن هذا الغيب ... هو غيب عن الممتحنين فقط ولكن واضع الامتحان كان يعلمه قبل أن تطلع عليه. وبالتالى فهو معلوم لإشخاص وغيبى لإشخاص، وهكذا. وعندما تأتيك هدية فهى غيبية حتى ينفجر الساتر عنها بفتحك للعلبة وتعرف ما هى. إذن الغيب موجود فى حياتنا اليومية وفى أوقات كثيرة من أفعالنا. كما أن السلوك الإنسانى لزميلك فى العمل غيبى فقد يضحك فى وجك ولكنه ليس سعيد بتقلدك مناصب كبيرة أو العكس، فالسلوكيات لما يحيط بنا من أفراد داخل المجتمع الوظيفى أو الأسرى فى بعض الأحيان يكون غيباً بالنسبة لكل إنسان.

وكذلك فالكوارث الطبيعية، مثل البراكين والفيضانات و الأعاصير التى تحدث على الأرض هى صورة من صور الغيب التى تمس الإنسان فى حياته اليومية. وما تحت القشرة الأرضية من حمم نارية ومعادن ملتهبة هو غيب مستمر لا يعلم مداه إلا الخالق. وما داخل البحار والمحيطات السحيقة من كائنات مائية وبحرية هو غيب ولا نعرف منها إلا القليل. ومن الغريب أن الحياة المادية والتكنولجيا غيب .... نعم غيب فمن منا يعرف متى سيتم أكتشافه غداً وفى أى مجال. صحيح أن هناك مؤشرات ولكن الكشف عن حقيقة علمية حولنا يعنى وجود خطوات أخرى تنتظر الأكتشاف وبالتالى استمرار تغليف ما يحيط بنا من غيبا فى حالة مستمرة.

الميزان هو ميزان الإنسان في علاقته مع مفاهيمه بين الغيب والشهادة، وفي علاقته مع الناس تجليا لتعامله مع الله، مع خارجه، وتعامله مع الله في داخله، فيما أراد الله أن يتجلى به فيما يملك الإنسان، وفيما أراد أن يتجلى به فيما يملك الناس. ميزانه هو ميزان العدل الذي لا يفرط في أمره، في أمر وجوده، وفي أمر حياته، يؤمن بالإرادة الكلية تجريدا، ويؤمن بالإرادة الجزئية تقييدا، الإرادة الكلية هي إرادة الله في كل شيء.

الغيب محيط بعالم الشهود، كما السماء محيطة بالأرض، فأينما تذهب فوق البسيطة تجد السماء محيطة بك، وأينما تذهب في الحياة فلابد أن يحيط بك الغيب، شعرت بذلك أم لم تشعر. ومن عرف كيف يتعامل مع هذه الحقيقة المؤكدة، وكيف يتعايش مع الغيب، وكيف يؤمن بهذا الغيب، وكيف ينطلق منه، سيحقق أهدافه وتطلعاته في عالم الواقع والشهود، وسيتمكن من إقامة العدل والوصول الى الحرية والأمن وسائر الأهداف المشروعة الأخرى في الحياة. ومن جهل أو تجاهل هذه الحقيقة أو لم يعرف كيف يتعامل معها، فسيغرق– لا محالة– في ظلمات عالم الشهود ومتغيراته، ثم لن يخرج منها؛ إذ سيتحول إلى مجرد ضحية من ضحايا عالم الشهود ومتغيراته المحيطة به. إنّما مثل دور وتأثير الغيب على الإنسان كمثل دور وتأثير الأعصاب على الجوارح، فهي لا تتحرك ولا تشعر دون اتصالها بالأعصاب التي تأخذ وتؤدي

وظيفة نقل الأشارة الى المخّ.

علاقة الفعل بالفاعل

الأفعال لا تدرك فاعلها، ولا تدرك كل أفعاله، ولا تدرك مقاصده الذاتية من أفعاله. لذلك لا يصح أن يسأل الفعل فاعله ما هو مقصدك من إيجاد هذا الفعل؟ و مفهوم الغيب الذي يتعلق بالفاعل يستحيل اختراقه ودراسته لأنه انتقال من مستوى الفعل الذي نعيش فيه ويحكمنا إلى مستوى الفاعل وصفاته، وهو لا يخضع لذات مواصفات الفعل أو معاييره، بينما يخضع مفهوم الغيب الذي يتعلق بالفعل لمعايير ومواصفات الفعل الذي نحن جزء منه، وبالتالي يخضع للدراسة ويمكن اختراقه، وما كان غيباً يصير في عالم الشهادة. وما يدل على أن وجود الفاعل أشد ثبوتاً من الفعل ذاته رغم غياب ذات الفاعل عن الإدراك أو التصور، وظهور الفعل؛ مع قصور صفات الفعل عن صفات الفاعل التي أدت إلى استحالة إدراك الفعل لصفات الفاعل.

فمن يحاول أن ينفي شيئاً فهو يصدق بوجوده مسبقاً في نفسه، وإلا لما احتاج إلى نفيه، فمن المعلوم أن الإثبات يحتاج إلى برهان، ولذلك يُقال: إن كنت مُدَّعياً فالبينة، بينما النفي هو أمر تحصيل حاصل في الواقع لا يحتاج إلى برهان. انظر مثلاً لمسألة وجود كائنات فضائية عاقلة خارج الأرض، لا نطلب من الذي ينفيها أن يأتي ببرهان على ذلك، وإنما نطلب البرهان ممن يُثبتها، وإذا لم يثبتها بالبرهان، تخضع لمعيار المستحيل والممكن، فإن كانت من الممكنات، يقف العلم منها بصورة حيادية لا ينفيها ولا يثبتها،ويترك ذلك للدراسة تمهيدا للحسم مع الزمن. وبرهان إثبات وجود أمر، هو ذاته برهان على نفي النفي، وبالتالي لا يصح البحث عن برهان لنفي برهان الإثبات، فهذا عمل اعتباطي، ونتيجته الفشل سلفاً لبطلان عمله ابتداءً. وهنا لابد لى عزيزى القارئى أن أذكر أن الحرية فى الإيمان؛ لا للتصديق والإثبات؛ لأن التصديق أمر متعلق بالعقل، والعقل لا يملك القدرة على نفي تصديق الأمر الثابت؛ مثل مفهوم واحد زائد واحد يساوي اثنين، ولكن يملك الإنسان بإرادته أن يكفر أو يُكَذِّبَ ذلك الحكم

العقلي بسلوكه القولي أو الفعلي، ومن هذا الوجه صحت المقولة التي تقول:التصديق بوجود الله موقف عقلي فطري لازم، والإيمان به موقف أخلاقي .

فموجودية الشيء ليست مرهونة بإدراكه، بل هي موجودة سواء أدركها أو لم يدركها. فيجوز أن يكون من الموجودات ما لا يدرك أو لا يدركه بعض المدركين، فإن الإدراك ليس شرطا في الوجود، وإنما الوجود شرط الإدراك. وكلما زاد الإيمان بالغيب النسبى والغيب المطلق تزداد درجة إيمان الإنسان وتزداد قدرة أدراكاته القاصرة، بل و تربية الشخصية المتوازنة السوية القادرة على تنمية نفسها ومجتمعها. وهنا لى وقفه بسيطة فالمدرك يمكن أن يكون غيبياً هل تتصور هذا عزيزى القارئى، نعم غيبى فمثلاً عندما ينفجر نجم على بعد ٥٠ ألف سنة ضوئية ونستطيع روئته على الأرض لا يعنى أن النجم قد انفجر الأن ولكن المكان والبعد قد يحيط المدرك بالغيب.

إن "العجز عن درك الإدراك إدراك" بمعنى ما كان العلمُ هو إدراكُ للمدَرك على ما هو عليه بذاته لذا فما امتنع إدراكه بمعيار الشريعة يكون العلم به عند التسليم بالعجز عن إدراكه. إن الإيمان بالغيب له ثلاثة مقامات هي:

- الإدراك الذهني، ويتم ذلك عن طريق التأمل في آيات الأنفس والآفاق.
- الاعتقاد الجازم: واليقين الثابت .
- الإذعان القلبي والانقياد الإرادي: المتمثل في الخضوع والطاعة لحكم الخالق.

الغيب والإنسان

مجموعة الطاقات البشرية كلها من روحية وعقلية وارادية تكمن فى القلب، وقلب القلب هو العقل، وقد جعل الخالق لقلوب خلقه مقامات ارتبطت درجات العلم ومراتبه بمقامات القلب أو الجهاز المتكامل. وقلب القلب يمثل المستوى العالي من مستويات التكامل الوجدانى

فى النفحة الربانية للإنسان. فالإنسان يرى حبيبه بقلبه ثم يركز معرفته بقلب قلبه وهو العقل. ويتصور أن هناك طبقات تعمل على ستر القلب وحجبه عن الحقيقة، وعلى الإنسان أن يكافح ليزيل هذه الحجب شيئا فشيئا حتى يرقى إلى حقيقة القلب. مقامات العابدين مثل الخوف والحب والشوق والزهد والتوكل والرضا لها غاية ومنتهى، وكل هذه الأشياء يحسها القلب ويدركها العقل. إن السعادة الداخلية والسلوك الإيجابى يعنى التوازن بين القلب والعقل بجميع المستويات والمقامات المدركة والموروثة للكيان الإنسانى للشخص. فنحن نعيش فى عالم لا مرئي، وما نراه أقل من القليل.

يتكون الإنسان من جسد مادى به النفس والروح، النفس تستخدم حواس الجسد المادى لتتصل بعالمنا المادى، ولها حواسها الأخرى فتستخدمها للإتصال بالعوالم الغير مادية الغيبية وهي تستخدم قوى خفية غيبية للتأثير فى الماديات سلبا وإيجابا، منها فى الخير البركة ومنها فى الشر الحسد. الروح هى مصدر الحياة لكل من الجسد والنفس وبموت الجسد يفارق الإنسان الحياة الدنيا ويبقى للإنسان بعد ذلك نفسه وروحه ويسمى شبحا وهو فى درجة أعلى من درجة عالم الجن. الغيب المطلق هو الذي لا يستطيع البشر أن يصلوا إليه، ولا إلى معرفته، مثل الله تبارك وتعالى، هذا من الغيب المطلق، الملائكة والعرش من الغيب المطلق، كذلك أحوال البرزخ أحوال الناس في القبر، فالقبر يكون فيه المسلم والكافر وفيه البر والفاجر والمطيع والعاصي، فيه من ينعَّم وفيه من يعذب في القبر الواحد، هل نستطيع بوسائلنا معرفة ذلك؟ هذا من الغيب المطلق. هل يعرف أحد مصيره أو مصير أولاده؟.

أما الغيب النسبي مثلاً الطقس، أو المناخ، أو قضية الجيولوجيين وهى هل يمكن أن نعرف عمر الصخرة كم سنة، فهذا ليس غيباً مطلقاً. التنبؤ بالأرصاد الجوية هذا ليس غيباً مطلقاً، هذا غيب نسبي وله وسائل. عندما يعرف أن هناك منخفض جوي في أوروبا يصل هنا بعد كذا وقد يتخلف، فهذه ليست غيباً مطلقاً، بل من الغيوب النسبية، فالإنسان يستطيع أن يصل إلى الغيوب النسبية بوسائل معينة. ربنا ينزل الغيث، هذا ليس غيباً مطلقاً، فمن الممكن أن

نعرف أن المطر سينـزل بعد كذا ويصدق هذا، وأحياناً يتخلف لأنه ليس هناك وسائل تعطي نتائج صحيحة ١٠٠%.

إن العقل يتفاعل مع الغيبيات بالرغم من عدم ادراكه الكلى بها وهو يرفع سقف مدركاته التخيلية. ومهمة الفكر العقلاني لن تكون هذه القائمة على إنتاج الأفكار الحية ذات الخصوبة المعرفية، والقائمة على استحداث المفاهيم العصرية وتحريك المعادلات وكسر اليقينيات التلقينية والتخلص من هيمنة الثقافة الغيبية وقداسة المعارف التراثية، سهلة على مَن أخذ على عاتقه انتهاج هذا المسلك التحليلي العقلاني والنقدي والتداولي مع الأفكار ومنتجات الحداثة الفكرية. ولذلك ستجد كل هذه التحولات التنويرية والفلسفية ذات الفاعلية التغييرية رفضاً ومقاومة وتعنيفاً من قِبل أولئك الذين اعتادوا على عدم البحث عن المشكلة والعلة في أفكارهم، ويرفضون بالتالي التوجه المباشر لتشخيص الأمراض التي تستوطن ثقافتهم ويمتنعون عن مجرد التفكير في أن المسألة تحتاج نقد الثقافة من الداخل ومعرفة مواقع الخلل فيها. وكذلك تلقى الرفض من قِبل أولئك الذين لا يريدون تحمل مسؤولية فشل أفكارهم وثقافتهم في التماهي المنطقي والعقلاني والتداولي مع واقع الحياة العصرية.

الغيب والمولود

من منا أختار أبيه أو أمه؟ من منا أختار طريقة أتكائه داخل رحم أمه؟ ومن منا أختار فصيلة دمه، أو لون بشرته أو لون عينيه؟ كل هذا تم دون أى تدخل من المولود ولكن دوره هو الرضا والايمان بالخالق وقدراته. من الذى أختار زمان أو مكان ولادته؟ من الذى أختار حجم أعضائه الداخلية أو سرعة سريان الدم داخل الشراين، وهكذا إلى ما لا نهاية. ومن الذى يحدد وظيفة كل عضو من الأعضاء؟. أيها المولود إنك فعل لخالق وأنت مسير ولست مخيراً فى أدواتك الوظائفية الداخلية؟ والإنسان كمولود هو مخلوق ضعيف يفترض أن يرضى بعطاءات الخالق. وتاريخ ميلاده وتاريخ موته لم يعلم عنه شيء هذا المولود. إن المولود هو حالة رضا

وكمال، فليس لديه أى خيار آخر وحتى لو حدث نزول للمولود مبكراً من رحم الأم فهو ينفذ مقدرات الخالق عليه.

الغيب والنوم

السؤال الأصعب والأسهل فى نفس الوقت كيف تكون الحالة الكاملة للإنسان الكامل (الروح والنفس والجسد) فى حالة النوم وفى كل مرحلة من مراحل النوم، فالنوم ينقسم إلى خمس مستويات. بل الجدير بالذكر أين يسكن النوم فى داخلنا أم هو يأتى من خارج الجسد وفى كلتا الحالتين أين كان يسكن ثم أين يذهب وما شكله؟ إن غيبيات الإنسان تفوق مادياته بكثير، بل إن أدراكه اللاواعى يمثل أضعاف إداراكه الواعى. ومن الغريب أيضاً أن الأحلام تعرض علينا ونحن نائمون فكيف نراها ومن يعرضها ويتحكم فى سرعتها وموضوعها وزمن عرضها ثم ما فائدتها؟

وعندما تنام على السرير نوماً مديداً، تضغط العضلات مع الهيكل العظمي على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، فهناك مراكز ضغط في العضلات تُنْبئ الدماغ أن الضغط اشتد، والأوعية ضاقت سعتها، والتروية ضعفت، وحدث حس بتنميل وخدر. تذهب هذه المعلومة إلى الدماغ؛ يعطي الدماغ أمراً، فيتقلَّب النائم ثمانٍ وثلاثين مرة ذات اليمين وذات الشمال، فإدراك الضغطِ هذا قوةٌ إدراكية عند الإنسان.

وأحياناً يزداد اللعاب في فمك، وأنت نائم، وأنت غارق في النوم، وأنت ترى مناماً معيناً، تذهب إشارة من الفم إلى الدماغ، زاد اللُّعاب عن حده المعقول، يعطي الدماغ أمراً للسان المزمار، يغلق فتحة الهواء إغلاقاً محكماً، ويفتح فتحة المريء فتحاً واسعاً، فالإنسان يبتلع ريقه وهو نائم، لولاها لوجدت ريق الإنسان على الوسادة، وأنت نائم هناك عملية معقدة جداً للسان المزمار.

والجدير بالذكر أن الملائكة والجن والشيطان، يستطيعون أن يروا الإنسان ولكن

العكس غير ممكن فى معظم الأحيان. لو كانت المادة هي التي تسمع فلماذا لايسمع الإنسان وهو نائم بل وهو غير منتبه ومركز فى شئ أخر؟ فهذه المادة موجودة فما غابت ولكن هناك شيء آخر ساكن داخل هذه المادة، الساكن هو الذي انشغل بشيء آخر فابتعد عن حالة الوعى والانتباه. عند النوم، بعض الناس ينام وعيناه مفتوحتان أو يتكلم أو يمشى فتشخص من أهل الطب هذه الحالات بأنها حالات مرضية بالرغم من أن الوظيفة العضوية تمت بمعنى أن الإنسان تكلم من فمه أو تحرك برجليه ولكن أعتبر هذا مرضاً فما الفرق؟. والإجابة وببساطة هو عدم وجود الوعى والإدراك لما تتم من وظائف خلال النوم.

ولقد وجد العلماء حديثاً أن دماغ النائم ينشط أثناء النوم في معالجة المعلومات التي مرت عليه في النهار، ويتعلم مهارات جديدة ليكون جاهزاً لاستعمالها بعد النوم، وأن النوم هو ضروري جداً للتعلم. ويعجب العلماء من الطريقة التي يعمل بها الدماغ أثناء النوم، بل من الذي يجعله يعمل بهذا الأداء الرائع؟ ومن الذي يشرف على التنسيق بين الخلايا، وكيف تتم الذاكرة وعمليات حفظ المعلومات، إنها بحق آية من آيات الخالق تبارك وتعالى تستحق منا الوقوف طويلاً أمامها. إن الزمن يعد فيزيائي رابع للمكان حسب نظرية النسبية الخاصة، لكنه لا يعدو كونه وسيلة لتحديد ترتيب الأحداث بالنسبة لمعظم الناس. يعبر الوقت عن المسافة الزمنية الفاصلة بين الأحداث أو التعبير عن نقطة ما على الخط الزمني. وحدات قياس الوقت والزمن تشمل الثانية والدقيقة والساعة واليوم والأسبوع، كما تستخدم كسور هذه الوحدات للتعبير عن الوقت أيضا، أما الشهور والسنين فإن إستخدامها كوحدات لقياس الزمن فهو غير دقيق بالرغم من شيوعه، وذلك لإختلاف أطوال الشهور وأطوال السنوات.

نعم الله سبحانه وتعالى على عباده كثيرة لا تحصى وأحد أعظم هذه النعم نعمة النوم. وأكثر من يشعر بأهمية هذه النعمة من يعاني من مشاكل واضطرابات في النوم. فالنوم يعطي الجسم الراحة التي يحتاجها بعد جهد يوم كامل لكي يستعيد نشاطه وهدوءه لليوم التالي. والإنسان الطبيعي يقضي حوالي ثلث حياته نائما، فالذي بلغ الستين عاما يكون قد قضى حوالي

عشرين عاما وهو في حالة النوم. وخلال هذا الوقت الطويل تحدث العديد من التغيرات والوظائف العضوية الهامة للجسم من إعادة بناء لأنسجة الجسم وإفراز هرمونات وغيرها، ويحصل الكثير من أعضاء الجسم على راحته كالقلب والدماغ وغيرها. وآلية النوم عملية معقدة ترتبط فيها مختلف الأعضاء ارتباطا وثيقا. وقد تحدث بعض الاضطرابات العضوية أو النفسية أو السلوكية التي تؤثر على آلية النوم وينتج عنها اضطرابات في النوم. وتعتبر اضطرابات النوم أحد أكثر المشاكل الطبية شيوعا. فالكثير من الأمراض العضوية المعروفة تؤثر على النوم، والنوم الغير صحي يؤثر بدوره على صحة الإنسان.

ماذا يرى الإنسان من شكله

كم يرى الإنسان من جسمه؟ إن أى انسان لا يرى ألا الطبقة الخارجية من الجلد المغطى للجسم ومن الأمام فقط دون رؤية حتى هذه الطبقة بالنسبة للوجه والباقى هو غيبى بالنسبة للإنسان، وطبعاً بدون استخدام الضوء والمرآه لروية الجمال الشكلى للوجه فالإنسان يرى الجمال لغيره من الناس و لا يرى جمال شكله. والسؤال الذى يرد للذهن هو لماذا خلق الله الإنسان وجعله سيد المخلوقات،وأشرف الموجودات وجعله يرى خلق الله فى غيره شهادة عين ولا يرى خلق الله فى جسده إلا قليل؟ ولقد خلقه الله في أجمل صورة وأحسن تقويم، وركّب فيه جميع الأعضاء التي يحتاج إليها، ومكّن هذه الأعضاء من القيام بوظائفها على أكمل وجه،و من دون أي تدخل من الإنسان في ذلك لا بتوجيه ولا إرشاد ولا أمر ولا نهي.

ونأتى للرأس فنحن نرى بعين لا نراها ونسمع بأذن لا نراها ونتكلم ونأكل بفم غير مرئى. ونتنفس نشم بأنف لا نراه. ناهيك عن التفاعلات الكيميائية والكيموحيوية من إنزيمات وهرمونات ودروة كربس وغيرها من دورات داخل الإنسان تحدث دون علم منه أو تحكم فيها، و يزداد الغيب المغلف للإنسان بالدم والأوردة والشرايين. ولن نتكلم عن الإشارات الكهربية العصبية التى تتحدى سرعة أى جهاز كومبيوتر حالى فى درجة الاستجابة السريعة حتى لو كان سوبر كبيوتر.

بل أن أكثر الأعضاء الداخلية للإنسان تقوم بوظائفها من دون أن يشعر الإنسان بها وبعملها،كما هو الحال في المعدة وهضمها للطعام، والكبد واستخلاصه المواد النافعة من الغذاء،والقلب وضخه الدم إلى جميع أجزاء الجسم وتزويدها بالغذاء والأكسجين، إلى غير ذلك من المهام التي تزاولها الأعضاء من دون أن يشعر بها الإنسان إطلاقاً.

كما أن الإنسان في إحساسه بالتعب والإرهاق،والجوع والعطش، وشعوره بالحاجة إلى النوم والراحة،والطعام والشراب،وكذا تحرك الغريزة الجنسية لديه وما شابه ذلك من أمور، هو غير محتاج إلى معلم يعلمه ذلك، بل أنه يحس بهذه الأشياء بنفسه من دون أي تدخلات خارجية مهما كان نوعها.

فالإنسان هو كتلة غيبية داخلية، ومادة واعية، وبالرغم من قدرات الإنسان إلا أنه يعرف أن الكون المتسع الملئ بمليارات النجوم والكواكب غيب، وقيعان البحار والمحيطات العميقة غيب، والزمن المطلق والنسبى غيب، والروح غيب، والنفس غيب، والعمارة الداخلية للإنسان غيب، والتفاعلات الكيميائية والحيوية داخل جسم الإنسان غيب، والإنسان قبل دخوله رحم أمه هو غيب. ويأتى السؤال لماذا لايؤمن الإنسان بالغيب بعد كل هذا الغيب الذى يعيشه من داخله وخارجه.

الإنسان بين داخله وخارجه

والناظر من لب الأرض على سطحها يجد أن هناك رقعة من الصفائح الصغيرة جداً والرقيقة جداً كقشرة البرتقالة نفسها وهذه الصفائح تسبح فى بحر من الصخور المنصهرة ذات الحرارة التى ليس للإنسان قدرة على مجاراتها أو التكيف معها، وهذه الصفائح إلى فناء ولكن يجد من عليها يتفاخر بقوته الزائلة وبجبروته الكاذب بل ويتصارع فوقها البشر لامتلاك قطعة أرض من التربة السطحية التى أسفلها ما هو إلا واحة من نار مستعرة وقودها الحجارة، فلماذا كل هذا الطمع ولماذا كل هذا الاندفاع للهاوية البشرية؟؟ إن الإنسان المادى ظلوم جهول .

أما لو نظرنا فى داخل الإنسان نجد نظماً متنوعة وكل نظام له آلية ووظيفة مختلفة ولكنها جمعياً مبنية من وحدة أساسية واحدة وهى الخلية والتى خلق منها الله المخ والكلى والكبد والدم، بل وخلق منها ما هو صلب مثل العظم والجمجمة وما هو سائل مثل الدم بدقة تكوينة، وخلق منها ما هو أملس وما هو ذو سطح متعرج. أنها تنويعات لا نهائية، أنها نعم لا تحصى ولكنها ورغم كل هذا التباين فهى نظم متكاملة ومنضبطة يحتويها فراغ الجسم المظلم، ولكن وبوجود ميكروب مرض واحد يحدث اضطراب فى نظام معين أو آلية محددة تنشأ عنها تغيرات فى باقى الأنظمة. وقد لا تقدر عليها كل الأنظمة الدفاعية الهائلة لدى الإنسان ويمرض فأين هذا الكائن الضخم الجبار على من حوله من هذا الميكروب الغير مرئي بالنسبة للعين المجردة؟

إن الابن موجود فى غيب ظهر أبيه قبل زواج الأب نفسه، وعندما تحين بداية تكونه يدخل غيب النطفة لرحم الأم فى ظلام الرحم الضيق وتبدأ فى تغذيته بأنبوب الحياة التى هى تسمى بالحبل السرى وبصورة لا إرادية، ويبدأ فى الانقسام ليصل فى النهاية لطور كمال النمو للجنين ليخرج مرة أخرى من ظلام رحم الأم وينقطع حبل الحياة مع الأم ليبدأ الانتقال إلى نور الأرض يعيش عليها ويأخذ وينضج ويكبر. ثم تأتى ساعة المنية ليخرج من الأرض بمتاعها وما تحصل عليه تاركاً كل شئ، ويدخل ظلمة القبر لتبدأ ديدان الأرض فى أخذ كل شىء منه من داخل جسمه ليتحلل ولا تبقى منه إلا عظمه صغيرة فى آخر العمود الفقرى والتى ثبت علمياً حديثاً أنها لا تفنى مع الزمن. ويمكن تلخيص هذه الصورة الاعتيادية لكل إنسان بدخوله للحياة يأخذ ما يعينه عليها من رحم الأم، وعندما يغادرها لا يبقى له شىء مما أخذه فهو من ظلام إلى ظلام. وتتبادل الأدوار فالإنسان يكون طفلاً ثم شاباً وعند زواجه يسأل عما يملكه من شهادات وأموال وأخلاق وسلوك مع المجتمع العائلى والزملاء كبيئة محيطة، ثم تتزوج ولو أراد الله يصبح أباً ثم جداً لأحفاد (أولاد أولاده)، وبذلك تكمل دورته فى الحالات الطبيعية. ومن الغريب أن الإنسان يولد عارياً تماماً ويغسل وينظف ثم يلف فى ملابس نظيفة ليستره أهله ثم يؤذن فى أذنه بعد الولادة مباشرة، وعند الوفاة تخلع عنه ملابسه ويصبح عارياً كيوم ولادته أمه، ويغسل ويلف فى قطعة من القماش ليستر الإنسان ويصلى عليه بدون آذان ليكمل ما بدأه، ثم يدخل القبر الضيق المظلم ويتم سؤاله عن ربه ودينه. ولو كان

الإنسان خيراً فهو قد مد أحبال سريه كثيرة له بعدد أعماله الخيرية التى لا تنقطع حتى بعد وفاته، من أولاد أو أهل يدعون للإنسان أو صدقة جارية تجعله يجنى الخير حتى بعد وفاته بدون توقف بأذن الله.

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت — أن السلامة فيها ترك ما فيها
لاتركنن إلى الدنيا وما فيها — فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
وأعمل لدار غداً رضوان خازنها — والجار أحمد والرحمن ناشيها

الفصل الرابع

فيك أنطوى العالم الأكبر

مقدمة

قبل الدخول فى هذه النقطة لابد من وضع أساس علمى لتبسيط ما سنتحدث فيه. ففي نظامنا الشمسي تدور الكواكب حول النجوم على أبعاد كبيرة جداً يطلق على وحدة قياسها الستة الضوئية. والسنة الضوئية هي وحدة قياس تستخدم للمسافات الكبيرة والبعيدة جداً كالمسافة بين الأرض والنجوم. تبلغ سرعة الضوء ٣٠٠ ألف كيلومتر/ثانية ، وبهذه السرعة فان الضوء يقطع ١٨ مليون كيلومتر في الدقيقة وهذه تسمى الدقيقة الضوئية. تبلغ المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة تبلغ ٤٦،٩ تريليون ($١٠^{١٢}$) كيلومتر أو ٨٨،٥ تريليون ميل أو ٦٣٢٤٠ وحدة فلكية (تساوي بعد الأرض عن الشمس أي ١٥٠مليون كيلومتر). أما الفمتو ثانية فهى أصغر وحدة زمن إلى الآن وهى تساوى ($١٠^{-١٥}$ من الثانية).

وبما أن المادة تتكون من دقائق صغيرة تسمى الذرات (وتعني بالإغريقية غير القابل للانقسام) وأن الذرات هي فراغ مملؤ بجسيمات تحت النووية وهى جسيمات موجبة (البروتونات) داخل النواة وجسيمات سالبة الشحنة تسمى الإلكترونات (٠,٥ مللى فولت) تدور فى مجرات ذات مستويات طاقية مختلفة يبلغ عددها سبعة. وتبلغ كتلة الإلكترون $٩,١١ \times ١٠^{-٣١}$ كجم والذي يساوي تقريبا ١٨٣٦ من كتلة البروتون. ولابد ان نذكر هنا أن هناك قوة تعادل قوة التجاذب بين الشحنات الموجبة والسالبة داخل وخارج النواة وهى قوة التنافر بين الإلكترونات وبعضها وكذا البروتونات الموجبة وبعضها. لكن كيف تتبع الإلكترونات هذه المسارات دون إخفاق؟ وكيف لا تصطدم ببعضها البعض على الرغم من أبعادها متناهية الصغر وسرعاتها المدهشة (١٠٠٠ كم/ ثانية) التي تتحرك بها؟ لنعقد مقارنة بين حجم الإلكترونات وحجم الأرض. إذا قمنا بتكبير الذرة حتى تصل إلى حجم الأرض، سيكون الإلكترون في حجم التفاحة.

ونأتى للب الموضوع هنا وهو إذا ما جمعنا دوران الكواكب والنجوم بمقياس السنوات الضوئية ودوران الألكترونات (جسيمات مجهرية) فى الفمتو ثانية وأرجعنا هذا كله للأحجام وكتل الأجسام الدوارة نجد أنها تسير بسرعة كرات الدم داخل الجسم البشرى وبالتالى ومجازياً يمكن القول أن الإنسان مركز الكون المطلق من المتناهى فى الصغر إلى المتناهى فى الكبر.

العقل البشرى

هو شيء معجز ففيه ملكات وقدرات لا سبيل للإنسان نفسه إلا أن يشكر ربه على هذه النعمة. فهو مقر التدابير الحركية والنفسية والإرادية وغير الإرادية والقادرة على التمييز بين الخير والشر. وعلم التشريح عرف العقل بأنه هذا العضو الهش الطرى الذى يسكن الجمجمة ويتكون من ثلاثة أجزاء أساسية، والتى تعلو جسم الإنسان وتحنو عليه بأغشية تحميه من الاحتكاك بعظام الجمجمة، ولا نسمع له حساً بالرغم من الكم الكبير من العمليات الحيوية التى يقوم بها فى الثانية الواحدة. فهو يلم بما يحتوية الجسد والرأس ونحن لا ندركه ولا ندرك تدابيره وسرعة رد فعله. و العقل تشريحياً عبارة عن بعض النتؤات وبلايين الخلايا والإشارات العصبية المستمرة والمتواترة والمتنوعة فى نسيج هش.

والعقل يتعامل مع المعلوم والمجهول من الإنسان فهو يتعامل مع النوم والروح والتدابير الإرادية واللاإرادية الأساسية لاستمرار الحياة لبقية أعضاء الجسم، وهو العضو الذى يتركز عمل النوم بداخله فهو يكون فى معيه النوم بعيداً عن الروح ولكنه يعمل بنشاط عال لترتيب المستحدث من المعلومات، ويصحو الإنسان ليجد أنه نشيط وغير متعب مع أن العقل كان نشاطه أضعاف ما كان عليه أثناء النشاط الحياتى العادى.

إن ردود الأفعال فى المخ تكون على المستوى الخلوى، وبسرعة ارتداد الكتروكيميائية، وهى سرعات تفوق استجابة باقى أعضاء الجسم. وبالرغم من أنه كتلة هشة عليمة ببواطن الأمور و ببقية الجسد إلا أنها لم تختار مكانها ولا تعلم سبب وجودها أو سبب تقسيماتها،

فالمخ بمثابة عدد من المجرات التى تعمل معاً فى تناسق ولكنها لا تدرك ماهيتها وإلا أدرك الموت وعرف ردود الأفعال بل وأدرك العقل أنه أول من سيموت فى أعضاء الجسد.

والعقل نتيجة المخرون الثقافى والعلمى يكون المركز الإرداى للأختيارات وتدابير الأولويات المتاحة وعلى رأسها الهداية و الإيمان. وهو العضو المحيط بكل مكونات الجسد ولا يحيط أى عضو آخر به. ويكفى أن ترى طفل يحرك يده أمام عينه ليتأكد أنه الذى يحركها. ولتعلم عزيزى القارئ أننا نكتسب حقائق تكوين أجزائنا أطرافنا بعد الولادة فإننا نولد ولا نعرف اننا نستطيع التحكم فى أطرافنا. والسؤال الذى يطرح نفسه من الذى اختار أن يكون المخ هو العضو المتحكم فى باقى الجسم؟ هل أختار هذا الإنسان أم أن الخالق هو من أختار؟؟؟ وبالتالى الإنسان لم يحدد من هو العضو المتحكم ولكن العضو المتحكم يختار له فى حدود معتقداته ومعلوماته وثقافته.

والقدرة على الكلام هى من أهم الصفات و الإمكانيات لدى الإنسان، وتعريف الكلام هو القدرة على استخدام الرموز نطقاً وتعبيراً وذهناً. فالإنسان يستخدم اللغة ليسترجع بها الأحداث الماضية بل ويعالج الأشياء و الأمور التى لا توجد فى حاضره وجوداً واقعياً. فالكلام قوى خارقة أودعها الله لدى الإنسان بها ينال ويرتقى سلم الرقى البشري، فهى يمكنها أن تلخص انفعالاته وسلوكياته، فمركز الاحتفاظ بالقديم من الحضارات هى الكلمة. فنعمة الكلمة والنطق تعرفها عندما تلاحظ الأبكم من الناس الذى تكون لديه حدود التواصل والتعبير مع المجتمع ضعيفة بالمقارنة بمن يتكلم بل وأسرع فى التواصل مع الآخرين.

وأجهزة النطق هى، الفم واللسان والرقبة والحنجرة و الأحبال الصوتية ولسان المزمار وهى تعمل بتوازن دقيق يتحكم به العقل، ولكن لا بد من مرور الهواء لتنتج الكلمة أو الحرف فالكلمة تخرج مع الهواء. ومن الغريب أن الكلمة والهواء المخرج لها والهواء الحامل لها كلها لا ترى بالرغم من قوة الكلمة وقوة الصوت. بل أن الفكرة التى يحب الإنسان أن يعرضها فى كلماته لا نراها، فنحن نتواصل بالغير مرئى بين جموع الأشخاص المرئيين لبعضهم وليس

لإنفسهم.

والتفكير والإدراك هما أولاد المخزون العلمى والثقافى والمكنون السلوكى للإنسان. أما الإحساس فهو الأب الشرعى للأدراك والتفكير. الأحساس فى التكوين الإنسانى هو وليد الحواس البشرية المختلفة من السمع والبصر واللمس والشم والتذوق، و بالتالى يترجمها المخ بجميع أجزائها إلى أحاسيس. فدالة السمع الصوت، ودالة الصورة مكونات الضوء، ودالة اللمس المخزون المعرفى الإنسانى، ودالة التذوق هى الطعم، ودالة الشم هى الرائحة وهى كلها غير مرئية بالفعل فالطعم والرائحة والصوت ومكونات الضوء الدقيقة (الفوتون) كلها غير مرئية ولكن بالمخزون المعلوماتى يتمكن العقل من التعامل معها وتحويلها لدلالات مادية.

العقل الانساني والزمن الإنسانى المعاش

إن تركيب العقل الإنساني من منظور معنوي يتكون من، ذاكرة وتعنى الماضي (القريب أوالبعيد) والآنية وتعنى الحاضر، و الخيال ويعنى المستقبل القريب المعلوم أو المستقبل البعيد وهو من الطموح. ولتقريب ذلك مع القارئ ففكرة الزمن المعاش، الذي جعل أيام الإنسان ثلاثة أنواع: وهى يوم مضى و يوم معاش و يوم قادم، وتحولات عقل الإنسان بين الذكرى والخيال تولد التفكير. كما توجد في الكائنات الحية بما فيها الإنسان ساعة طبيعية Biological Watch ، هذه الساعة تنقل للإنسان الإحساس بالزمن عبر منافذ الحواس الخمس المعروفة كالسمع والبصر. أما إذا تعطلت إحدى هذه الحواس بسبب ما، كتعطل حاسة الإبصار بالنوم مثلاً، يفقد الإنسان الإحساس بالزمن، لا يعرف كم من الزمن نام ؟!. كما أن الحالة النفسية للإنسان هي التي تحدد له طول المدة الزمنية الواقعة عليه. فمثلاً، الذي يركب قطار في سفره إلى مدينة تبعد ثلاث ساعات ويكون فى حالة ضيق أو ملل قد يحس بوطأة الزمن وإنه يمضي بطيئاً، لأن لحظات الانتظار هي اللحظات المهدرة من الزمن الإنساني، بينما الذي يجلس لحل اختبار في مادة الفيزياء الصعبة لنفس المدة يحس أن الزمن يمضي سريعاً ولن يسعفه ويشعر

بحركة الزمن السريعة، بل أن هذا المفهوم النسبي لتمدد وإنكماش الزمن للإنسان المتعايش فيه، وقد ينطبق على حدث واحد بالنسبة لشخصين مختلفين. مثلاً في مباراة كرة القدم، الشخص الذي يؤازر الفريق المنتصر يتمنى أن ينتهي زمن المباراة سريعاً ويحس بأن الزمن يمضي بطيئاَ، بينما الذي يؤازر الفريق المهزوم يتمنى أن يمضي الزمن بطيئاً حتى يتمكن فريقة من تغيير النتيجة ولكنه يحس بأن الزمن يمضي سريعاً ولن يمكنه من تحقيق ذلك.

نخلص من ذلك إلى أن الزمان النسبى للإنسان مرتبط بتغير المواد الغروية المكونة لخلايا أجسامنا وعلى الخصوص خلايا الدماغ، فإن أي نوع من الاختلاف يطرأ على شعورنا بالزمن المعاش "الحادث"، في بعض الحالات بسبب النوم أو الحالات المرضية (الحمى، التسمم)، يقابلها تغيرات في توازن الغرويات للجهاز العصبي ويخضع تغير هذه الغرويات للمبدأ الثاني من مبادئ الديناميكا الحرارية "مبدأ اللارجعة"، فمحور الزمن له اتجاه واحد هو الإتجاه الأمامي ولا يرجع إلى الوراء أبداً، ومبدأ اللارجعة هذا يسيطر على حركة التطور في الكائنات جميعاً.

أين يقبع النوم؟ ومن أين يأتى؟ وهل هو موجود داخلنا أم مكتسب من الخارج؟ ومن الذى يعطى أوامر للجسم البشرى بأن يقلل من معدلات وظائفه الحيوية؟ ومن يأمر النوم لمهاجمة شخص ما فى وقت معين؟ فهل يتحكم فى ذلك النوم العقل؟ وللأجابة بسهولة نزعم أن النوم هو مجال غيبى والذى يرتب العقل خلاله المستجدات من المعلومات اليومية ووضعها فى الملفات المناسبة له. إذن فالنوم غير معلوم وهو غيب ولكن نعلم دلالاته ونعيشها، فالنوم هو الموت الصغير الذى يجلب للنشاطات العقلى من أدراك ووعى ما يلزم من استمرار الحياة بعد النوم.

العقل الانساني والآنية

تحدثنا عن علاقة العقل بالزمن وعرفنا أن الزمن حركة مستمرة إلى الأمام وأن العقل وفقاً لذلك يكاد ينقسم إلى ذاكرة/ ماضي وخيال/ مستقبل. ألا توجد (لحظة آنية) تخرج

بالإنسان من الزمان والمكان ؟ إن هذه اللحظة ممكنة للعقل المؤدب بأدب اللحظة الحاضرة للإنسان العميق المعرفة بالذات الإلهية، ذلك الإنسان الذي لا يتحسر أبداً على الماضي أو يجزع لهواجس المستقبل في هذا العالم القلق.

وقد تحدث أيضاً للإنسان الغافل وذلك بأن يشغل حواسه كالسمع والبصر بشيء لحظي مثل مباراة أو فلم سينمائي أو موسيقى أو جلوس مع شخص حبيب إلى القلب وذلك لأن الإنسان في داخله فراغين معنويين هما السر وسر السر. هذا الفراغ هو الذي يجعل التفكير يتأرجح بين الماضي والمستقبل. عندما يجلس الإنسان وحيداً في مكان يشوبه الصمت، لا بد أن ينتقل فكره بين الماضي وأحزانه أو المستقبل وهواجسه وقد يسبب ذلك له التعاسة الشديدة لذا عليه أن يغتنم متعة اللحظة الحاضرة ويسلم أمره لله .

الفكر الإنسانى

أليس الفكر هو بوتقة أنصهار المخرون العلمى و الثقافى والعقائدى الإنسانى. وينتج عن هذا الفكر الكلمة ثم الجملة ثم الموضوع ثم متابعته وتثبيته، وتخرج منه ألوان وابتكارات واختراعات لا حدود لها فى التاريخ الإنسانى وتزيد من اتساع آفاقه. إن ملكات العقل التى وهبها الله للإنسان وهى الانتباه والتذكر، والتصور، والحفظ والتخيل هى صفات ينفرد بها الإنسان عن المادة. بل اكتساب العادات والمهارات واللغة، والسلوك الاجتماعى، والثقافات المتراكمة هى أساس المخزون الفكرى المدرك للإنسان.

إن الطفل المولود يتعلم عن نفسه أولاً وعن والدته وعن والده وعن المحيطين حوله، ثم يبدأ فى التفاعل بردود أفعال متباينه من البكاء إلى الزمجرة أو تحريك اليد فى الاتجاه المعاكس للضرب، ثم يتعلم اللغة المحيطة به ثم الكلام ليكون مخزوناً أولياً له فيبدأ الرد. إنه تعليم انسانى مجتمعى محيطى أولى يتطور مع كبر الطفل بجانب الموروث التفاعلى السابق ويتداخل هذا مع ذاك حتى ينتج ويولد الفكر الإنسانى الشخصى المستقل.

إن الإنسان علم أن الكلمة ممكن أن تكون مؤثرة ولكنها لا تحفظ وتتوه فى الهواء لذا لزم تدوينها بالقلم. فالقلم هو سجل لحفظ ما هو سابق من الأولين، وبالقلم نقلت العلوم والآداب بل وتطورت وتطور الإنسان بل وتطورت العلوم وظهر ما ظهر من تكنولوجيات جديدة لا يتسع المجال لتلخيصها.

السلوك الإنسانى

السلوك الإنسانى له أنماط عديدة من أهمها: السلوك الواعى والسلوك اللاإرادى، وهذه السلكويات هى دالة التفاعل الناتج من النفس والعقل، وهى إما معتدلة وغير مفرطة فى الانفعالات وتميل لحسن الخلق و الصدق و الأمانة والتواضع، بل وقد ترتقى لدرجة الشكر لله فى السراء و الضراء وتكون فى محبة متصلة بالله. وهو يكون على المستوى الفردى (يختلف باختلاف العوامل الوراثية والمكتسبة والحالة النفسية والميول الطبيعية) أو المستوى الجماعى. والسلوك تتحكم به الدوافع الداخلية وكذا الدوافع الخارجية فى ضوابط يتحكم فيها العقل من خلال المخزون التعلمى والثقافى والاجتماعى والعقائدى. فالسلوك الإنسانى وهو ناتج التداعيات والحاجات البشرية فى ظل زمن ومكان معين و فى ظل مخزون معرفى إنسانى متراكم.

والسلوك الإنسانى يكون على المستوى المادى المتكامل فليس هناك سلوك إنسانى على المستوى الخلوى، ولكن المردود الداخلى للسلوك قد يؤثر على الشخص نفسه على المستوى الخلوى فالشخص الحاقد قد يحدث ضرر بكل خلية فى أنسجته نتيجة تراكم الطاقات السالبة بكونه الداخلى. وغاية السلوك الإنسانى هو عدم الانسياق للرغبات والشهوات والميول والدوافع، بل يكون مصدره هو التحكم الذاتى الداخلى للانفعالات الخارجية. بل وترويض كل ما هو خبيث فى صالح الإنسان السوى، فالسمو الفكرى يعنى رد الفعل الهادئ فى معظم الأحيان. والسلام مع النفس والتصالح معها يعنى القدرة على أضفاء المحبة مع

الآخرين، بالرغم من سلوكياتهم المختلفة والمتنوعة وقد تكون الملتوية فى بعض الأحيان.

والإنسان ضعيف فى تكوينه المادى وهو يحس ويعرف هذا الحقيقة، من خلال المرض أو الفشل، فكم هو ضعيف جداً وهو صغير ينتهى به الأمر ضعيفاً فهو من ضعف إلى ضعف. ولذا التزم الإنسان العجلة فى أمره مما يؤدى به لانفعالات وردود أفعال قد يندم عليها غالباً فى نهاية الأمر. إن ضعف الإنسان الجسدي قد جعله في حاجة أكثر من أي كائن آخر إلى الحياة في المجتمع. وقد يكون الإنسان كفوراً وبخيلاً وقد تعمى البصيرة والأبصار وقد يتملك الإنسان الأستبداد والظلم وهو عجول فتهئ له نفسه دوام الصحة والمال والسلطان. والهلع من أهم صفات النفس الغير مطمئنة التى تتأثر ولا تصبر على أقل الشدائد أو الأزمات. كما أن الحقد والنميمة من أكثر الصفات التى تحرق خلايا الشخص ذاته فهى تمد الحروب بالوقود اللازم لنشوبها.

وكل هذه الصفات التى فى السطور السابقة هى دلالة على ضعف النفس الإنسانية ناهيك عن النفاق و الرياء وهى صفات تدفع الإنسان للسلوك الشرير للحصول على بعض المكاسب المادية الفانية. وعلاج العجلة فى الإنسان هو المحبة والإيمان والتمسك بالنفس المطمئنة. والإنسان الراشد ضعيف أمام خالقه بل ويستمد قوته المادية من قوة حبه لله. ولعل النزعة الاجتماعية لدى الإنسان ليست في أصولها الخوف والقلق الذين نعمل على التخفيف منهما، ولكن بظهور الحياة في المجتمع تظهر الحاجة إلى التربية، فالتربية ضرورية للفرد، فبواسطتها يحقق أنسيته.

الأدراك الواعى

إن الأدراك الواعى الحقيقي للطاقة الحيوية والروحية والربانية لكل إنسان يجعل طاقة المحبة تنشر الخير فى الكون وتشع طاقة إيجابية تضفى السلام على المجتمع المحيط. والإنسان لابد أن ينظر لنفسه بنظرة شمولية فهو ليس هذا الجسد المادى فقط، فهو جسد

مادى وجسد أثيرى وجسد نجمى معلق أى أن الإنسان هو مادة واعية ذات طاقات لطيفة تعين الجسم الكثيف على الارتقاء فى لطف وسلام ومحبة. ولذلك الشخص الصحيح والمتزن هو إنسان فى حالة إتزان بين مادياته الكثيفة ولطائفة المتنوعة وهو مفهوم صحى شمولى. وإذا أمكن حدوث توازن بين الوعى الداخلى والوعى الخارجى بمعنى استجلاب الطاقات الكونية بما هو متاح من طاقات داخلية فيمكن للإنسان التوحد مع الكون بمستوى لطيف من الطاقات ومنها يكتسب بل ويتحكم فى استجلاب الطاقة الإيجابية من الطاقات الكونية المتنوعة.

الكلمة والطاقة

عجيب هذا المخلوق الذي استطاع أن يجمع العالم بين شفتيه. ولنتصور أن الإنسان من قبل كان يذهب إلى شجرة ويمسك بها ويشير اليها ويهمهم لصاحب هذه الشجرة حتى يفهم عنه ما يريد، ولكن كلمة شجرة تعبر عن ملايين وملايين من الأجناس والأنواع والأفراد من الشجر التي تحمل شيئا مشتركا وهو أنها نبات طويل له ساق صلبة وجذور وأوراق وثمرة، و ينتفع بها للإظلال وانتاج الخشب والثمار وامساك التربة من الانجراف. هذه الأشياء مشتركة ولكنها تعبر عن الملايين من الأجناس. إن الكلمة لها تأثير خطير على الإنسان، لأنها شكل من أشكال الطاقة المحملة بالمعانى والتى تعتمد على إدراك الشخص المتحدث والشخص المتلقى والالتقاء المعرفى بينهم. وطاقة الكلمة هى طاقة إيجابية، فعندما أراد الله أن يكلم خلقه أنزل بين أيديهم الكلمة فى التوارة والأنجيل والقرآن، كما أن الإنسان يعبد خالقه بمختلف الديانات والعقائد بالكلمة. فاجعل كلماتك طيبة تكتسب طاقات نورانية. فالإنسان المتحكم فى كلماته يتحكم فى نفسه والدليل أن خروج الكلمة الطيبة بصفة عامة من الفم لا يحدث إلا بعد آلاف العمليات والقرارت المعتمدة على المخزون الثقافى والنفسى بل والقيام بمجهود عضلى وكيميائى، فاغتنم أن تكون الكلمة فى صالحك الحقى والمشرق لمعنى المحبة فى النفوس.

ويكتسب الإنسان العلم عبر هذه القوالب اللغوية المجمعة بما عندها من سعة

واستيعاب و شمول. ويستطيع الإنسان التجميع و التجريد حتى غير الذوات، من الأفكار المجردة مثل الحب و الخوف و الإيمان و التوحيد و الفضيلة و الأخلاق و الفهم و التحليل و الفلسفة و عالم الذرات المادية وعالم الذرات المعنوية المجردة المعقدة. فيمكن لكل الظواهر الطبوغرافية مثلاً أن تجمعها في كتاب وتعطيها عناوين و تعاريف مجردة. فكل كلمة في اللغة سواء كانت اسماً أو فعلاً هي تجميع يعكس طبيعة العقل في استيعاب العالم. إن أجزاء العالم لامتناهية ولكن الإنسان يستوعبها على قوالب محدودة، ولو لم يكن للعلم قواعد محدودة لما أمكن استيعابها.

إن الإدراك والإرادة والمخزون العلمى والثقافى والاجتماعى والنفسى وهي محصلة الكلمة التى تخرج من فمك. والكلمة لها مفعول السحر فى النفوس فاختر عزيزى القارئ الكلمة واجعلها دائماً إيجابية وبناءة لك ولمجتمعك ككل بل أنها تضيف لطاقتك الأيجابية لتجعل منك عبد الله وخليفته على أرضه.

الطاقة الحيوية

الإنسان وحدة متماسكة منسجمة متناسقة مركبة من العديد من العناصر المادية، والروحية، والطاقية. فلا إفراط في الماديات ولا تفريط في المعنويات لأن الإنسان جسد وروح والكل يتحرك في عالم التقديس والتسبيح. إن كل العبادات التى نعيشها ونتعايش من خلالها فى صلة روحية مع الخالق تعتمد على الزهد فيما هو متاح وغير متاح، بل فيما نحبه وما لا نحبه، بل تجعلنا العبادات فى حالة محبة مع الناس لأننا نزهد ما هو معهم فلا نتنافس ولانحقد ولا ننظر لأى من هو دون المحبة فى الله. وحتى خلال الدعاء والتسبيح نهيم فى طاقة روحية تتجلى فى صغر أى شيء محيط أثناء التسابيح. بل أننا عندما نحصى أسماء الله الحسنى نحس بشئ من الطاقة التى تشحن أبداننا الفانية بل وتجدد نشاط قشرة المخ.

وهناك تغيرات فى العمليات البيولوجية والفيزيوكيميائية وتغيرات في تسجيل موجات

الدماغ الكهربائية، أثناء العبادات. و أما في الاسترخاء، فإن ما يحدث هو تأثير قوة الإرادة على توتر العضلات الذي له ارتباط بمركزه في النخاع الشوكي حتى يتم استرخاء هذه العضلات ويشعر الإنسان بنوع من الراحة، وذلك بفضل انخفاض هذا التوتر العضلي المساعد على الوقاية بل وعلى العلاج لأزمات القلق والانفعالات الشديدة عموما، ويصل الأمر إلى انخفاض ضغط الدم ودقات القلب وحركة التنفس. بالإضافة إلى أن استهلاك الأكسجين ينخفض سريعا من ٢٥١ سم مكعبا في الدقيقة أثناء مرحلة الاسترخاء إلى ٢١١ سم مكعبا ثم ترتفع في مرحلة ما بعد التفكر إلى ٢٤٢ سم مكعبا في الدقيقة. ولوحظ أيضاً أن أخراج غاز ثاني اكسيد الكربون ينزل من ٢١٩ سم مكعبا إلى ١٨٧ سم مكعبا في الدقيقة أي ينخفض من حالة الاسترخاء إلى حالة التفكر ثم يرتفع إلى ٢١٩ سم مكعبا من جديد في مرحلة ما بعد التفكر. ولن ندخل في تفاصيل أكثر من ذلك وإن كانت كثيرة والكثير منها للمتخصصين.

تمكن عدد من العلماء المهتمين بالطاقة الروحية بدراسة هذه الطاقة وقياسها من خلال علم الراديستيزيا Radiesthesia وهو علم الإحساس بالطاقة أو علم الموجة الذاتية، وسوف نفرد له بعض السطور لاحقاً. إن الطاقة الذبذبية تتجمع وتختزن في مناطق دهون الإنسان؛ لأن الدهون عازلة تعزل ما في داخل جسم الإنسان من رنين، وتتجمع فوقها أيضا الطاقة الذبذبية التي علقت بجسم الإنسان خلال الحياة اليومية. وعند اغتسال الأجزاء الظاهرة من جسم الإنسان التي تتعرض للطاقة الذبذبية الصادرة عن الآخرين فإن هذه الذبذبة تسقط وتتلاشى مع كل اغتسال. وهناك بعض الأساليب الجديدة للتمارين الروحية، معتمدا في ذلك على علم بيو- جيومتري أو علم الهندسة الحيوية، وهو علم جديد تمتد تطبيقاته إلى الزراعة والصناعة والطب.

القوة الروحية قوة عاقلة وعالمة بذاتها وبربها بحسب قوة إمدادها من أصل منبعها وتفاوت الأرواح على نمط تفاوت الأشخاص في عالم الظاهر في مواهبهم. أنها وحدة لا تتجزأ وسر لطيف متفتح لعالم الأسرار لأنها بطهارة تجول في عالم التسبيح بل وعالم المطلق. بل أن خصائصها منافية لكل ما هو معلوم من خصائص المادة والعادات المحسوسة. فالإنسان غير

مدرك لماديته ووظائف أعضائه فمثلاً الدم الذي يجري في عروقه ويسري في الجسم كله دون اضطراب في توازن مركباته واعتدال وظائفه وما يحمل من بروتينات ودهون وسكريات وأملاح وفيتامينات وهرمونات ومعادن نادرة وكريات وما يتبعها لا يعلم عنها شئ. بل أنه فى احتياج إلى النفوذ إلى قلب المادة وجوهر الأشياء حتى يتفهم عالم الشهادة والأشياء الظاهرة، كما أنه محتاج إلى إدراك عالم النور والغيب والباطن لئلا يتخبط في الجهل والتقليد الأعمى وغيوم الغفلة. وقيمة الفائدة التي يجنيها الإنسان تكون بقدر قيمة إيمانه وقوة يقينه وطهارة قلبه وصفاء روحه وحسن ظنه بالله وإخلاصه للحق. وبداية المحاولة أو نقطة الانطلاق هي قوة الإرادة وهي على درجات منها، التأمل، المشيئة، العزم، التصميم، الثبات، المثابرة وأعلى مرتبة هى الهمة في الخشوع العميق. والإيمان هو فى النهاية الانسجام والتكيف مع حكمة الله ونوره في الكون.

التفاعلات والعلاقات مع الحواس

هل شعرت يوماً بأن شخصاً ما سيزورك وبعد لحظات تسمع رنين الجرس لتكتشف أنه (بشحمه ولحمه) يقفُ أمامك؟!.. وهل فكرت بصديقٍ غائب تفتقده.. لتُفاجأ بعد دقائق باتصاله؟!.. وهل تساءلت لماذا تشعر الأم – تحديداً – بما يحدث لأبنائها رغم أنهم بعيدون ولا تراهم ؟!.. كل هذا ليس وهماً أو خرافة.. لكنه في (الباراسيكولوجي) حقيقةٌ محتملة الحدوث!

الباراسيكولوجي أو ما وراء النفس هو علم حديث برز مع نهاية القرن التاسع عشر ويبحث في الظواهر النفسية والذهنية الخارقة التي تحدث لبعض الأشخاص، والتي عجز العلم عن إيجاد تفسير لها.. لا بأدوات علم النفس التقليدية ولا حتى عن طريق التحليل النفسي الفرويدي؛ لذا لجأ المهتمون إلى دراسة هذه الظواهر عن طريق الفيزياء الحديثة.. ومن أهم الظواهر التي يدرسها: التخاطر Telepathies، التحريك عن بعد Telekinesis، الاستبصار أو رؤية ماهو خارج نطاق البصر Clairvoyance، الخروج من الجسد Astral

Projection بالإضافة إلى الاتصال بكائنات غير منظورة ! Spiritism

فداخل كل إنسان قدرات خاصة (تقل أو تكثر) تبعاً لتركيبته العضوية والنفسية والإيمانية. وإذا كان كل مافي الكون يشع بما فيها دماغ الإنسان وجسمه الحي الذي يرسل ذبذباته (إلكترومغناطيسية) ومعها أشعة (ألفا ١٠) وأشعة (كاما).. فمتى تشابهت هذه الذبذبات مع ذبذبات إنسانٍ آخر فإنه يتم التوافق بينهما ويمكن عندئذٍ الاتصال بين طرفين مرسل Decoding ومستلم Incoding بعد إجراء تمارين تتعلق بتقوية الأشعة المرسلة أو المستقبلة في داخل الإنسان. والواقع أنه لا يمكن لأحد أن يعرف أسرار الروح ويسبر أغوارها وإنما يمكن الإحاطة بشيء من تأثيرات الروح. كما أن هذه القدرة لا يمتلكها شعبٌ دون آخر لكنها موجودة عند جميع الشعوب وعند جميع البشر ولكن لابد من ايمانهم بالروحانية التى لديهم ويسعون بالإيمان إلى تقويتها. هذه القدرات موجودة لدى البوذيين والهنود حيث تختزن أجسادهم تلك القوى المشعة عن طريق التأمل العميق مع إجراء بعض الرياضات الروحية التي تعمل على تركيز الذهن والتأثير في الآخرين. آخر ما توصلوا إليه هو أن الغدة الصنوبرية التي تقع في نهاية القسم الأوسط من الدماغ والتي مازالت وظيفتها مجهولة هي بمثابة (هوائي) عن طريقها يتسلم الإنسان أو يرسل من وإلى العالم الخارجي كل رسائله الذهنية، ومن هنا يأتي سر حجمها لدى الطيور إذ يصل إلى عشرة أضعاف حجمها لدى الإنسان.. فعن طريقها تهتدي هذه الطيور إلى أعشاشها!

الفصل الخامس

الإنسان والزمن

مقدمة :

هل وجد الزمان قبل المكان أم العكس؟ ليس هناك من شيء أدى للحيرة والتضارب فى مفهومه أكثر من الزمن، بل ولقد أدت هذه الحيرة إلى الخلط والتشويش فى مفهوم الإنسانية للوجود. ويجب أن ندرك أن ظل الشيء لا يمكن الإمساك به بالرغم من رؤيته رؤيا العين، فالظل منسوب ودالة للشيء نفسه وليس مستقلا بنفسه. وهكذا الزمن بالنسبة للمادة. إن الزمن هو حلقة الوصل بين عالمنا المادى وعالم الغيب، بيد أن الزمن لا يعى شيئاً عن الحوادث التى تتم فيه. وبما أن الحركة سمة المادة ولا معنى للحركة بدون الزمن، ولا معنى للزمن بدون حركة، وبالتالى فلا معنى للزمن بدون مادة. إذن فالزمن رهن للمادة وظل حركتها فالزمن دالة على ديمومة الحياة.

أينشتين أكد فى نظرية النسبية أن الزمن كيان طبيعي وهو من مكونات هذا الكون وبالتالى البس الزمن زيا خاصاً هو نسبية اللحظة، وكذا ثبات سرعة الضوء، وبالتالى فإن النسبية فصلت بين الزمن والحركة. البعض عرف الزمن على أنه البعد الرابع لهذا الكون، وهنا أحب أن اسأل سؤالاً، كيف يمكن قياس العدم إذا كان الزمن منفصلاً عن الحركة؟ وسؤال أخر إذا كان الزمن شاخص مستقل فهل يمكن استرجاعه أو التحكم فيه؟ بل كيف يمكن قياس الزمن بدون حركة؟

استمرار الحركة هو تكرار لاستمرار الثبات، والزمن هو تكرار للحظات عدم. الطواف حول الكعبة يكون عكس اتجاه عقارب الساعة وهو نفس اتجاه دوران الإلكترونات حول النواة، بل أن الأحماض الأمينية هي الوحدة الأساسية المكونة للبروتينيات داخل الكائن الحى تترتب فى الاتجاه اليسارى فى حالة تمتع الكائن بالحياة.

أن الزمان والمكان مرتبطان معاً ولا يمكن أن يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر. وكلنا يعلم أننا نستطيع أن نتحرك في هذه الأبعاد–المكانية– بكل حرية حيث نستطيع السير يمينا أو

يسارا أو إلى الأمام أو الخلف أو إلى أعلى أو أسفل. ويمكننا ركوب آلات مثل الطائرة أو الصاروخ التي تنقلنا في البعد المكاني الثالث "الارتفاع". ومن هذه الفكرة البسيطة عن الأبعاد يتضح أنه بإمكاننا أن نتنقل عبر الزمن بهذه الصورة، وكل ما نحتاجه هو الجهاز الذي ينقلنا بسرعة قريبة من سرعة الضوء لكي نحس بفرق ملموس في انكماش الزمن. إن دقات ساعة الحائط تقدم لك زمناً مزيفاً..ابحث عن زمنك الحقيقي في دقات قلبك و نبض إحساسك ..

وبالتالى فالزمن الإنسانى يشمل الزمن الميقاتي بالإضافة إلى الزمن النفسي: فالزمن الميقاتي – محدد طبيعي – يلزم استمراره تتابع انتهاء الآنية الحالية ومولد آنية تالية، وبالتالى فهو له بداية ونهاية. أما الزمن النفسي – نسبي – إحساس متغير بالبداية والنهاية. ومن هنا نلاحظ أن الزمن النفسي أو الزمن السيكولوجي يتغير قياسا إلى إحساسنا بالأشياء، وبذلك يمكن أن يكون سبيلا إلى الزمن المطلق الذي لايحده زمان ولامكان ويمثل الجوهر الذي تقاس به الأشياء أي تنسب الأشياء إليه. فالزمن الإنسانى الحاضر هو حاضر مستمر بالنسبة لأناس متتالين فى الآنية وبمعنى آخر فحاضر الجد هو ماضى الأبن والمستقبل البعيد للحفيد.

كل لحظة حاضرة تحتوي على ذكرى الماضي كله و معه علاوة من الحاضر. فالحياة غير قابلة لأي تكرار بالنسبة للشخص، فاللحظة السعيدة فى عمر الإنسان تمر بسرعة ولكن بمقياس أى من الأزمنة؟ وكذا الخوف له زمن ثقيل بطئ متباطئ بحجم الخوف متزايد فى بطئه بزيادة الخوف أو مدة الخوف. وبالتالى الزمن الإنسانى هو زمن نسبيى يعتمد على الشعور الإيجابى أو السلبي فهو زمن ولكنه داخلى الإحساس به. و لا يوجد إنسان يحس بالزمن بصورة ثابتة فالإنسان متغير المزاج وبالتالى متغير الإحساس بالزمن. والشعور الإيجابى يعنى الحركة المتقدمة الرزينة فى اتجاه شبه محدد مما يعطى إحساساً لطيفاً بالزمن، أما الشعور السلبيى فإنه يجعل الإنسان يحس بالضيق والملل وهذا ينعكس عليه معنوياً ومادياً، ويجعله مشتتا مما يزيد الأحساس بثقل الزمن.

أنواع الزمن

نوعان: الزمن المطلق والزمن النسبى. والزمن النسبى هو دليل على وجود الزمن المطلق. وينقسم إلى الزمن الإنسانى والجيولوجى والمجرى والكونى على سبيل المثال. ودوام شروق الشمس وغروبها لا يعنى التكرار الممل المتكرر بل فى كل شروق وغروب أحداث متكررة وغير متكررة وهى دليل على امتداد الزمن وليس التكرار أى دالة على المطلق. دعنا نتفق أن الزمن النسبى محدد ببداية ونهاية ولكن يمكن أن ينقسم الزمن إلى الزمن النسبى والزمن المطلق. الزمن النسبى ينقسم حسب المكان أو المتلقى، فالزمن الإنسانى هو تتابع المواقيت الناتج عن شروق الشمس وغروبها وعن دوران الأرض حول الشمس، والقمر حول الأرض بل والماضى الحاضر والمستقبل له وللتاريخ الإنسانى. ويمكن أن نصل لمستوى الزمن الخلوى وهو الزمن اللازم لإتمام عمل الوظائف الحيوية داخل الخلية.

الزمن والفيزياء

فيزياء كلمة إغريقية تعني معرفة الطّبيعة (هي العِلم الذي يدرس المادة وحركتها، بالإضافة إلى مفاهيم أخرى كالفضاء، والزمن، ويتعامل مع خصائص كونية محسوسة يمكن قياسها مثل القوة والطاقة والكتلة والشحنة بالإضافة إلى ميكانيكا كلاسيكية، كهرومغناطيسية، ترموديناميكا، ميكانيكا إحصائية، ميكانيكا الكم، النسبية، فيزياء الطاقة العالية، فيزياء المادة المكثفة، فيزياء ذرية وجزيئية وضوئية). وللفيزياء مكانة متميزة في الفكر الإنساني، فهي تأثّرت كما كان لها الأثر الحاسم في بعض الحقول المعرفية والعلمية الأخرى مثل الفلسفة والرياضيات وعلم الأحياء. ولقد تجسدت أغلب التّطورات التي أحدثتها بشكل عملي في عدّة قطاعات من التقنية والطب. فعلى سبيل المثال، أدى التّقدم في فهم الكهرومغناطيسية إلى الانتشار الواسع في استخدام الأجهزة الكهربائية مثل التلفاز والحاسوب؛ و كذلك تطبيقات الديناميكا الحرارية إلى التطور المذهل في مجال المحركات ووسائل النقل الحديثة؛ والميكانيكا الكمية إلى اختراع

معدات مثل المجهر الإلكتروني والمجهر رباعى الأبعاد؛ كما كان لعصر الذرة، بجانب آثاره المدمرة، استعمالات هامة في علاج السرطان وتشخيص الأمراض وتوليد الطاقة .

الزمن والإنسان

وهنا يمكن وضع سؤال يمكن أن يكون غريباً وهو، هل وجد الزمان قبل المكان أم العكس؟ ليس هناك من شيء أدى للحيرة والتضارب فى عن مفهومه أكثر من الزمن، بل ولقد أدت هذه الحيرة إلى الخلط والتشويش فى مفهوم الإنسانية للوجود. ويجب أن ندرك أن ظل الشيء لا يمكن الإمساك به بالرغم من رؤيته رؤيا العين، فالظل منسوب ودالة للشيء نفسه وليس مستقلاً بنفسه. وهكذا الزمن بالنسبة للمادة. إن الزمن هو حلقة الوصل بين عالمنا المادى وعالم الغيب، بيد أن الزمن لا يعى شيئاً عن الحوادث التى تتم فيه. وبما أن الحركة سمة المادة ولا معنى للحركة بدون الزمن، ولا معنى للزمن بدون حركة، وبالتالى فلا معنى للزمن بدون مادة. إذن فالزمن رهن للمادة وظل حركتها فالزمن دالة على ديمومة الحياة.

أينشتين أكد فى نظرية النسبية أن الزمن كيان طبيعى وهو من مكونات هذا الكون وبالتالى ألبس الزمن زياً خاصاً هو نسبية اللحظة، وكذا ثبات سرعة الضوء، وبالتالى فإن النسبية فصلت بين الزمن والحركة. البعض عرف الزمن على أنه البعد الرابع لهذا الكون، وهنا أحب أن اسأل سؤالاً كيف يمكن قياس العدم إذا كان الزمن منفصلاً عن الحركة؟ وسؤال أخر إذا كان الزمن شاخص مستقل فهل يمكن استرجاعه أو التحكم فيه؟ بل كيف يمكن قياس الزمن بدون حركة؟

استمرار الحركة هو تكرار لاستمرار الثبات، والزمن هو تكرار للحظات عدم. الطواف حول الكعبة يكون عكس اتجاه عقارب الساعة وهو نفس اتجاه دوران الإلكترونات حول النواة،

بل أن الأحماض الأمينية هي الوحدة الأساسية المكونة للبروتينيات داخل الكائن الحى تترتب فى الاتجاه اليسارى فى حالة تمتع الكائن بالحياة.

الزمكان (الزمان – مكان) مصطلح حديث منحوت من كلمتي الزمان والمكان لتعبر عن الفضاء رباعي الأبعاد الذي أدخلته نظرية النسبية ليكون فضاء الحدث بدلاً من المكان المطلق الفارغ في نظرية الكم .

أن الزمان والمكان مرتبطان معاً ولا يمكن ان يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر. وكلنا يعلم أننا نستطيع أن نتحرك في هذه الأبعاد–المكانية– بكل حرية حيث نستطيع السير يمينا أو يسارا أو إلى الأمام أو الخلف أو إلى أعلى أو أسفل. ويمكننا ركوب آلات مثل الطائرة أو الصاروخ التي تنقلنا في البعد المكاني الثالث "الارتفاع". ومن هذه الفكرة البسيطة عن الأبعاد يتضح أنه بإمكاننا أن نتنقل عبر الزمن بهذه الصورة، وكل ما نحتاجه هو الجهاز الذي ينقلنا بسرعة قريبة من سرعة الضوء لكي نحس بفرق ملموس في انكماش الزمن .

النظرية النسبية الخاصة تعطي معادلة رياضية تدعى انكماش الزمن بزيادة السرعة لاعتماد الزمن على السرعة. وتفترض أنه لو سافر على السفينة لمدة عشرة أعوام – مثلا – فسيجد ابنه المولود حديثًا قد أصبح عمره عشرين عامًا، أو أن أخيه التوأم يكبره بعشرة أعوام. كما أن السفر بسرعة تقترب من سرعة الضوء هو أمر ممكن فيزيائيا وتكنولوجيا.

إن الزمن بعد فيزيائي رابع للمكان حسب نظرية النسبية الخاصة، لكنه لا يعدو كونه وسيلة لتحديد ترتيب الأحداث بالنسبة لمعظم الناس. يعبر الوقت عن المسافة الزمنية الفاصلة بين الأحداث أو التعبير عن نقطة ما على الخط الزمني . وحدات قياس الوقت والزمن تشمل الثانية والدقيقة والساعة واليوم والأسبوع، كما تستخدم كسور هذه الوحدات للتعبير عن الوقت أيضا، أما الشهور والسنين فإن إستخدامها كوحدات لقياس الزمن فهو غير دقيق بالرغم من شيوعه، وذلك لإختلاف أطوال الشهور وأطوال السنوات.

أهم نتائج النسبية العامة تغير نظرتنا إلى الكون، فالمكان والزمان ليسا خلفية ثابتة

للأحداث، وإنما هما مساهمان نشيطان في ديناميكا الكون. والفكرة الأساسية هي أنها تضم "بعد" الزمان إلى أبعاد المكان الثلاثة لتشكّل ما يسمى (الزمكان). وتدمج النظرية تأثير الجاذبية بأنها "تحني" الزمكان بحيث لا يكون مسطحا. ولما كان الزمكان منحنيا فإن مسارات الأجسام تظهر منحنية، وتتحرك كما لو كانت متأثرة بمجال جاذبية. وانحناء الزمكان لا يؤدي فقط إلى انحناء مسار الأجسام ولكنه يؤدي أيضاً إلى انحناء الضوء نفسه.

فلسفة الخلود

هو انفلات الزمن عن النسيج الإنساني بالرغم من حركته المستمرة، فإذا أقررنا أنَّ الزمن هو إحساس داخلي للإنسان، وليس للزمن أي وجود موضوعي خارج هذا الاحساس، فالخلود حسب هذه الفكرة معناه انقطاع الزمن، وبالتالى يعيش النسيج الإنسانى الخالد خارج المكان والزمان الإنسانى المدرك. هكذا قال أصحاب الكهف الذين قيلَ أنهم ناموا سنيناً طويلة، إنهم لم يلبثوا نائمين إلا يوماً أو بعض يوم، كعادة النائم العادي. فلمّا ذهبوا للسوق لشراء بعض حاجاتهم، فوجئوا بأن النقود التي كانت معهم قد أبطِلَ التداول بها منذ زمن بعيد.

فلسفة الوجود المادي

لغوياً الوجود يقابله العدم، وإذا تركنا الوجود القديم وتتبعنا الكلمة في المفهوم اللغوي نجد أن معناه ينحصر في كل ما أوجده الله تعالى من العدم. فالوجود المادي واقع تحت أبصارنا نشاهده ونلمسه، ولا مجال لإنكاره، لأننا نتعامل مع مكوناته، وهو جملة الموجودات المادية بقوانينها كالأجرام السماوية السابحة فوق رؤوسنا، والأجسام المتحركة من حولنا. البحث في المادة قد تشعب وتفرع، بعد أن كانت العناصر أربعة: النار والماء والتراب والهواء. ولكن إذا كانت وحدة تكوين الماء هى قطرة الماء ووحدة تكوين التربة هى ذرة التراب، ولكن مم تتكون الرياح والنار ما هى وحدة تركيبهما؟؟؟، فقد تجاوز عددها مئة عنصر في الطبيعة. مع العلم عزيزى القارئ أن ليست المادة تلك التي تتخذ من صلابتها وجسامتها شرطا للحقيقة، لأن

الحقيقة المادية نفسها غير مدركة بالكامل فدائماً العلم مكتشف المادة فى تطور مستمر. فعلى سبيل المثال الحديد يتكون من جزيئات والجزيئات تتكون من ذرات والذرات تتكون من إلكترونات (فى مستويات طاقة مختلفة) ونواة بينها وبين المستويات الطاقية مسافات فراغ كبيرة نسبياً فالمادة هى طاقة وفراغات.

فلسفة الجيل

كل جيل يعيش أيامه على هذه الأرض فى صورة دورات فتبدأ دورة تليها دورات متتالية من أجيال متتابعة، إذا فكل إنسان يأخذ موقعه فى هذه الدورات المتتالية. ولكل إنسان ما يسعده وما يحزنه وما يكرهه وما يحبه بل وما يعتقده وما لا يدخل فى ضميره الواعى، وممكن يتمدد فى مكانه أو يكون فى صورة ديناميكية حية. وكل إنسان بما له من صفات، يختلف عن الآخر لأنه تركيبة فريدة من مكونات متفردة ومتجددة ومتطورة لأنها خلاصة عقل وقلب.... نفس وروح..... وجدان وافكار ومشاعر ....ظروف وتجربة.....مختزن ومكتسب، فليس مطلوباً من أن يكون الإنسان صورة طبق الأصل من أبيه، وبالتالى لا يوجد تطابق بين الأجيال منذ الأزل ولكن تشترك الأجيال فى أشياء وبعض الصفات وأيضاً هناك أختلافات جوهرية وظاهرية.

جيل وراء جيل يعيش ويتبادل الأدوار شيئاً فشيئاً، يحاول أن يكون قدوة لغيره ولنفسه، يطمع فى الثروة والمال والسلطة والعلم والأبناء،وقد تتغير أوليات جيل عن جيل ولكنها مغريات وطوحات دنيوية ثابتة. ومهما كانت ظروف أى جيل.....ومهما حالت الدنيا بينه وبين أحلامه.... ومهما أغتال الآخرون آماله.... ومهما فرض عليه من حوله أهدافاً بديله.... فإن لحظة انفراده بداخله يمكن أن تعيد الطموحات العامة واللازمة له لتطوير حياته وتحسن من نبضات قلب المجتمع، وتحسن من أداء وحداته المختلفة لصالحة.

كلنا هذا الجيل

بالرغم من أن كلنا هذا الجيل... فشتان بين جيل وجيل... فالواقع يقول أن هناك جيل بلغ أكمل صفات الجمال والكمال وكان مشكاة خير لنفسه ولمن حوله من خلال طاقته الحيوية ذات الطاقة الأيجابية القادرة على التغلب على الطاقات السالبة، فانتشرت المحبة والهدوء والسلام. أما إذا سادت الطاقات السالبة بجميع أنواعها وأستجلبت من الطاقة الكونية ما يعينها على قوى الشر والحقد والضغينة والنميمة، كان جيل مقيد له ولغيره متقد بالشر يلعن الضوء ويعمل فى الخفاء.

وأهداف كل جيل تكون محصلة لإهداف كل إنسان منسوب لهذا الجيل. ويجب أن نتفق عزيزى القارئ أن لا شيء مطلق إلا الخالق، فالجمال درجات والقبح كذلك درجات والصفات نسبية، وبالتالى سواء كان صراع أو تكامل بين الأجيال فهو نسبى من مكان لآخر ومن زمن لآخر. فإذا كان الإنسان علم أن هذا الكائن الأخضر شجرة وهذا الجسم الصلب الضخم هو جبل، فماذا يريد الإنسان هو نفسه؟ وماذا يريد أن يصنع بحياته؟ وكيف يستثمر نفسه وحياته؟ وعندما يتحرر كل إنسان بإجابته الصادقة مع نفسه والتى تكون ذات إدراك واع وضمير حقيقى محب لنفسه وللغير، ستذوب هذه الإيجابيات فى بوتقة احتياجات الجيل لتنصهر فى صورة متطلبات وأحلام وخصائص لهذا الجيل، وهكذا تستمر أحتياجات الجيل فى تنام ديناميكى ويكون هناك نمو فى الاتجاه الإيجابى، ويعنى هذا أن هذا الجيل يضيف لنسيج المجتمع والدولة بل والأمة، وسيظل يبحث دوماً عما هو أحسن ويهرع له، فينمو المجتمع ويتطور ويمتص أى تغير مرغوب لصلاح الأمة. أما الجيل الذي دوافعة ديناميكية سلبية فإنه يأخذ من حصيلة المجتمع من خير ومودة ومحبة. فالله أجعل الأجيال أجيال محبة وصفاء لأمة تسودها ما يسودها الآن من صراعات ونزاعات فى مناحى الحياة.

عزيزى الشاب ليس هناك جديد تحت الشمس، فمحصلة العالم و أممه من صراعات

وأحقاد وحروب تنوعت كبرت أو صغرت، فهناك وجهان فقط للحياة على الوجه المطلق عند طرفيها المحبة والحقد، وتتكالب بينها كل الصفات الجميلة والحميدة والشريرة والبغيضة. فالفكر واحد ولكن اختلفت الآلية. فمثلاً كان الاستعمار منذ القدم يتمكن بالقوة والاستيلاء على الأراضى والحروب ولكن اكتسب الأستعمار وجوها جديدة متجملة منها الاستعمار العلمى أو المالى أو الثقافى، فتصبح الدول الصغيرة وشبه المتوسطة تدور فى فلك الدول الكبيرة بدون أرادة منها وتكون تابعة لرغباتها من خلال بعض القرارات داخل هذه الدول وبتسلط الدول الكبيرة. وبالتالى فإن تجمل الوجوه القبيحة هى سمت العولمة الأساسية، والتى ينبغي أن تنتبه لها عزيزى الشاب.

الزمن والغيب

إن الزمن بعد فيزيائي رابع للمكان حسب نظرية النسبية الخاصة، لكنه لا يعدو كونه وسيلة لتحديد ترتيب الأحداث بالنسبة لمعظم الناس. وربما يكون مصطلح الزمن هو الأعصى على التعريف، فالزمن أمر نحس به أو نقيسه أو نقوم بتخمينه، وهو يختلف باختلاف وجهة النظر التي ننظر بها بحيث يمكننا الحديث عن زمن نفسي أو زمن فيزيائي أو زمن تخيلي. ولكن يمكننا حصر الزمن مبدئيا بالإحساس الجماعي للناس كافة على توالي الأحداث بشكل لا رجوع فيه، هذا التوالي الذي يتجلى أكثر ما يتجلى بتوالي الليل والنهار وتعاقب الأيام. فرض على الناس تخيل الزمن بشكل نهر جار باتجاه محدد لا عودة فيه.

مع الأيام لاحظ البشر أن العديد من الظواهر الفيزيائية بدءا من حركات الشمس إلى تساقط الرمل من وعاء زجاجي إلى اهتزاز نوّاس بسيط تأخذ فترات زمنية متساوية حسب تقديرهم مما دفعهم لتطوير ميقاتيات وأدوات لقياس الوقت باستخدام هذه الظواهر، فأوجدوا المزولة الشمسية ثم الساعة الرملية ثم ساعة النواس أو البندول. و في كل هذه الأزمان تم اعتبار الزمن على أنه أحد المطلقات، فالفترات الزمنية الفاصلة بين حدثين مختلفين ثابت

بالنسبة لكافة المراقبين، وهذا أمر حافظ عليه نيوتن باعتباره الزمن شيئا مطلقا كونيا، فتغيرات الزمن ثابتة في جميع أنحاء الكون، وهو يجري أبدا كما هو بالنسبة لجملة فيزيائية تتحرك بانتظام أو بتسارع، تتحرك حركة دائرية أو مستقيمة .

الزمن أنواع، وينقسم فى الأساس لزمن مطلق وزمن نسبى وكل ما سيتم ذكره لاحقاً هو تعريف لبعض الأزمان النسبية. فمثلاً الزمن الكونى وزمن المجراتى وأزمان الأرض المتنوعة من زمن المعرفة والزمن الجيولوجى والزمن الحضارى والزمن المجتمعى ثم الزمن الإنسانى ثم الزمن الوقتى. ومن المهم عزيزى القارئ أن نعلم أن الزمن دالة الحركة والحركة هل ظل الزمن.

على الرغم من أن حاسة الزمن ليست مرتبطة بنظام حسى معين، إلا أن علماء النفس يشيرون إلى أن عقولنا تملك نظاماً للإحساس بمرور الوقت. وهذا هو نظام عالى التوزيع يحتوى على قشرة الدماغ، المخيخ والعقد الأساسية كمكونات لهذا النظام. مكون رئيسي هو نواة السوبراشماستيك، مسئول عن الدورة اليومية، بينما تبدو الخلايا الأخرى قادرة على ضبط الوقت الاقل طولا. الإحساس بالوقت ضعيف عند بعض الأشخاص بسبب الأمراض العصبية مثل مرض باركنسنِ ومرض ضعف التركيزِ. المخدرات المنشطة من الممكن أن تضعف الإحساس بالوقت. المحفزات من الممكن أن تقود كلا من البشر وا لفئران إلى زيادة تقدير فترات الزمن بينما المسكنات تولد التأثير المعاكس.

فالفترة أو المدة هي الفترة الزمنية التي تستغرقها إجراء حادثة معينة أو تجربة فيزيائية. تستخدم المدة أيضا في مصطلحات الموسيقا للدلالة على فترة عزف أو إصدار صوت أو نغمة موسيقية معينة خصوصا عند كتابة النوتات الموسيقية. ويجب أن نعلم أن بفكرة النسبية السابقة تكون المدة غير محددة ومعلومة الزمن فممكن أن تدخل حفلة موسيقية تستمع بها تمر عليك كأنها برهة من الزمن، وممكن أن تكون العكس فتمر عليك هذه المدة الزمنة كأنها ساعات كثيرة. فالتفاعل الإنسانى مع الزمن الإنسانى هو تفاعل متغير بالنسبة للمستقبل وهو الإنسان من شخص لشخص أو حتى لنفس الإنسان.

السفر عبر الزمن

هو مفهوم الإنتقال إلى الوراء أو إلى الأمام من نقاط مختلفة في الزمن، بشكل يماثل الإنتقال خلال المكان. وإضافة إلى ذلك، بعض التفسيرات للسفر عبر الزمن توحي بأنه من الممكن الانتقال بين أكوان متوازية، بالرغم من أن السفر عبر الزمن كان أداة مشتركة في القصص الخيالية في القرن التاسع عشر، وكان السفر عبر الزمن هو إلى المستقبل فقط تماشياً مع ظاهرة التمدد الزمني في نظرية النسبية. السفر عبر الزمن هذه الفكرة التي شغلت العلماء فترة من الزمن وكانت أقرب إلى الجنون منها إلى الخيال.وبعد ظهور نظرية النسبية أصبحت هذه الفكرة على طاولة النقاش وتكلم بها الذي يعلم والذي لا يعلم.والسؤال الآن هو: هل فعلاً نستطيع أن نسافر عبر الزمن؟؟

الوسائل المتوقعه للسفر عبر الزمن

الثقوب السوداء

الثقوب السوداء التى تبلغ كثافة المادة بها ٢٥٠ ألف طن/سم٢ وبالتالى تجذب لها كل شئ قريب منها أو فى مدى جاذبيتها من تيارات من الإلكترونات أو الأشعة السينية التى يمكن من خلال هذا الانجذاب تحديد مكانها. يصفها علماء الفضاء بمكنسة المنزل الكهربائية الكبيرة وهى نجوم كبيرة ولكنها سوداء لصعوبة انفلات الضوء من خلال جاذبيتها. وهذه النجوم السوداء فى حالة تقلص مستمر وزيادة فى كثافة مادتها إلى أن تصل للحالة الحرجة فتنفجر وتكون هالة من الدخان لتكون نجوم جديدة. الطاقة والمادة صورتان مختلفتان لشيءٍ واحد، فالمادة يمكن أن تتحول إلى طاقة والطاقة إلى مادة .

وحتى ينشأ ثقب أسود لابد من أن تنضغط كتلته حتى تعادل السرعة الكونية الثانية للهروب منه، سرعة الضوء على الأقل، ويسمى نصف قطر الجسم فى هذه الحالة بنصف القطر التجاذبى. ويعتمد ذلك على إنضغاط المادة داخل الجرم، ليتساوى نصف قطره مع نصف قطره التجاذبى. فكرة استخدام الثقوب السوداء في السفر عبر الزمن تعتمد على أنه من الممكن عندما يحدث انحناء شديد للزمكان أن يحدث اتصال بين نقطتين متباعدتين في الزمكان. وبالتالي إذا تحقق مسار مغلق للزمكان يمكن العودة إلى نقطة البدء في الزمان والمكان. ويرى بعض العلماء أن السفر إلى الماضي لا يمكن أن يحدث، وإنما يكون باستمرار في اتجاه المستقبل. والعبرة هي اقتراب سرعة الحركة من سرعة الضوء.

قام العالم كيب ثورن وزملاؤه بوضع تصميم لآلة للسفر في الزمن تعتمد على تخليق ثقب دودي ميكروسكوبي في المعمل، وذلك من خلال تحطيم الذرة في معجل للجسيمات. ثم يلي ذلك التأثير على الثقب الدودي الناتج بواسطة نبضات من الطاقة حتى يستمر فترة مناسبة في الزمان ويلي ذلك خطوة تشكيله بواسطة شحنات كهربية تؤدي إلى تحديد مدخل ومخرج

للثقب الدودي وأخيرًا تكبيره بحيث يناسب حجم رائد فضاء بواسطة إضافة طاقة سلبية ناتجة عن نبضات الليزر. ولابد أن نعرف ونلم بأن الفراغ ليس فراغاً حقيقياً. بل هو ممتلئ بالكثير من الجسيمات الافتراضية العابرة

وفقاً للعالم ستيفن هوكنغ الذى أثار ظاهرة التبخر من الثقوب السوداء.فإن درجة التبخر تعتمد على درجة حرارة الثقب الأسود، فهي تجمع بين الكتلة والحرارة لثقب أسود. إن قيمة هذه الحرارة تحكم ليس فقط السلوك الكمي، بل وأيضاً النوعي، للجسيمات المنطلقة، فكلما كان الثقب الأسود أكثر حرارة كان يستطيع أن ينتج أكثر جسيمات ذات كتلة أكبر. إضافة إلى ذلك، كلما كان هذا الثقب يتبخر بشكل أسرع كلما كانت حرارة الجسيمات مرتفعة أكثر وبالتالي تكون طاقة الجسيمات المنطلقة أعلى. ووفق قانون هوكنغ، فإن هذه الظاهرة تستمر وتشتد حتى يختفي الثقب الأسود شرط أن تنقص الكتلة وتزداد درجة الحرارة. وهذه النقطة الأخيرة هي التحدي الذي يتعرض له عدد من النقاشات والحوارات.

لكي يتبخر ثقب أسود كتلته ١٠ مليار طن، وهي كتلة صغيرة نسبياً تقارن بكتلة جبل كبير، يلزم عمر يساوي ألف ضعف عمر الكون الحالي. بالتالي من غير المجدي في هذا السياق الحديث عن الزمن اللازم لتبخر الثقوب السوداء النجمية أو تلك الفائقة الكتلة القابعة في مراكز المجرات، فعندها قد يمكن الحديث عن زمن تبخر لانهائي. بالمقابل، فإن التبخر الكامل لثقب أسود لا يزن أكثر من ١٠٠٠ طن لا يحتاج لأكثر من ثانية تقريباً. وعلى خلاف أقرانه من الثقوب السوداء الكبيرة، يمكن قياس عمر أو فترة وجود مثل هذا الثقب. فهذا الثقب الأسود الصغير يصدر إشعاعاً كونياً قابلاً للرصد. وهذا يعنى ويتعلق باكتشاف اكتشاف بقايا كونية ترجع إلى بدايات الكون نفسه.

الوحدة والأختلاف

على أساس القاعدة الإنسانية الجسدية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، من الناحية الحيوية فوحدة البناء هى الخلية ولكنها تتنوع وتختلف من عضو لعضو داخل الجسد،

فالخلية واحدة ولكنها تطوع حسب وظيفتها فى كل عضو فمثلاً الخلية فى الكبد تختلف عن الخلية فى الكلى وهكذا. ومن حيث القاعدة الإنسانية المعنوية فالشعور والفكر والإرادة والاصرار هي البنية الأساسية للجسم المعنوى المكمل للجسد المادى، ولكن يختلف الفكر من فكر متفائل إيجابيي يمتد من الأمل والمحبة والتفاؤل إلى فكر سوداوى كالحقد والكراهية أو السلوك الترددى وهكذا فالوحدة ثابتة ولكن تطوع من الخالق حسب الوظيفة المطلوبة منها.

تشبه الخلية في تركيبها مدينة تحتوي على كافة متطلبات العيش والعمل. فهناك محطات لتوليد الطاقة ومصانع لإنتاج الآلات ومخازن لخزن هذه المنتجات إلى وقت الحاجة، وأنابيب لنقل هذه الاحتياجات عند الضرورة، وكذلك هناك مصاف ومختبرات. فالخلية تحتوي على تراكيب تؤدي وظائف مثيرة بدونها لا يمكن للحياة أن تستمر. ولكن ينبغي ألا ننسي أن حجم الخلية لا يقدر بالكيلومترات مثلما هو الأمر في المدن، فحجم الخلية لا يتجاوز واحدا في المائة من الملّيميتر تقريبا.

وحياة الإنسان مرهونة بمحرابه الإنسانى الداخلى الذى لا يراه ومع هذا فإن هذا المحراب الداخلى الذى لا يعلم عنه الإنسان نفسه إلا القليل والقليل جداً يؤمن الحياة المادية الحركية والفكرية والشعورية لهذا المخلوق الذى كرمه الله وجعله خليفته فى أرضه. ومن منا رأى الروح ولكنه يعلم أنه إذا كان هناك أجل فهو يعلم أنها معه بإرادة من الله وليس بإرادة منه، فهو يعيش حياة الغيب التى يشوبها الظاهر. وهذه حقيقة لابد أن تعترف بها عزيزى القارئ فمن منا يرى داخله أو يرى عينه التى يرى بها؟ إن الإنسان نفسه كله غيب من داخله وخارجه اللهم بعض الجلد السطحى لمنطقة البطن والأطراف فقط.

ولابد أن نعرف ونلم بأن الحياة مصدرها الروح وليس الجسد وبالتالى فدالة الروح ديناميكية الجسد، ودالة الروح أيضاً الشعور والإدراك والوعى والإصرار. فهل أنت تعلم شيئاً وأنت نائم؟ فالجسد الإنسانى مادة غير مدركة ولكن الإنسان وبه الروح هو هذا الكون الممتد التى تخدمه ترليونات الخلايا المتنوعة وتيارات الكهربية والطاقة الداخلية وملايين ملايين

العدسات والكاميرات والكومبيوترات والصور الذهنية المتغيرة والمتنوعة نسبة للمدركات والمكتسبات والموروثات أيضاً. إن الإنسان هو مجرة متحركة هى كون بذاته يحبو فى طريق يسره خالقه له.

ونأتى للوحدة فى كوكب الأرض وهى النهار والليل مثلاً، وثبت علمياً أنه لا يوجد ليل مثل الآخر أو شبيهه طول عمر الأرض ويكون اختلاف الليالى فى درجة الحرارة والرطوبة والرياح والمطر ونسبة أضاءة القمر، وزاوية دوران الأرض بالنسبة للشمس. هذا الإختلاف يؤثر بطريقة مباشرة وغير مباشرة على السلوك النفسى والمادى للإنسان. والصحراء وحدتها هى حبة الرمال التى تختلف من صحراء لصحراء، فحبة الرمال وهى تتكون عموماً من مادة السليكون ولكنها تختلف من صحراء إلى أخرى وداخل كل الصحراء تختلف كل حبة رمل عن الأخرى، وتلعب العوامل البيئية فى تغير مثل هذه الحبة. كل ما ذكرنا سابقاً هى أمور مادية ملموسة تشوبها الوحدة ويتوالى عليها التغير ولكن.....

ما هي وحدة الرياح؟ وللعلم عزيزى القارئ هى اساس الحركة الديناميكية والطقس فى المحيط الهوائى الذى يؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة على الغلاف المادى فى الأرض سواء الحى منه وغير الحى. وبالرغم من الاختلاف فى السرعة والاتجاه والضغط الجوى المصاحب وكون الرياح ممطرة أو لا، بداية من النسيم الدافئ مروراً بالرياح المتعددة القوة والاتجاه وتنتهى بالأعاصير المدمرة والتى قتلت حتى الأمس ٢٥٠ شخص بأمريكا فى ٢٠١١/٤/٢٨. ولكن مرة أخرى ما هى الوحدة الأساسية للرياح التى تؤثر على حياتنا اليومية، ثم نؤمن بوجود الرياح ونحن لا نرها.فالرياح هى قوة غيبية غير مرئية تؤثر على الحياة المادية بصورة عامة. بل تستطيع أن تحمل أطنان الحديد (الطائرات) خلال مساراتها، فكيف نأتمن ما لا نراه على ما نراه. وفى الأعاصير تحمل الرياح العاتية معا البيوت وتقتلع الأشجار من الأرض أنها قوة هائلة ولكن غير مرئية ولكن دالة وجودها هى الحياة. وهل تستطيع أن تدرك أيها الإنسان أن السعال يسبب ضغطا هوائيا انفجاريا، وبالتالي يؤدي إلى إخراج ما مرّ عبر القصبة الهوائية. وتصل سرعة إخراج

الأجسام الغريبة من القصبة الهوائية أحيانا إلى ٩٦٠ كيلومترا /ساعة. وإذا قارنا هذه السرعة مع أسرع سيارات السباق التي تبلغ سرعتها ٢٦٠/٢٥٠ كم/ساعة ندرك مدى كمال صنعة أجسامنا والأنظمة الدفاعية التي تعمل داخلها لحمايتنا.

الفصل السادس

كونية الإنسان

مـــن الفـــراغ الكـــوني بصـــيت أنـــا علي بعد مليون ميل من أرضنا

و لا شفت فرق ما بين عذاب أو هنا لا شفت فرق بين جبال و بحور

عجبي!!!

صلاح جاهين

مقدمة :

تراودني هذه الفكرة وأنا أتعمق في تأمل نفس الإنسان وفهمها؛ أتأملها والنسيج الاجتماعي وأتأمل الكون. وفي هذه التأملات الثلاثة أتسائل: كيف يمكن أن يكون الإنسان كياناً كونياً شاملاً؟ ولا يدهشني أبداً أن تكون الإجابة بشمول الكون، وشمول الحياة، فى الكيان الإنسانى، الذى يضم أيضاً المادة والطاقة والوعي و الإدراك. فإذا كانت الحقيقة السامية والشمولية من خلال أنْسَانَيته والمتفردة فى كونيته، فهى أيضاً المبدأ الفاعل في الكون بصفة عامة وفي الكوكب الأرضي بصفة خاصة. فالقضية الرئيسية التي تكشف عن ذاتها في سؤال يوجِّهه كلُّ ذي عقل مفكِّر نيِّر: كيف توجد الكثرة في الوحدة؟ وكيف تتجلَّى الوحدة من خلال الكثرة؟ وباستطاعتنا أن نوجزها في موضوعات أو مقولات ثلاث:

١.سلسلة الوجود الكبرى

عندما ننظر إلى الكون نظرة فاحصة، تأملية وعقلية، تتراءى لنا حقيقة، عميقة في سرِّها وكينونتها، وممتدَّة في ذاتها إلى مالا نهاية له. وتبدو هذه الحقيقة في تجلِّيها كأنها سلسلة مُحكمة، تبدأ من الأدنى وتنتهي في الأعلى منغلقة على ذاتها في دائرة لتشكل دائرة، أو حلقة دائرية، ينغلق فيها الوجود على ذاته. وتحدث عملية التدرج فى الأرتقاء بتماسك حقيقي واتصال لا يعرف الانفصال، بحيث يعبِّر خلال هذا الارتقاء عن كلُّ ظاهرة و وجودها بالأخرى. يدلُّنا هذا التسلسل الذي لا يعرف الانقطاع، في أية حلقة من حلقاته، على أن الوجود وحدة متراصَّة في كلِّ عناصره، وفي ترتيباته المنتظمة التي تنطلق من متعضِّياته الأدنى لتصل إلى الإنسان، وفي تنظيماته أو مستوياته الكونية المادية، لتنطلق من أصغر ما في الكون إلى أكبر ما في الكون. ويدلنا هذا الوضع على وجود كثرة في وحدة، وعلى وجود وحدة من خلال الكثرة.

٢. اللاتنوع والتنوع

ولقد اتفاق علماء الفيزياء على أن كل المعلومات الكونية موجودة ومحتواه داخل كل ذرة فى هذا الكون. إن العلماء يعتقدون أن جميع الأشياء قد انطلقت من حالة لاتمايز متجانسة عُرِفَت بأنها عجين، أو دقائق أو حبيبات متناهية في الصغر، أتت منها الخمائر المتنوعة لتشكل الأنواع المختلفة والمتعددة. فكلُّ ما نراه في الكون، وعلى الأقل على كرتنا الأرضية هذه، ليس إلا عجيناً واحداً، أو خلية واحدة، مادة أولية تمايزت إلى عدد كبير جداً من الموجودات عُرِفَت بالأنواع. وإذا كانت هذه التمايزات الظاهرية العديدة قد انبثقت من حالة لامتمايزة، لكنها متجانسة، لتعود وتلتقي في الإنسان بعد مرورها عبر التمايزات العديدة، فإنها تُتَضمَّن في حقيقة واحدة تُعرَف بالكثرة في الواحد.

٣. الأصل ليس الحجم

إذا كان الوجود، في أكبره، أو في لانهايته الكبرى، يشتمل على ذاته في لانهاية صغرى فكلُّ ما نراه في الكون الأكبر نراه أيضاً في الكون الأصغر: لا شيء في النظام الشمسي إلا ويوجد في الكلِّ الصغير. هنا نتساءل: ما هو الكون الأصغر؟ هل هو جزء من هذا الكل؟ أم هو الكلُّ المنغلق أو المنطوي على ذاته في حركة داخلية، كالنقطة التي هي تصغير الدائرة، أو انغلاقها على ذاتها؟

فلقد خلت أركان الكون من ثلاث حالات هي السكون، والمادة المنعزلة، والفراغ المطلق. وهناك علاقات ديناميكية مستمرة بين أجزاء الكون. فلا يُعَدُّ أصغر ما في الكون جزءاً، بل اختصار لما هو أكبر وتلخيص له، وذلك لكي تتم عملية الحياة. والحق أن هذه العملية لا تنقسم، بل تتقلص إلى حدودها الدنيا. فكلُّ ما يقع بين هذا الحدِّ الأدنى من الوجود – الكون الصغير، عالم الصغير – وبين الحدِّ الأكبر والأعلى – الكون الكبير، عالم الكبير – هو سلسلة الوجود الكبرى التي تنتظم في مراتب متلاحقة ومتماسكة ومتجانسة، تتنوع ضمن حقيقة واحدة.

في المادة الأولى، أو الخلية الأولى، ينطوي الكون على ذاته كما ينطوي الإنسان في خلية داخل رحم أمه، وكما تنطوي الشجرة في بذرتها. ومن بعدُ تنتقل هذه الخلية إلى حالة التمايز إلى شتى الأنواع. عند هذا الحد يبدو الوجود وكأنه تنوع أو تشتت غير محدود؛ لكنه، بعد مسيرة طويلة، تبدأ الأنواع في عملية جديدة، هي سيرورة لقاء أو تلاقٍ، أو عملية تضييق على تمايزاتها، فتسير باتجاه المزيد من التلاقي، لتجتمع أخيراً في الإنسان. هكذا يعود الكون، مرة أخرى، ليلتقي في الإنسان بعد أن عرف حالة التمايز والتنوع.

ولما كانت الكرة الأرضية منحنية، أي دائرة مغلقة، فإن التلاقي في الاجتماعية أمر محتَّم وضرورة وجودية كبرى. فالأنواع تلتقي بالفكر، وتتصل الحضارات بعضها ببعض، وتتنامى العلوم وتتطور، وتتحسن طرق المواصلات والمعلومات والنقل، ويزداد العالم الأرضي تلاحماً، وكأن شعوراً واحداً يحتويه، أو كأن روحاً واحداً يُحييه، وذلك في سبيل تكوين نطاق اجتماعي يلتقي فيه الإنسان مع الإنسان. وهكذا يعود التمايز النوعي إلى الالتقاء في إنسانية الإنسان واجتماعيَّته، وتسير الكثرة النوعية إلى غايتها التي تُعرَف بشمول أرضي كوكبي، ليحقق لقاء الإنسان مع الإنسان.

رحلة تكوين جنين

يحتوى الإنسان على ٢٢٠ نوعاً من الخلايا، ولكن الجسم يحتوى على مليارات الخلايا. وعندما يرتبط رجل بامرأة فهنا يحدث تجاذب بين عالمين متنوعين فى الموروثات والمكتسبات العقائدية والعلمية والبيئية والاجتماعية والأسرية. ويحدث التلاقى الفيزيقى بين العالمين (المرأة والرجل) حيث يتلخص هذا العالم من التنوع كأب أو أم لينتج خلية جنسية. وكل خلية منهما تحمل نصف التراكيب الوراثية للأب والأخرى تحمل نصف التراكيب الوراثية للأم. ويأذن الخالق لتستضيف الأم فى رحمها هذه البويضة المخصبة كاملة التركيب الوراثى ولكن من أصل الأب والأم معاً. بمعنى أن هذه الخلية الغير مرئية تحمل داخلها تراكيب وبرامج وشفرات بل وبيئات تسمح بحدوث انقسامات متتالية فى صورة متناهية الدقة فى المكان

والزمان والعدد والنوعية والحجم. كل ذلك يتم فى ظلام حالك وتأتى الروح من الخالق لتتوج هـذه المعجـرات ويبـدأ فـى تكـون السـمع والبصـر والمـخ ويتولـد الادراك الأولـى للجنـين. أنهـا سلسلة من التنوعات والمعجرات تنتهى بهدية للأبوين وهى جنين وطفل يزيد الترابط المادى والمعنوى بينهما.

والطفل هو امتداد للأبوين وليس صورة طبق الأصل لهما. فهو نسيج ديناميكى حى يشـمل كـل المورثـات والمكتسـبات لكـل مـن الأب والأم. فالطفـل ثمـرة التكامـل الإنسـانى بـين الرجـل والمـرأة. بـل إن الطفـل يكـون بمثابـة نـوع مـن أنـواع الارتقـاء الإنسـانى وخاصـة المعنـوى والحسى بالنسبة للأب و الأم، وهذا الارتقاء يشمل صورا من التكامل على المستوى الأسرى ككـل والمجتمعى أيضاً. وينمـو هـذا التكامـل ويتطـور ليشـتمل على الأسـرة والمدرسـة والجامعـة والمجتمـع. فالتكامـل يبـدأ بـين مكونـات الخليـة الواحـدة ثـم بـين خلايـا العضـو الواحـد ثـم بـين الأعضاء المختلفة ثم بين الأفراد والمجتمعات والشعوب والدول ثم بين المجرات.

الخلية والإنسان

الخلايا ليست كائنات مثلنا نحن، وهي لا تستطيع أن ترى بعضها البعض ولا أن تسمع ولا أن تقـرر، فهـي عديمـة العقـل والبصـر و السـمع، ولكنهـا كمـا سـنرى لاحقـا تسـتطيع تمييـز المركبات الكيميائية، والحال أنها لم تتلق أي تعليم في مادة الكيمياء. فهي تستطيع إنتاج المواد المختلفة نسبة إلى هذه المركبات الكيميائية، وكذلك تستطيع تمييز هذه الظواهر الفيزيائية وهي كـذلك لـم تتلـقّ أي تعليـم في مـادة الفيزيـاء. وبـالرغم مـن ذلـك تقـوم هـذه الخلايـا بتعيـين نسـبة الضوء الداخلة إلى العين، وبالتالي تمكّننا من رؤية الأشياء. ونحن نسـأل أنفسـنا كيـف تسـتطيع هذه الخلايا إنجاز جميع هذه الوظائف؟

الشبكة العملاقة التي تلف أجسامنا

هل حصل وسألت نفسك عزيزى القارئ الأسئلة التالية:

- هل ينبغي عليّ التنفس الآن؟

- هل أنّ الدم الذي يضخه قلبي ذو مقدار كاف بالنسبة إليّ؟
- ما هي كمية الطاقة التي تحتاجها أية خلية أو عضو في أجسامنا؟
- متى تبدأ معدتي في هضم الطعام الذي تناولناه؟
- ما هي العضلات التي ينبغي أن أحركها كي أحقق حركة ذراعي؟

ربما بدت هذه الأسئلة غريبة بعض الشيء على أسماعنا لأنها أسئلة عادة ما تكون غير واردة في أحاديثنا، بل إن أغلبنا لا يعلم شيئا عن هذه الأفعال التي تجري داخل أجسامنا لأن أجسامنا تنجز هذه الأعمال بصورة تلقائية. ولأجل قيام أجسامنا بهذه الوظائف أو الأعمال تُستخدم الشبكة العصبية التي تلف أجسامنا، وتتألف هذه الشبكة من اتصال تريليونات من الخلايا العصبية. ويمكننا تشبيه هذه الشبكة التي تلف أجسامنا بشبكة من الطرق البرية السريعة. وبواسطة هذه الشبكة يتم تحقيق الاتصال بين خلايا المخ و خلايا سائر أنحاء الجسم، وبالتالي تستطيع كافة خلايا الجسم تحقيق الاتصال فيما بينها. غير أن هذه الشبكة العصبية تختلف عن شبكة الطرق البرية باحتوائها على عدد هائل من نقاط الارتباط والمنعطفات، و هي كذلك تتميز بكونها ذات أطوال تقدر بكيلومترات عديدة. ومثلما تتحرك السيارات أو المركبات على الطرق للانتقال من منطقة إلى أخرى تتحرك الإشارات العصبية متنقلة بين أجزاء الشبكة العصبية، وتقوم هذه الإشارات بنقل المعلومات والإشارات العصبية من منطقة إلى أخرى داخل الجسم.

ويتميز انتقال هذه الإشارات العصبية بسرعة مدهشة بحيث يصعب علينا تخيلها. وعلى سبيل المثال لو أردتم تقليص عضلة الذّراع، فعندئذ تصدر إشارة عصبية من المخ متبعة طريقا شائكا، إذ تصل إلى العمود الفقري، ومن ثم تتوجه إلى العضو المناسب بسرعة هائلة، وبالتالي تبدأ عضلة الذراع في التقلص. وكل هذه الأعمال تحدث خلال جزء من الألف من الثانية. وإذا افترضنا أن رمشة العين تحدث خلال ثانية واحدة عندئذ نعرف مدى قصر الفترة الزمنية التي تحدث فيها العملية المذكورة. ويبين لنا المثال السابق أن الإشارات تصل إلى كافة أنحاء الجسم بواسطة الشبكة العصبية، ويبين لنا أيضا أن الإشارات العصبية بدورها تصل من كافة أنحاء الجسم إلى المخ بواسطة الشبكة نفسها. وتتدفق هذه الإشارات إلى المخ بسرعة هائلة

دون توقف، أي أن هذه الإشارات تجري داخل الشبكة فتمكننا من أن نعيش حياتنا بصورة طبيعية. فعندما نرى شيئا أو نتذوقه أو نتناوله، وكذلك عندما نتكلم أو نفكر أو نجري أو عندما نمارس أي نشاط آخر يحدث كل ذلك بصورة فورية بمساعدة الشبكة العصبية، أو بالأحرى بواسطة التكوين المذهل للمخ والجهاز العصبي.

ومستوى نشاط المخ من الناقلات العصبية مثل الدوبامين والادرنالين من الممكن أن يكون سبب هذا. الأخطاء في تقدير الوقت من الممكن أن يكون سببها اختلاف مستويات الناقلات العصبية في المخ. فعندما يجلس رجل بجانب امرأة جميلة لمدة ساعة تبدو له كأنها دقيقة، وعندما يجلس فوق موقد ساخن لمدة دقيقة تبدو له كأنها ساعة. وهنا تتلخص نسبية الوقت بالنسبة للفرد. فالزمان هو طاقه متحررة معنوية ثابتة التغير بالنسة للحركة خلالها وعلى العكس فالمكان هو الشئ الذى تكمن فيه الطاقه الكامنه غير متحررة.

الجمال فزورة

نأتى للإنسان فهل يكون الجمال في المرأة ذات الشعر الأسود أو الأحمر أو الأشقر أو الرجل الطويل أو القصير أو الطفل ذو العين الزرقاء زرقة المياه أو زرقة السماء أو ذو الجلد الأبيض ناعم الملمس أو ذو الشعر الحرير أم ذو الشعر الخشن. والواقع يؤكد فى جميع الأحوال إن الحياة ليست مجرد مادة مندفعة لتوكيد ذاتها وفرض سيادتها على البيئة وإنما هى تتضمن الجمال كشخصية تضفى قيمة معنوية عالية. فالجمال مرتبط بالذات والروح هى صفة الجمال ذو الكمال ولذا لزم تضامن كل من الشخصية المادية بالشخصية الجمالية للوصول لنوع من أنواع الشخصية التكاملية الطالبة لنوع من أنواع الكمال.

فالمنظر الجميل يخطف عين الإنسان، والوجه الجميل يخطف قلبه، والموسيقى الجميلة تغمره بالنشوة والطرب وتأسر حواسه. فما معنى الجمال؟؟ ودعنى أسوق مثلاً فالسبورة السوداء أنفع للطالب فى التعليم الأساسى عن اللوحة الجميلة إلا أن اللوحة تغذى النفس المدركة لهذا الجمال بنسب متباينة. وحبة القمح أنفع من اللؤلؤة ومع ذلك فاللؤلؤة أجمل، إذاً

فالسر ليس المنفعة .... والأخلاق مهما بلغت من السمو لا تستطيع أن تجعل من المرأة القبيحة ملاكاً إنها تصبح جميلة فى عين العقل وحده...والجوارح هى المرجع، والأرشيف يحتوى على مراجع الجمال وأصول الفتنة، وهى التى تحتوى على شفرة العلاقات الجمالية كلها... ومشكلة الفنان هى فى محاولته الدائبة لاكتشاف هذه الشفرة والتعرف على هذه العلاقات. وفى النهاية أقول أن الإنسان هو شخصيات مادية جمالية جوارحية عقلية ونفسية فى صورة تكاملية.

التواصل الإنسانى مع الكون

الإنسان فى حالة تفاعل و احتياج مستمر بما هو محيط. ففي جسمه يتم اللقاء بينه وبين الكون في عملية مباشرة، في تواصل مباشر. إنه يتحد مع الكون المادي من خلال طعامه وشرابه وتلاؤمه مع البيئة؛ ذلك لأنه يشكل مع الكون المادي كياناً واحداً؛ ويتحد مع الغلاف الغازي في تنفسه ويتفاعل معه؛ ويتحد مع النور والحرارة والأشعة الكونية الأخرى؛ ويتحد مع الإنسان في أنواعه الإنسانية العديدة ليمتد في نفسه، وفي صورتها الاجتماعية والكونية، إلى ما لا نهاية له. ويفكِّر الإنسان في وجوده وحقيقته، وهو يتأمل الكون في كلِّيته وشموليَّته، ويسعى إلى توطيد اتصال جواني معه. وهكذا يكون الإنسان هو النقطة – الشبيهة بنقطة الدائرة حيث تلتقي الدائرة كلُّها – أو البؤرة التي يلتقي الكون كلُّه فيها، والمجتمع الإنساني كلُّه أيضاً. لإستمرار الإنسان مرتبط باستمرار المحيط فديناميكا الإنسان تستمر وترتبط بديناميكا الطبيعة المحيطة.

المطلق والنسبى

«المطلق» هو التام والكامل؛ فهو لا يحده حد؛ واجب الوجود؛ المتجاوز للزمان والمكان. أما النسبي، فهو ما يُنسَب إلى غيره ويتوقف وجوده عليه ولا يتعيَّن إلا مقروناً به. وهو مُقيَّد وناقص ومحدود، مرتبط بالزمان والمكان ويتلون بهما ويتغيَّر بتغيرهما، ولذا فالنسبي هو نسبى نسبى، داخلى وكذا نسبى خارجى، حتى فى ظل ثبات المحيط الداخلى فهو يرى ويتحسس من خلال نسبيته وليس من خلال المطلق المحيط. أما النسبية المطلقة فهى تؤدي

إلى العدمية لأنها تنكر وجود أي تميُّز أو اختلاف، أو مقدرة على إصدار الأحكام، الأخلاقية أو المعرفية أو حتى الجمالية، أو على تغيير العالم أو على إصلاح الذات أو على تجاوز المعطيات الواقعية، الطبيعية/المادية، ولذا فهي تنتهي بإنكار كل شيء: الأخلاق والميتافيزيقا والكليات والإنسان .

الأصل فى الإنسانية النسبية

إن الله جل شأنه قد أودع فى الإنسان طاقات خلاقة، وأودع فى الكون مغاليق أسراره، وأرسل رسله بمفاتيح أنواره. إن المادة يحتويها الفراغ كما تحتوى الرئة الهواء المحيط، فهل يحتوى الإنسان ما هو محيط به أم أن المحيط هو الذى يحتوى الإنسان، فالمادة هى دالة وجود الفراغ فهى جزء منه. وإذ كان ذلك كذلك فهل نسبية القدرة الحركية للمادة فى المحيط تحكمها المادة نفسها ام ما هو محيط بها؟

لا يوجد مطلق فى الكون إلا الخالق وأى شيء آخر فهو نسبى بالنسبة لكل إنسان بل للإنسان الواحد حسب الحالة المزاجية له. فالأصل هو النسبية، وعلى سبيل المثال، يمكن أن تحب أن تسمع أغنية فى وقت ما وفى حالة مزاجية معينة ولكن ممكن أنك لا تحب سماعها فى وقت آخر وحالة مزاجية أخرى. والإنسان المحب للخير والواعى للمحبة فى الله يكون محباً لكل مخلوقات الخالق الحى منها وغير الحى (الصخور والرمال)، ولذا تجده محباً للإماكن الجميلة ولكن الشخص ذو التفكير والسلوك السلبيى يضفى السلبية حتى على الأماكن الجميلة، فما يراه فى صوره الدماغية لما يحيط به يختلف على ما هو موجود من جمال بالفعل. فكل إنسان خلق من أجل التعاون والتكامل، ونسبية تعاونه مع الأخر تضفى عليه الحب والمحبة والسلام النسبى وهذا كله نسبى للمتلقى ونسبى للقائم عليه.

حتى الموت نسبى، وأوضح لك عزيزى القارئ كيف يكون الموت نسبياً؟ فالإنسان الخير ذو السمعة والذكرى الطيبة يظل حياً بين الناس يتذكرونه ويترحمون عليه. والعكس بالعكس، كما أن الأعمال الطيبة والصدقة الجارية ومحبته للناس وخدمته للمجتمع المحيط

والمجتمع الدولى والكونى يكون بمثابة الحبل السرى الذى يغذى ذكرى هذا الشخص على مر العصور. فالإنسان المعطاء يكون الموت بالنسبة له هو فناء الجسد ولكن تبقى الذكرى، أما الشخص الغير معطى تتوفى ذكراه قبل أن يتحلل جسده فى مدفنه. والإنسان بولادته يكتب اسمه فى سجل الموتى.

وللتأمل أهمية في الحياة، ويعرّف التأمل بأنه القدرة على أن تسخير الفكر الواعى للإنسان لكى يرضى ويكونَ فى حالة سعادة. وحرية، كسعادة الطيور في تحليقها وبالتالى فى حالة محبة ورضى.والعكس بالعكس حيث أن الإنسان الذي هو في حالة نفسية بائسة وتفكير سلبيى،تكون معظم حواسه معطلة يعيش في حالة تجمّد، متشبثاً بعقائد جامدة فارغة من الروح والحب، تعيقه عن التواصل الحقيقي مع الناس.

إن الإنسان فى ذاته فى حركة ديناميكية مستمرة، فيترك أفكاره السلبية تتساقط كما يتساقط الورق اليابس عن أغصان الأشجار، بل ويزيل الصدأ عن أفكاره وأحاسيسه، ويفتح مسامه لنور الحقيقة.فالأصالة الحقيقية والفطرية الكامنة في نفوسنا، والتي تميل للسلام والمحبة والتكامل مع الغير يمكن أن تكون قد ضيّعت بسبب الضغوط الهائلة على الإنسان لهذا الزمن، وبسبب الخوف والتطلع لأشياء كثيرة بحجة أشباع رغبات ملحة تفوق مهارته المكتسبة والمورثة وبالتالى يلجأ لاساليب ملتوية قد تؤدى لاشباع جزئ لرغباته ولكن على حساب الإدراك الحقى والواعى لإنسانيته.

حتى الرغبات والاحتياجات هى فى حد ذاتها نسبية للشخص الواحد بل للناس ككل فالطفل الرضيع يحتاج لأمه، والشاب المراهق يحتاج لحبيبته والرجل يحتاج للزوجة وكذا البنت تحتاج لحبيب وتحتاج لزوج مع انغماس الأنفس للاحتاجات الفسيولوجية الحياتية والأحتياجات الأمنية والأجتماعية، ويتأجج أحتياجه كل يوم للأحتياجات الروحية والتى تكسبه السعادة الدائمة غير الزائفة.

والحياة، هدية من الخالق، كذلك الولادة والحب والموت هدايا، إذا عرفنا كيف نكون شاكرين حامدين لله. فكل شيء يتحول إلى هدية، وهناك آخرون يفتقرون إلى الإحساس بالشكر، ومن الناس مَن يُدين الآخرين دائماً ويتذمرون ويطلبون المزيد والمزيد. بينما النوع الأول فقط، هو الذي يصبح ورعاً وشكوراً. على عكس الثاني الذي لا يستطيع ذلك، لأنهم إتّكاليّون ويظنون أن الله يجب عليه أن يلبي كل طلباتهم، ولذلك، يجدوا فى التفكير السلبيى الملاذ الأول لهم، حيث يشعرون دائماً هؤلاء أنهم مكبوتون، وأن كل ما يحدث باطل ومخادع، ولا شيء يملأ قلوبهم بالرضى.

الزمن الإنسانى

إن الزمن هو (التغير)، والسبب في شعورنا بانسياب الزمن هو الانتظام الكامن في الطبيعة الذي يظهر في صورة انتظام للحركة. ويكون مقياس الزمن لجسم ما هو معدل (تغيره) منسوبا لتغير جسم آخر منتظم (كدقات الساعة مثلا). وتخبرنا نظرية النسبية العامة بأن الزمن الخاص بالجسم (أي معدل تغيره) يكون أبطأ إذا تحرك بسرعة أكبر أو إذا تعرض لمجال جاذبي قوي، أي إذا تأثرت طاقته الكلية. وذلك في حين تخبرنا النظرية المعيارية للذرة أن مكونات الذرة، (وبالتالي كل الأجسام) تتراوح ما بين الحالة الجسيمية والحالة الموجية. فإذا كان الزمن الخاص بالجسم هو معدل تغيره، فإن الارتباط بين طاقة الجسم ومعدل تغيره، كما تخبرنا نظرية النسبية العامة، يكون أمرا مقبولا. كما أن تأثر المسافات داخل الذرة (وبالتالي طول الجسم) بتغير طاقة الجسم يكون أمرا مقبولا أيضا.

إن كل دقة من دقات الساعة تقول لصاحبها الزمن يمر والعمر يقل فكن يقظاً. وبالتالى فالزمن الإنسانى يشمل الزمن الميقاتي بالأضافة إلى الزمن النفسي: فالزمن الميقاتي ـ محدد طبيعي – يلزم استمراره تتابع انتهاء الآنية الحالية ومولد آنية تالية، وبالتالى فهو له بداية ونهاية،أما الزمن النفسي – نسبي – إحساس متغير بالبداية والنهاية. ومن هنا نلاحظ أن الزمن النفسي أو الزمن السيكولوجي يتغير قياسا إلى إحساسنا بالأشياء وبذلك يمكن أن يكون سبيلا

إلى الزمن المطلق الذي لايحده زمان ولامكان ويمثل الجوهر الذي تقاس به الأشياء أي تنسب الأشياء إليه. فالزمن الإنسانى الحاضر هو حاضر مستمر بالنسبة لاناس متتالين فى الآنية وبمعنى آخر فحاضر الجد هو ماضى الأبن والمستقبل البعيد للحفيد، فالزمن الإنسانى هو زمن نسبى للشخص الواحد بل ولكل شخص على حده. فالوقت أثمن وأغلى قيمة من الذهب والفضة لأنه سوف يقتطع من الأعمار فما مضى من العمر فهو إما لك أو عليك ولن يعود.

فإذا اقتصر تصورنا على أن الزمن ليس إلا تعبيرا عن قياس معدل التغير لجسم ما أصبح واضحا أن هذا التغير لا يمكن الحديث عنه بعد حدوثه كأنه موجود يمكن الذهاب إليه (في الماضي). ولا يمكن أيضا الحديث عنه باعتباره موجودا في المستقبل وأننا يمكننا الذهاب إليه. والسبيل الوحيد للحديث عنه هو باعتباره معلومات محفوظة في الذاكرة لا تتمتع بأي وجود، مستقل لا في الماضي ولا في المستقبل. فواقع ان (التغير) في ظروف معينة يمكن أن يكون أسرع منه في ظروف أخرى لا يعني أن الانتقال من هذه إلى تلك ثم العودة يعني السفر إلى المستقبل إلا بمعنى مجازي. فالسفر على متن سفينة فضاء تسير بسرعة تقترب من سرعة الضوء ثم العودة إلى الأرض بعد أن يكون قد مر عليها عشرة آلاف عام مثلا لا يعني سوى أن التغير على متن السفينة أبطأ منه على ظهر الأرض بهذه الفترة. والسبب في وجود هذا النوع من التصورات (مثل السفر إلى الماضي والمستقبل) والمرتبطة بالنسبية العامة، هو أن النسبية العامة نظرية مرتبطة بظواهر الأجسام فقط، وليست مرتبطة ببنية وجودها المادي، كما هي الحال في نظرية الكم. فنسبية الزمن هي (ظاهرة) ولكن سببها المباشر المرتبط ببنية الوجود دون الذري لا يزال مجهولا، وذلك بسبب غياب النظرية الموحدة للكم والجاذبية وبسبب غياب هذه النظرية تسود نظريات الخيال العلمي والتي لا ترقى لأن تكون نظريات علمية تجريبية، وبسبب غياب هذه النظرية أيضا تختلف الآراء بين العلماء.

رؤية فلسفية للوقت

في قاموس (أوكسفورد) الإنجليزي، نجد أن الوقت هو:

"التقدم المستمر وغير المحدَّد للوجود وللأحداث في الماضي والحاضر والمستقبل كمنظومة واحدة". وقديماً قيل أن الوقت هو وسط لحدوث القدرة الإلهية. وسعى الكثير من الفلاسفة القدماء لتفسير وتعريف الوقت، وكان معظمهم يؤمن أن الوقت هو الجوهر الذي حوله تقوم الحياة. ولا مفر لأي عالم يريد أن يقدم شيئا متميزا في الفيزياء من أن يصطدم بجدار يجده في طريقه مكتوب عليه سؤال "ما هو الزمن وما هو الوقت". ولعل الذين ارسوا دعائم الفيزياء التقليدية غاليلي أولا ثم لايبنز ونيوتن قد أجابوا عن هذا السؤال بأن اكتفوا في تطبيقاتهم العملية بالتعامل مع الوقت الميقاتي المعهود الذي عهده عامة القوم. غير أن نيوتن وجد ما توصل إليه بياجيه في حقل الرياضيات وعلم النفس بأن السرعة هي الأساس وما الوقت إلا ظل السرعة. فقد توصل بياجيه إلى أن العقل الإنساني في طور النمو وفي مرحلة الطفولة المبكرة يدرك التعاقب ويدرك بالتالي السرعة أكثر من إدراكه للوقت بشكل مستقل. أما آينشتاين فقد اعتبر أن سرعة الضوء هي المقياس الذي يمكن اعتماده لقوانين الفيزياء النووية. والحقيقة أن الفيزياء ما بعد الكوانتية وأعني بها الفيزياء التي تتبنى نظرية الوتر قد اقتربت لفهم الظواهر الفيزيائية ما دون الذرية من الفلسفة المحضة أو الفلسفة المجردة.

صرح علماء الفيزياء الحديثة أنهم في بحوثهم حول الظواهر ما دون الذرية قد ولجوا باب الفلسفة، وأنهم أصبحوا مضطرين إلى التعامل مع الظواهر المادية – الطاقية على أنها ظواهر لا يمكن لهم أن يقرأوها إلا بمساعدة طريقة التفكير الفلسفية. والحال أن الفلسفة منذ كانت في المهد قررت أنه لا مناص لفهم الظواهر الفيزيائية والميتافيزيائية إلا من خلال الخروج من الوقت الأرضي ومقتضياته والدخول إلى باب المعنى، لذلك كانت مفرداتهم الأساسية هي الوجود والماهية والسببية. وفي هذا الفلك ما يلاحظه الملاحظون من أن الفلسفة قد ارتفعت منذ نعومة أظفارها فوق ذلك الجدار، حتى أنهم لم يلحظوا ذلك المكتوب وتركته للأرضيين من الناس.

الوقت

إن الوقت هو وعاء يحتوى الأحداث المادية (اسلفر، الحوادث المؤلمة) و الأحداث

المعنوية (الحب، العاطفة، الحزن، الفرح)، مع العلم أن مادية الأحداث أو معنوياتها تعتمد على رؤية المسبب لها. وبالتالى فالوقت وسط يلتقى فيه الفعل والفاعل والمكان بأبعاده. والأحداث تتولى على المستوى الوقتى وليس الزمنى. فالوقت يمتاز بالذاكرة المليئة بالأحداث وبالتالى بالظروف الوقتيه من حاضر وماض ومستقبل وهى أيضاً من وجهة نظر المسبب ووجهة نظر المستقبل. فالمسبب دائماً يكون حدثه حاضراً له وفيه وبه كأدراك واع ثم أرداك غير واع مستمر ومتتالى. فمثلاً وفاة طفل بالنسبة للأسرة هو فعل حاضر مادى ولكن بمرور الوقت يكون الحدث معنوياً يرتبط بمدى حب الأسرة لهذا الطفل.

وهنا لنا سؤال يطرح نفسه عليك عزيزى القارئ وهو هل تبقى الأحداث مادية فى وعاء الوقت أم تتحول لصفه الحدث المعنوى أم تنتفى الأحداث بإنتفاء المسبب لها؟ فلو أمكننا السفر عبر الوقت يمكن نرى من خلال ذاكرة الوقت الأحداث التى تمت بمسببيها وتكون كفلم سبق تصويره أم سنسمع بها كحادث معنوى أم لا نرى أداث الماضى وتكون الذاكرة الوقتيه ذاكرة سببيه فقط. فبناء الأهرامات هى احداث مادية باقيه، أما أصحاب وملوك الأهرامات فهم أحداث معنوية، أو كما يقال أصبحوا ذكرى فقط. وبالتالى فالأحداث تولد مادية وتصبح وتكسى بالصفة المعنوية بدخولها حيز الماضى للمراقب لهذه الأحداث.

فالوقت ليس له أحساس بمروره فمادية الوقت تقع على كاهل المراقب والذى يقيسه فقط. ولتقريب ذلك للقارئى الكريم فإن المادة لا تعى ما حولها من أشياء ولا تعى ماديتها وكذلك الوقت فكل ما نتكلم عنه من حاضر ومستقبل وحاضر هو بمقياس الشخص المستقبل نفسه والمسبب للحدث أم وعاء الوقت ليست له هذه المقايس، فحاضر أحداث القرن العشرين هى ماضى بالنسبة للقرن الواحد والعشرين. والوعاء لا يعى ولا يكترث بما يحوى من مادة. فالوقت يمر فى أتجاه واحد حيث تتمتع ذاكرته بمرور الأحداث به ولكنه لايملكها ولا يملك التفاعل معها فهو لا يعييها. ولكن الوقت هنا يرتبط بمكان وسبب ومسبب الحدث ومن هنا يكون الوقت مرتبطاً بمكان حدوث الحدث أى أن لكل نقطة ومكان على هذه الأرض زمنها المرتبط بها.

ولقد عكف الإنسان على قياس الوقت ونجح فى ادراكه وتقسيم مكوناته، ولكن ضاقت به العلوم لقياس الزمن ولذا فإن الوقت هو الجزء المادى من الزمن والذى يمكن تتبعها وقياسها بل وأدراكه بوعى كامل، ولكن لايمكن التحكم فى سرعتها فالوقت يمتاز بالمحدودية أما الزمن فهو الوجه المطلق للمحيط التتابعى والسريان المستمر للكون. وبين محدودية الوقت ومطلق الزمن توجد حالة وسطية وهى بمثابة النفس بالنسبة للطيفة الروح ومادية الجسد ويمكن تسميتة هذه الحالة "الزماوقت".

فالمادة الخام لفيلم السينما لا تحكي قصته ولا تميز أحداث الفيلم و لا الممثليين العاملين به أو ترتيب ظهورهم أو ترتيب الأحداث أو نوعية الفليم (درامى، أكشن، رومانسى، أستعراضى، وثائقى) أو لغة الفيلم. وكذا الحال بالنسبة للوقت حال وجود الإنسان وأحداثه. فالوقت لا يهمه من يعيش فيه ومن عاش فيه سابقاً، فالحاضر والماضى والمستقبل هى قياسات للناس لتحديد الوقت بالنسبة لها والوقت لا يعير هذه القياسات أى أنتباه. فتسلسل الأحداث يُعنى بها الإنسان ولذا وضع لها التوقيت أما الوقت فسريانه مستمر فى اتجاه واحد. فكيف لمحدود الوعى يلم بمطلق الزمن والوقت ونسبيتهما.

الوقت الأهرامات

ما من شخص تقع عينه علي الهرم الأكبر للمرة الأولي إلا ويتسمر في مكانة ويرفع رأسه لأعلي يجيل بصره في البناء الشاهق مطلقا عبارة تعجب: ما شاء الله. فذاك الهرم هو واحد من عجائب الدنيا السبع القديمة، فقد بقي ذلك الهرم شامخا يتحدي الزمن ويسخر من علوم عصرنا المتطورة. بقي الهرم هو الشغل الشاغل - عبر العصور المختلفة – لعلماء الآثار و المعماريين الذين لم يستطيعوا التوصل حتي الآن لكيفية بنائه!، بقي الهرم الأكبر لغزا محيرا لعلماء الفيزياء و الجيولوجيا و الفلك و حتي علماء الأحياء بما ينضح به من أسرار كل يوم. وبما أن هذا العمل حدث وتم بعده القياس فهذا المرور المتتالى والمتتابع هو مرور وقتى وبالتالى يقاس بالوقت. وبالتالى الأحداث التاريخية مهما قدمت وحدثت منذ أزمنة سحيقة فهى

وقت وليس زمن ينساب يحتضن الوقت والتوقيت والميقات دون التأثير عليها أو التعامل مع الحالة العامة للمراقب لها.

والهرم **(Pyramid)**، هو شكل هندسي مجسم كثير السطوح واحد أوجهه مضلع منتظم يسمى قاعدة الهرم، والهرم ينتج عن ربط زوايا قاعدة رباعية الأضلاع أو ثلاثية الأضلاع بنقطة واحدة تسمى القمة، والشكل الأشهر للقاعدة هو القاعدة المربعة. وكثير من خبراء يوضحون أن الزمن بمثابة القاعدة الهرمية التى تحمل بقية أوجه الحياة وهى الحركة والأحداث والوقت دون التأثر بها. فتواجد الزمن لازم لوجود الوقت ولكن ليس العكس.

الصوفيون والزمن

هناك صنف آخر من الطرق المعرفية قد ارتفعوا فوق جدار الغيب غير أنهم لم يرتفعوا مثل الفلاسفة دفعة واحدة فوقه، لكنهم صعدوا بالتدريج إلى أن انخرطوا في المطلق والسرمدي. وفي تلك اللحظة تلاشى تماما الجدار وما كتب عليه. الأمر أن الصوفيين ومن سلك مسلكهم قد عاشوا في اللازمن غير أنهم اتبعوا طريق التجربة أي أنهم وضعوا أنفسهم داخل التجربة ولم يكتفوا شأن الفلاسفة بأن يدخلوا التجربة بعقلهم الواعي فقط. وقد وصف الفلاسفة والصوفيون على السواء لردح طويل من الزمن بأنهم لا يمتون إلى الواقع بصلة، وبأنهم ظاهرة محيرة. وقد وقف العلم ولا سيما العلم الوضعي والتجريبي البراغماتي موقف المستهزئ من التجريدات الفارغة التي ينتهجها أتباع الفلسفة وأتباع الصوفية. والحقيقة أن هؤلاء العلماء كانوا لا يلتفتون إلى كل من هذين الفريقين إلا عندما تثمر أشجارهم قوانين رياضية كقوانين الخوارزمي وعمر الخيام، وديكارت أو قوانين فيزيائية أو تطبيقات طبية. الزمن والطفولة المبكرة ما نلاحظه أن العلم كلما تقدم أكثر عبر عن مكنونه الفلسفي ودلل على الجذر الذي خرج منه، فالبحوث التجريبية الحديثة في علم النفس قد بينت بلا مجال للشك أن الزمن بالنسبة للإنسان ما هو إلا لحظة من لحظات الوعي، فالطفل في مرحلة الرحم وفي طفولته المبكرة غير مدرك تماما للزمن فضلا عن إدراكه لمفهوم الزمن. والحال أن إدراك الزمن يظهر وينمو مع ظهور ونمو الوعي أو ما

يدعى الآن بالعقل الواعي،ولكن لو تساءلنا ما هو الزمن بالنسبة للطفل في مرحلة الرحم أو الطفولة المبكرة؟ علينا للإجابة عن هذا السؤال أن نحاول أن نفكر دون وعينا، ومن داخل الحالة. لأن الحالة التي نتكلم عنها خارجة عن دائرة الوعي. الحقيقة إننا في هذه الحالة لن نستطيع أن نتصور الزمن على الإطلاق. ولكننا فقط نستطيع حدسه، حيث يبدو لنا أنه السرمدي الممتد، المطلق، الخلود، اللامنتهي.

الزمن والوعي الإنساني البدائي ما ندركه عند تأملنا الزمن في مرحلة الرحم والطفولة المبكرة ندركه أيضا في الوعي الإنساني البدئي أي المرحلة التي مر فيها الوعي الإنساني البدائي ما قبل نشوء التقويمات، فإن نظرنا وسألنا أنفسنا كيف كان إحساس الرجل 'النيادرتالي' أو الجماعات الإنسانية قبل نشوء التقويم الفرعوني أو السامري أو الميلادي أو اليوناني أو الهجري؟ في مرحلة لم يكن هناك معنى للسنة أو الشهر أو الأسبوع أو اليوم أو الساعة والدقيقة والثانية. الحال أننا نلاحظ ما لاحظناه في الطفل طور الرحم أو الطفولة المبكرة حيث أن الوعي غير المكتمل لا يدرك الزمن. ومنه فإن الأقوام البدائية كانت غائرة في السرمدي غير متمايزة عن الطبيعة وعن اللحظة وهي من المؤكد لا تعرف من الزمن سوى التتابع في الحركة الأسطورة والزمن الممتد. إن الميثولوجيا تزودنا بمعرفة مهمة عن كيفية تعامل العقل الإنساني مع الزمن.

الماضي والحاضر والمستقبل

حنين وألم وقلق، لو قسَّمنا الزمن بأسره إلى ثلاثة مقاطع هي الماضي والحاضر والمستقبل، لوجدنا أيضاً تحديدات مختلفة لكلٍ من هذه المقاطع، تتنوع بتنوع ثقافة صاحب التحديد. فالماضي هو بالنسبة للبعض الحاضر الذي لم يعد موجوداً. والحاضر بالنسبة إلى البعض الآخر "نقطة مرت لتوها"، حسب تعبير دايفيد راسل، والمستقبل حسب تحديد باراسيلسوس "هو ما يصل إليه كل شخص بمعدل ٦٠ دقيقة في الساعة، مهما كان ومهما فعل". أما سومرست موم فيقول: "إني لا أفكر بالماضي. كل ما يهمني هو الحاضر الأبدي". فبالنسبة إليه الحاضر سيبقى دائماً موجوداً، وإلى الأبد. فالحاضر والماضى والمستقبل هو نسبى

بالنسبة للإنسان المراقب وليس للوقت دخل فى هذا التقسيم بل ولا يعنيه هذا التقسيم.

أما ما يشترك به معظم البشر فهو ليس في تحديد هذه المراحل الزمنية، بل في الموقف منها. فالحاضر (الذي يشمل بمعناه العام ما مضى منه قبل قليل والمستقبل القريب جداً) هو دائماً متعب ومؤلم ومثقل بالقضايا التي تتطلب من الإنسان جهداً وعملاً لمواجهتها. والمستقبل هو دائماً مصدر قلق، قلق من المحاذير التي قد تحملها الأيام والسنوات المقبلة: الفقر، المرض، المشكلات الاجتماعية، الحروب، الموت.. ولا ينجو من هذا القلق كل ما ومن يقع بين الأفراد والحكومات الدول. وفي مواجهته هناك ما سماه الإنسان «التخطيط للمستقبل»، الذي يشمل نطاقات ومجالات لا حصر لها، تبدأ بسعي الإنسان إلى ادخار بعض أمواله درءاً لـ «غدر الزمان»، وتنتهي بالمشاريع المستقبلية للحكومات والدول والمؤسسات العلمية العالمية. أما الماضي فحكايته مختلفة.

الماضي هو المرحلة الزمنية الوحيدة التي أصبحت خالية من الألم والقلق. ولهذا، فهو دائماً مثير للحنين. وإن رصد المواقف التي تصدر من حولنا في حياتنا اليومية حول تبدل بعض الأمور ما بين الأمس واليوم، يكشف دائماً شكلاً من أشكال الحنين إلى الماضي. وهذه الملاحظة عامة، يمكننا أن نلحظها في كل المجتمعات، وبوضوح وحزم، وكأن لسان حال العالم يقول إن كل ما كان في الأمس من أمور وعادات وتقاليد وصناعات ومنتجات هو أفضل مما أصبح عليه اليوم. علماً بأن المقارنة المجردة والحسابات الباردة تعطي لكل هذه الأشياء والأمور كما هي الآن أفضلية على ما كانت عليه بالأمس. ولكن هيهات أن تستطيع المقارنة المنطقية أن تتغلب على الحنين إلى الماضي.

إن كل شعوب العالم ترى هوياتها الوطنية في تاريخها وتراثها العظيم. وتبجيل "الماضي الجميل" صاغ بشكل ما المعارف الإنسانية. فإن كانت بعض العلوم، مثل علم الآثار وعلم التاريخ، غير مرتبطة بالمزاج الإنساني وحنينه إلى الماضي، فإن صناعات كاملة ما كانت لتقوم لولا هذا الحنين. ومنها كل ما يربط الإنسان بالتحف القديمة، سواءً أكانت فنية أم لا. إذ يكفي

أن تمر بضعة قرون من الزمن على إناء فخاري لشرب الماء، لكي يصبح أغلى على قلب الإنسان (وأغلى ثمناً أيضاً) من أي منتج معاصر يؤدي الوظيفة نفسها بشكل أفضل.

في نظرة الإنسان إلى ما مضى من الزمان، يبدو العالم وكأنه كان خالياً من الآلام والهموم والمساوئ. فتختار كل ثقافة مرحلة من تاريخها لتطلق عليها اسم «العصر الذهبي». ولكن من المرجح أن هذه العصور لم تكتسب "ذهبيتها" إلا بعدما ولَّت إلى غير عودة.

وفي مواجهة طغيان مقارنة زمننا بالأزمنة السابقة في صِيغ عاطفية وأدبية عموماً، كتب أرت بوشوالد، المعلِّق الساخر في جريدة "هيرالد تريبيون" ذات مرة: "سواء أكان هذا الزمن هو أفضل الأزمنة أم أسوأها.. إنه الزمن الوحيد الذي نملكه".

البعد العلمي

مبدأ الكون: الانسجام والتناغم والتوافق والتناسق. فالكون، موسيقى تنسجم أنغامها وتتوافق. لذا لا يخرج هذا الكون عن إطار معقولية الوحدة. فهو، في شموله وتعدده، وحدة قائمة بذاتها؛ وليست أجزاء الكون الظاهرية غير أنغام الموسيقى التي تتساوق في انسجام. وهكذا يكون الكون نغماً.

فللكون، لمن يستطيع الاستماع إليه لو أتيحت له نقطة خارج النظام الشمسي أو غيره، موسيقى تنشأ عن النِسَب الرياضية القائمة بين الكواكب أو الواحدات وهي تدور بعضها حول بعض. وهكذا يكون الكون اهتزازاً، وتكون المادة درجة من درجات هذا الاهتزاز. والمادة المهتزة، كما يشير إليها العلم، بصفاتها العديدة – الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية – تعبِّر عن وحدة شاملة. فما الظاهرات إلا تناسقات وأنساق ضمن الوحدة الأصلية. فكأن الكون لوحة من الفسيفساء تشغل فيه كلُّ قطعة مكانها في نظام واتساق. هكذا تعبِّر الظاهرات عن تضادٍّ ظاهري ووحدة داخلية. الكون امتداد، وليس تناقضاً؛ وثنائياته وأضداده لا توجد إلا من حيث الظاهر وحسب.

في عالم العلم هذا يرتبط الجزء الصغير بالكل؛ وذلك لأن إطار الحقيقة واحد.

فالجسم الإنساني، بتعدد أجزائه وأجهزته وأعضائه، وحدةٌ متماسكة، شاملة وكلِّية. وتتعذر دراسة الجزء أو العضو على حدة؛ وتُخفِق الدراسات التي تعتمد هذه الطريقة لأن الكثرة الجسمانية، والأعضاء كلَّها، واحدة في عملها وجوهرها، وكلُّ عضو يمتد إلى الكلِّ ويحيا في الكلِّ ومع الكلِّ وبه.

البعد الفكري

يصعب علينا أن نفرق بين البعد العلمي والبعد الفكري؛ فكلاهما كلِّية شاملة. فكما أن العلم يبحث في القوانين الشاملة، ويسعى إلى اكتشاف الكلِّ في الأقسام والتعددات، كذلك يبحث الفكر في الكل. فما يراه الإنسان من تعددات وكثرة ليس إلا حقيقة واحدة. من هنا أتساءل: كيف أستطيع رؤية ألوان الشمس ما لم تنعكس على الكرة الأرضية وتتشتت في فضائها؟ فالنور لا يكشف عن ألوانه إلا في انعكاس تعدد ألوانه، ليكون التعدد، في النهاية، نوراً واحداً. والحياة لا تكشف عن ذاتها إلا في التعدد والكثرة. ولما كان كلُّ ما هو موجود ينبض بالحياة كانت هذه الحياة خلفية الكلِّ وجوهره أيضاً. كيف أستطيع أن أفكر في الوجود، مهما بدت لي ظاهراته متكثِّرة، إلا ككلٍّ واحد؟ وكيف أستطيع أن أفكِّر إلا ككلٍّ غير منقسم؟

هكذا تتجلَّى الحياة، والنور، والوجود كلُّه، والفكر كلُّه، في الشمول. وكلُّ عملية تجريد عقلية تقودني إلى الكلِّية المطلقة، انطلاقاً من نسبة ظاهرية، أو من أضداد، أو ثنائيات، أو نقائض لا توجد بمعزل بعضها عن بعض. وإذا أخذنا مفهوم التجريد بعين الاعتبار أدركنا أنه يفضي بنا إلى الشمول والتكامل. ولو تساءلنا عن حقيقة البياض والصفرة والحمرة إلخ لوجدناها تجريدات مطلقة، بل وهي تنوع في تذبذب الطاقة، في وحدة قائمة بذاتها.

البعد الإنساني

لا يسعنا أن نبحث مسألة الإنسان إلا من ناحيتين:

أ. ***الإنسان الفرد***؛

ب. ***الإنسان الاجتماعي***.

كيف أستطيع أن أتصور الإنسان الفرد؟ هل يوجد عضو بمفرده؟ من هو الإنسان الفرد؟ وهل تكون لديه قيمٌ ومُثُل وغايات؟ الإنسان الفرد، في الواقع، غير موجود. وهذا لأن البشرية بدأت بجماعة.

والحق أن الجواب يستقيم متى علمنا أن هذه القيم غير موجودة إلا في الحياة الاجتماعية. ليس للإنسان إنسانية، إذن، إلا في الوجود الاجتماعي الذي هو حقل تحقيق إنسانية الإنسان. ونحن، على سبيل المثال، لو ألقينا نظرة على أنواع الوجوه البشرية، بتعدداتها وتمايزاتها، لعلمنا أن هذه الكثرة دليل على الوحدة أكثر منها دليلاً على الاختلاف والتباين. إن وجوه الآخرين تدلُّني على حقيقتي؛ فلولاها لما عرفت نفسي. لذا لا تحمل الوجوه سمات التناقض، بل التكامل.

وحدة التنوع

فالإنسان، في تعدد وجوهه، واحد. وعلى سبيل المثال، لو نظرنا إلى أنواع الإنسان لوجدنا تناقضاً ظاهرياً؛ لكننا، متى تعمقنا، وجدنا وحدة الهوية. فكأن الإنسان، بأنواعه وكثرة أفكاره، يلتقي في دائرة واحدة تتشعب منها شعاعات كثيرة تعبِّر عن حقيقة واحدة. وإذا ما نظرنا إلى أنواع الأفكار لوجدناها عديدة، إنما تجتمع في وحدة جوهرية في الإنسان. وإذا ما تفحَّصنا الكرة الأرضية، بتنوعات تضاريسها وأقاليمها، للاحظنا كثرة متنوعة تتآلف في وحدة. فكأن الحقيقة الواحدة والعالمية والشمول لا تتحقق إلا من خلال الكثرة. لذا لا أخشى التعدد لأنني أعتبره معالم حقة تتداخل في الوحدة. فهناك وحدة فى الاحتياج للأكل والشراب لكل إنسان بالرغم من تنوع الأغذية المتاحة (فالبروتين يوجد فى البقوليات واللحوم لمختلفة) وهى احتياجات ارادية ولكن هناك أحتياجات لا ارادية وهى التنفس فلا تنوع فيه فتساوى الاحتياج مع المتوفر.

الإنسان والمجتمع

في المجتمع الواحد يتَّحد الأفراد ضمن حقيقة واحدة خالية من كافة ضروب التعصب العرقي والمذهبي، ويرى كل إنسان ذاته في الآخر. فالإنسان يمتد في الإنسان. ولا يكون خلاص هذا الإنسان إلا في الإنسان الآخر ومن خلاله. فكل إساءة تبدر مني نحو الآخر تُعَدُّ إساءة للإنسانية جمعاء؛ وكل محبة تصدر مني نحو الآخر تُعتبَر تضحية للإنسانية جمعاء، لأن الإنسان يشتمل على الإنسانية كلِّها – الناس كلِّهم – في كيانه الخاص. وعلى الصعيد الاجتماعي العالمي والإنساني يعمل الإنسان على وضع قواعد العدالة والمحبة والمساواة التي هي مفاهيم مطلقة للجميع، لا يُنكِرها إلا المتزمتون، لأنها شاملة وعالمية. إن اجتماعية الإنسان تختلف، بجوهرها، عن تجمُّع الحيوان. فللحيوان حياة تجمُّعية، هي فردية مكررة، لا تدرِك ذاتها في إطارها الجماعي. أما اجتماعية الإنسان فهي انعكاسه في الآخر، وامتداد إلى مالا نهاية في هذا الآخر. فالإنسان لا يجد نفسه إلا في الآخر، ولا يكون لوجوده من معنى إلا في الإنسانية الشاملة.

فمن خلال مهنة الإنسان وعمله، إما أن يكون شخصياً، فإن لامستُ العالم كلَّه في مهنتي، فجعلت منها وسيلتي للاتصال مع الكلِّي، كنت إنساناً عالمياً وكونياً. وإن خدمت العالم كلَّه في مهنتي، حققتُ شخصيتي وكياني اللذين يمتدان إلى الكل. أما إذا جعلتُ من مهنتي وسيلة لتحقيق فرديَّتي، وصرت فرداً يعيش ضمن قوقعة الأنانية، فإن عالميَّتي تموت وأنانيتي تنبثق. هكذا ينبغي علي أن أربط عملي أو مهنتي أو فكري بالوجود الكلِّي، بالغاية القصوى، بالإنسانية كلِّها، بالمجتمع كلِّه.

ولما كانت غايتي من الوجود هي المعرفة، وكان وجودي الاجتماعي تحقيقاً للغاية التي من أجلها وُجِدْتُ فإنني أضع نفسي في خدمة الإنسانية، لأمتد فيها، فأحقق وجودي، أي عالميتي وكونيَّتي. فأنا كائن وُجِدْتُ لأحقق أنبل ما في الكون. لذا، عندما أدرس أعماق هذا الكون وأسرار المعرفة المكنوزة فيه، أجدني أنادي بأمر واحد هو: الانسجام مع الكون في غاياته الكبرى التي أعبِّر عنها باجتماعية الإنسان، وبعالمية الرؤية، وبالتجسيد العملي لها.

وعالميَّتي هي أن أجعل من نفسي إنساناً يحقق عمق وجوده. وعالميَّتي هذه تشير إلى صلة كل عمل أقوم به، أو كل فكرة أفكر فيها، بالعالم كلَّه.

الأرتقاء والكونية

عندما أحيا كونيتى فقد تجردت من كل أنانية. ففي عالميَّتي أكون خادماً لغيري، محباً له؛ لا أستثمره أو أستغله، ولا أتكبر عليه؛ لا أنبذه أو أهمِّشه، ولا أكرهه أو أحقد عليه. ذلك أني أرى الآخر فيَّ، وأرى نفسي في الآخر. وعندما أعكس عالميَّتي هذه أراني في قلب الوجود والحياة الاجتماعية، أفعل فيها بطاقة تُحَثُّ على الدوام من أجل إعلاء قيمتهما في الإنسان – ظاهرة الوجود الأرضي الكبرى، أو الطبقة المفكرة. فالقوانين والمبادئ والنظريات الوضعية تنظم العلاقات الإنسانية، ولكنها لا تحتوى الكينونة الإنسانية. فلا يستطيع الجزء (القوانين) الإحاطة بالكل (الإنسان). كما لا تستقيم اجتماعية الإنسان ما لم ينسجم الإنسان مع قانون وجوده الكوني، فيطرح عنه كل ما يعيقه عن تحقيقه كونياً.

فمثلاً لو سقطت منك فردة حذئك ماذا ستفعل بالأخرى؟ إليكم هذه القصة، حكى أن "غاندي" كان يجري بسرعة للحاق بقطاروقد بدأ القطار بالسيروعند صعوده القطار سقطت من قدمه إحدى فردتي حذائه فما كان منه إلا خلع الفردة الثانية وبسرعة رماها بجوارالفردة الأولى على سكة القطارفتعجب أصدقاؤه؟ وسألوه ماحملك على مافعلت؟ لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟ فقال غاندي الحكيم : أحببت الذي يجد الحذاء أن يجد فردتين فيستطيع الإنتفاع بهما فلو وجد فردة واحدة فلن تفيده ولن أستفيد أنا منها أيضاً. والعبرة من هذه القصة أنه إذا فاتنا شيء فقد يذهب إلى غيرنا ويحمل له السعادة فلنفرح لفرحه ولا نحزن على ما فاتنا.

كما أن الإنسانية جامعة شاملة كذلك هو الإنسان. وشمول الإنسانية يجعل البشرية جمعاء أسرة كبرى تنضوي في كنف المحبة والكل الشامل؛ فإذا الناس جميعاً أخوة يجتمعون في الحقيقة السامية وفي الإنسان. والناس جميعاً "إنسان كبير" (إخوان الصفا)، بوجود واحد، وصور كونية متعددة من حيث الشكل. إن تعليم المحبة هو أن شمولها العالمي، الإنساني الجامع،

إنما يرتكز على قانونها الأعظم: جميع الناس، على اختلاف أعراقهم وألوانهم وأممهم وثقافاتهم، يؤلِّفون جسماً واحداً – مادة واحدة، وروحاً واحدة لا تتناقض بذاتها.

المحبة مبدأ يتجاوز كل المبادئ الأخرى لأنها شريعة الوجود الكلِّي. فالحقيقة السامية–المحبة تجمع الكون كلَّه فيه. لذلك تحيا العوالم كلُّها، بعضها مع بعض، في سكينة الحقيقة السامية. هكذا تتماثل المحبة مع الجاذبية في لغة العلم: هي جاذبية الخلية للخلية، والذرة للذرة، والجوهر للجوهر، والنوع للنوع، والكواكب للكواكب، والإنسان للإنسان. هي، إذن، تماسك الوجود، وتناغمه، بعضه مع بعض، في كلٍّ متَّحد. ولولا هذا الملاط – ملاط المحبة–الجاذبية – لتنافرت العناصر وانفرط عقد الكون والوجود.

تتحقق الإنسانية في شعور الإنسان بشموله وكونيَّته. ولما كان الإنسان الواحد قد وُجِد بأنواع عديدة في جميع أنحاء العالم فإن فكرة عالمية الإنسان تتخلل جميع الأمم والشعوب في إنسانية الإنسان. وليست الإنسانية إلا إنسانية هذا الإنسان وصورته المجردة في الأنواع الإنسانية. أما الإنسان المشخَّص الواقعي فهو الإنسان الكائن الحي العاقل الذي يهدف، من خلال تنوعه وتعدده، إلى غاية واحدة. إن آمال الإنسان وتطلُّعاته المتصاعدة من أنحاء العالم كلِّه تشير إلى وحدة الوجود الإنساني وإلى تحقيقه في شعور واحد متكامل. إن عالمية الإنسان مبدأ يحثنا على احترام الإنسان وتقديره وإعلاء شأنه. ويتجلى هذا الاحترام والتقدير في المبادئ التالية:

١. إن كنا نعتبر الإنسان رمزاً للوعي الكوني غير المحدود فإنه يستحق التكريم والتقدير. فالإنسان الذي يحيا ضمن دائرة الوجود يتجاوز المحدود. وليس شعوره باللامحدودية غير دليل على لامحدوديَّته. لذا يخرج الإنسان بهذا الشعور عن نطاق الوجود المحدود.

٢. إن كنا نعتبر الإنسان مثالاً شاملاً لوجود البشر أجمعين فإن كل إهانة تُلحَق به تُلحَق بالجنس البشري أجمع. إن احترام الإنسان يعني احترام الإنسانية كلِّها، والعناية به تعني

العناية بالبشرية كلِّها. ولما كانت محبة الإنسان الواحد تشير إلى محبة الإنسانية جمعاء فإن هذه الفكرة تستحق بذل كلِّ جهد لتحقيقها.

٣. إن كنا نعتبر الإنسانية متنوعة في لونها وعرقها، في فقرها وغناها، في أقطارها وتقسيماتها الجغرافية، فلا يحق لنا استغلال الآخرين أو كرههم لأن التنوع يشير إلى التكامل، لا إلى التناحر. وإن كنا نعتبر أناساً أفضل من أناس آخرين، لأسباب تتعلق بالمعيشة أو البيئة أو اللون أو العنصر أو المعتقد، فإن الإنسان، في رحلة حياته الأرضية، يمر في هذه الأطوار كلِّها. وإن هو احتقرها في غيره فإنما يحتقرها في نفسه: إن كنت أعتبر غيري عبداً فأنا عبد مثله في مجالات عديدة؛ وإن كنت أعتبره زنجياً فأنا أكثر سواداً منه في داخلي؛ وإن كنت أعتبره فقيراً أو متخلفاً فأنا أفقر منه وأكثر تخلفاً في مجالات شتى. إن محبتي للإنسانية تدفع بي إلى تجاوز كل ما أعتبره عائقاً أو فاصلاً بيني وبين الإنسان، أيِّ إنسان.

٤. إن كنا نعتبر الإنسانية تسعى إلى غاية فلا يحق لنا أن نعمل لتثبيت التفرقة العنصرية والانقسام الإقليمي؛ وهذا لأن الغاية تشير إلى تلاقي الأهداف التي تتفرع من الغاية الأصلية. ولا تتحقق هذه الغاية إلا بالمحبة.

إن عالمية الإنسان، كونه ينتمي إلى عالم واحد، والأخوة الإنسانية، لا تتعارضان مع اجتماعيَّته، كونه ينتمي إلى وطن. فالإنسان شبيه بالبؤرة التي تشع في اتجاهات ثلاثة:

أ. **من كيانه إلى ذاته؛**

ب. **من كيانه إلى المجتمع الذي ينتمي إليه؛**

ت. **من كيانه إلى العالم.**

ففي البؤرة الأولى يشع الإنسان وفق قاعدة فطرية تعبِّر عن ناموس كوني، غير مكتوب باليد، نُحِتَ فيه منذ الأزل. وتُعتبَر هذه المرحلة أهم المراحل الثلاث جميعاً؛ وذلك لأن الإنسان الجوهر، المجرَّد، لا يسعى إلى الغايات النبيلة ما لم تكن كامنة فيه أصلاً. لذا كان عليه أن

يحققها أولاً. ومتى حقق الإنسان معنى وجوده والغاية منه سعى إلى إشعاعه في البؤرة الثانية التي هي المجتمع. ففي إشعاعه باتجاه المجتمع يحقق الغاية من وجوده في مجالين: المجال الشخصي – إنسان الماهية والجوهر، وفي المجال الاجتماعي – إنسان الواقع والتحقيق. أما البؤرة الثالثة فإنها تتجلَّى في موقف إنساني يتجاوز حدود المجتمع إلى الإنسانية بعامة، وإلى الكون ولانهايته. ويُعتبَر هذا الإشعاع تحقيق لإنسانية الإنسان، وهو يشعر بانتمائه إلى العالم كلِّه.

الوعى الإنساني ونسبية الصورة الذهنية

إن إدراك الإنسان ومعرفته للأنماط الإدراكية التى تولد مساحات إدراكية تفعل من خلالها أدوات (الوعي الإنساني) فعلها، فتتسع المعرفة، وتصوراتها لتراكيب المادة، وأبعادها، ووظائفها، ويعمل الخيال الإنساني كملكة عقلية نفسية على طرح احتمالات وفرضيات واعطاء تخيلات قد تكون وصفية، بل ويبدأ الاشتغال عليها تطبيقياً للوصول للحقائق العلمية الثابتة، وأصولها، فالنشاط (الإنساني الواعي) هنا هو نشاط يدمج (التأمل والتبصر) ويربط النظرة الإدراكية التي هي علاقة (الذات الإنسانية مع موضوعها). هذه العلاقة بتطورها تفتح حقولاً دلالية جديدة يبنى عليها، وتضاف لمدماك البناء المعرفي الإنساني.

وكذا فإن الكينونة الإنسانية، وفعلها المجتمعي هي رابط ومنظم بين فعل المحسوسات، والمدركات وهي التي تنظم حركة الواقع، فترتب، وتصنف (المدركات والموجودات) لتجعلها قريبة الفهم والمعرفة. من هنا يظهر الاختلاف بين الثقافات وسببه هو اختلاف في (الأنماط الإدراكية) أي طريقة تناول الواقع، وتصنيفه فلسفياً في حقوله الأخلاقية، وسلمه القيمي، ونمط النظرة الاجتماعية لأنواع المعارف فلسفياً بغض النظر عن كينونتها المادية المحايدة. فلابد أن تعى وتعلم عزيزى القارئ أن كل شىء دينامكى حركى أو ثابت أستاتيكى فهو نسبى لكل شخص ولكل وعى فكرى أو إدراك تخيلى.

في السياق التاريخي لتطور (الوعي الإنساني) انتقل الإدراك من (القصد اللاواعي) إلى

(القصد الواعي) وتراكمت المعارف الثقافية على بنيات فكرية، وفلسفية تداولها الناس في سلوكهم، وعلاقاتهم الاجتماعية. هكذا نشأ الوعي الجمعي الثقافي، وتداول القيم، والأعراف، والأخلاق بنوع من الإدراك الفلسفي للإنسان في علاقته مع محيطه، ووجوده الطبيعي فيه.

وبقيت المشكلة الرئيسية في المعرفة الإنسانية هي قدرة (الموجودات الحسية) ورؤية الإنسان لها في خلق (الوعي العقلي) ثم قدرة (الوعي العقلي)على إثبات الحقائق الموضوعية،و الإداك العقلي الإنساني هنا هو (حقل معرفي) تعمل فيه (الذات الإنسانية) وتتفاعل مع (المدركات الحسية) ليغدو الوعي بعدها (مرآة للذات والموضوع) في الرؤية والاكتشاف المعرفي.

هنا تبرز مسألة هامة وأساسية في (الوعي الإنساني) هي: إن أحكام الطبيعة سارية على موجوداتها والإنسان موجود في هذه الطبيعة يقيم المعرفة من خلال اكتشاف قوانين الطبيعة والوجود، فالعلم هو قراءة الموضوعات، وآليات نشاطها، وقوانينها، أما الخيارات الإنسانية، والتأثير في الطبيعة،والعلاقات الاجتماعية فيعود إلى (الأخلاق الإنسانية). فالإرادة الحرة تختار منظوماتها الفلسفية وتستخدم العقل في خياراتها، وتوظف ما تسيطر عليه من الوجود باتجاه أو بآخر وهذا فعل يدخل في أخلاقية الوعي الإنساني لطبيعة الكون وفلسفة وجوده. وهذا كله يعتمد على الموروثات والمكتسبات العلمية والثقافية والمعتقدية والاجتماعية التى تولد داخل كل إنسان صور متنوعة ومختلفة لكل أصل محيط بنفسه، بل قد تتغير الصور النسبية بناءً على الحلة المزاجية للشخص. فالوعي الإنساني (عملية مادية ميكانيكية) توجهه ايديولوجيا (علموية) تنسب الاستقراء المعرفي للموجودات وعلاقتها الواعية، فتأثرها مباشرة بما هو متاح من أفكار وتخيلات يملك الإنسان من خلال كل ما هو مكتسب وموروث. فالحواس ليست آلة تصوير لكنها تلعب الإرادة الواعية، والعمليات الذهنية دوراً في العمليات المادية الذهنية، وهنا تدخل الإرادة النفسية في الذهني المادي. وبالتالى فإن الوعي ليس مجرد انعكاس للواقع في الفعل الإنساني بل هو ضبط للمحسوسات والمدركات في توالف تدخل فيه الذات الإنسانية فتنظم وتبرمج وتعاد برمجتها من خلال كل المكتسبات البيئية والمجتمعية والعلمية اليومية.

والوعي الداخلي للإنسان يدرك الفروقات بين الصور الذهنية النسبية حسب ما تعكسها

المشاهدات المادية. كما تركب النفس صوراً إبداعية بناء على ملامح ومعطيات حسية، فتصبح الصور نوعاً من الوعي الجديد للأشياء والوجود. كما أن الوعي يستطيع أن يعدل في الإدراك الحسي بمعنى أن الوعي يوجه المادة الحسية المدركة. وكخلاصة يرتبط (الوعي الإنساني) كملكة عقلية بمساحات وجدانية،وانفعالية نفسية مع المدركات، وبمستوى من الأخلاقية، والدينية التي تحدد جميعها طبيعة هذا الوعي وأنماط إدراكه.

الفصل السابع

الإنسان والفلسفة

فلسفة الحقيقة

الحقيقة هى الواقع بعين ورؤية غير متحيزة، والحقيقة ليست شيئاً ثابتاً، إنها حوار و اختلاف وهي ذاتية لأنها لا تتكرر في كل واحد منا، إنها أخلاق وفضيلة وليست قضية معرفية وغاية مذهبية بعيدة عن شروط ووجود الإنسان.

إن مفهوم الحقيقة في دلالته الشائعة غالبا ما يستند على معيار أساسي هو معيار الواقعية. هكذا يكون الحقيقي هو الوجود القابل للإدراك الحسي المباشر، أو القابل للتحقق الواقعي. فمعيارية الحقيقة ليست مطابقتها للواقع، أو فى ملاءمتها للنزوع نحو الكائن المطلق حيث تكمن قدرته.

معايير الحقيقة

من أين تستمد الحقيقة قيمتها؟ ما الذي يجعل الحقيقة مرغوبا فيها وغاية وهدفا للجهد الإنساني؟ إذا كان هدف الحقيقة هو معانقة اليقين في إنتاجها لمختلف

أصناف المعارف وفي مختلف وسائل الإقناع وبسط سلطاتها المعرفية، فإننا نكون أمام تعدد معايير الحقيقة. فما هو معيار الحقيقة؟ هل هو معيار منطقي أم مادي؟ يرى ديكارت أننا لا نخطئ إلا حينما نحكم على شيء لا تتوافر لدينا معرفة دقيقة عنه، ويعتبر أن الحقيقة بسيطة ومتجانسة خالصة وبالتالي متميزة وواضحة بذاتها. فالحقيقي بديهي بالنسبة للعقل ولا يحتاج إلى دليل، وهو متميز عما هو ليس حقيقيا، إنه قائم بذاته كالنور يعرف بذاته دونما حاجة إلى سند كما قال اسبينوزا، واللاحقيقي كالظلام يوجد خارج النور. فالفكرة الصحيحة (الكل أكبر من الجزء) صادقة دوما ونقيضها خاطئ دوما.

الفيزياء وفلسفة السيكولوجيا

يمكن رسم خريطة الصراع القائم بين دراسة العقل على أساس البيولوجيا (أي النيوروفلسفة)

ودراسة العقل على ضوء الفيزياء (أي الفيزيوفلسفة). فنبدأ بشرح الارتباطية كنظرية علمية في تحليل العقل وفهمه، ثم ننتقل إلى الفلسفة المعتمدة عليها ألا وهي النيورو فلسفة التي يقدمها الفيلسوف بول تشرتشلاند. وبعد ذلك نسعى في إيضاح الفيزيو فلسفة ومقارنتها مع النيورو فلسفة .

يقدّم الفيلسوفان هورغن و تينسن شرحاً مفصلاً لفلسفة السيكولوجيا التي تعنى بدراسة العقل على ضوء الاعتبارات العلمية. بالنسبة إليهما، النظرية الأصدق هي النظرية الارتباطية. ففي العقود الأخيرة طُرحت الارتباطية كنظرية جديدة في دراسة العقل. هذه النظرية تقدم تصوراً مختلفاً عما كان سائداً في الأوساط العلمية والفلسفية حول ماهية العقل و عمله. فبالنسبة إلى النموذج العلمي الذي سيطر مع نشوء الكومبيوتر، العقل مجرد كومبيوتر متطور يعمل على ضوء قوانين وبرامج محدّدة. أما الارتباطية كنموذج علمي جديد للعقل فتعتبر أن تحليل العقل و تفسيره على أساس أنه كومبيوتر هو تحليل خاطئ. بالنسبة إلى الارتباطية، العقل ليس محكوماً بقوانين وبرامج، ولذا ليس كومبيوتراً. هكذا تختلف الارتباطية عن دراسة العقل على أنه كومبيوتر. والحجة الأساسية على مقبولية الارتباطية هي أن العقل غني ومرِن وقابل للتكيف و التغير على نقيض من الكومبيوتر المقيّد ببرنامج أو آخر.

بالنسبة إلى الارتباطية، يتكون العقل من شبكات نيورونية أو من شبكات شبيهة بالشبكات النيورونية. تصور الارتباطية العقل على ضوء الدماغ ومكوّناته. فكما نعلم يتشكل الدماغ من نيورونات وعلاقات عصبية بينها (والنيورونات خلايا عصبية قائمة في الدماغ)، وكلما ازدادت العلاقات الفسيولوجية بين النيورونات كلما زادت القدرات العقلية و تم تفعيلها. على هذا الأساس، تعتبر الارتباطية أن العقل يتكوّن من وحدات شبيهة بالنيورونات. وهذه الوحدات ترسل إشارات تثير وحدات أخرى أو تخمدها. وبذلك يتم تشغيل الوحدات أو منعها من أن تعمل، وهذا يعتمد على نتيجة تلك الوحدات المترابطة وقوة ترابطها. بالنسبة إلى هذا النموذج العلمي، كل الارتباطات بين الوحدات محلية بحيث أن كل وحدة تملك فقط المعلومات التي تتخذها من الوحدات الأخرى المرتبطة بها.

والمعلومات التي تكتسبها الوحدات تتشكل من إشارات بسيطة محدَّدة من قبل الوحدات الأخرى وقوة ترابطها. وبذلك لا تدرك أجزاء النظام العقلي ما يجري في أجزائه الأخرى ما يعني أنه لا

يوجد قائد يتحكم بالعقل ويشرف عليه على نقيض مما تدعي نظرية أن العقل كومبيوتر. ففي النموذج الكومبيوتري للعقل، ثمة برنامج يشرف على كل ما يحدث في العقل، لكن هذا المدير التنفيذي غائب في النموذج الارتباطي للعقل. ولأن الارتباطية تصور العقل بلا مديرتنفيذي يتحكم بكل أجزاء العمليات العقلية ويبرمجها على أساس برنامج وقوانين محددة، من الطبيعي إذن أن تقوم أجزاء الدماغ المختلفة بأعمال مختلفة في الوقت نفسه. هكذا تنجح الارتباطية في تفسير تلك الحقيقة السيكولوجية، وبذلك تكتسب بعض فضائلها.

ويقول الفيلسوفان هورغن و تينسن إن الحالات العقلية حالات رياضية تتجسد في حالات فيزيائية هي الشبكات النيورونية و شبيهاتها. هكذا يفسّران تجلي العقل في الدماغ. بالنسبة إليهما، العقل نظام ديناميكي يتكون من الوحدات الشبيهة بالنيورونات وارتباطاتها. لكن هذا النظام ليس نظاماً فيزيائياً بل هو نظام رياضي. فالعقل يشكل فضاء رياضياً بحيث أن أي نقطة في فضائه محددة من قبل قيمة كل وحدة شبيهة بالنيورون، وبذلك كل نقطة في الفضاء العقلي تتحدد على ضوء الشبكة النيورونية كلها. و الشبكات الارتباطية بين الوحدات تتخذ الآليات الفيزيائية المناسبة لتحقيق الفضاء الديناميكي الرياضي الممثل للعقل .

بالإضافة إلى ذلك، من منطلق الارتباطية يقدّم الفيلسوف بول تشرتشلاند موقف النيورو فلسفة التي تدرس العقل على ضوء البيولوجيا. النيورو فلسفة مصطلح يجمع بين مفهوم النيورون والفلسفة. النيورو فلسفة تحلّل العقل وتفسره على أنه مجموع النيورونات و العلاقات فيما بينها. لكن رغم ارتباط النيوروفلسفة بالارتباطية نراها تختلف عنها في كون النيورو فلسفة مذهباً فلسفياً يبنى على أساس الارتباطية كنظرية علمية. بالنسبة إلى تشرتشلاند، مفتاح فهم العقل يكمن في فهم الصفات الديناميكية الخاصة بالشبكات البيولوجية النيورونية. فالعقل هندسة دماغية تتضمن الدماغ الحيواني والأدمغة البشرية. يعتبر تشرتشلاند أن النظرية الصحيحة في تحليل العقل لا بد أن تكون جزءاً من النظرية العامة حول الأنظمة البيولوجية و التطور البيولوجي.

هكذا يكون المدخل العلمي الوحيد بالنسبة إليه هو دراسة العقل على أساس النموذج

الدماغي البيولوجي. وبذلك يغدو العقل مجرد نظام ارتباطي تماماً كالدماغ بحيث يتشكل من نيورونات والارتباطات فيما بينها. على هذا الأساس، إدراك العقل للعالم يعتمد على تشكيلة الارتباطات العصبية بين النيورونات الدماغية. ففهمنا للعالم يكمن في الأنماط المتعاقبة على النيورونات. وهذه الأنماط مصدرها مصفوفة الارتباطات العصبية التي تحول المعلومات من الحواس إلى الإدراك ومن ثم إلى الفعل و التصرف. هكذا يعتبر تشرتشلاند أن العقل نظام بيولوجي بامتياز ومن غير الممكن أن يكون غير شبيه بالنظام البيولوجي.

بالنسبة إلى النيورو فلسفة التي يدافع عنها تشرتشلاند، التصور العقلي للأشياء هو نسق تفعيل النيورونات. أما القدرة الحسابية للعقل فهي تحوّل نسق تفعيل النيورونات إلى نسق تفعيل آخر لتلك النيورونات. من هذا المنظور، المفاهيم نقاط أو أمكنة أو مسارات في فضاءات التفعيل النيوروني. هكذا بدلاً من أن يملك العقل لغة عقلية شبيهة بلغاتنا وبفضلها يفكّر ويدرك، بالنسبة إلى النيورو فلسفة قدرة العقل على التفكير والإدراك ليست سوى شبكة نيورونات الدماغ، شرط أن تكون هذه النيورونات فاعلة ومُثارة ومحققة لارتباطات فيما بينها. من هنا تتحوّل المفاهيم العقلية و اللغوية إلى جغرافيا وهندسة للفضاء الدماغي النيوروني. على هذا الأساس يعتبر تشرتشلاند أن اللغة قدرة بيولوجية على إدراك أدمغة الآخرين و التحكم بها بدلاً من أن تكون اللغة قدرة على انتاج و ادراك سلسلة من الكلمات؛ فمثلا كلام الفرد يثير القدرات العقلية للمتلقي. كما أنه بالنسبة إلى النيوروفلسفة التي يقدمها تشرتشلاند، العقل يدرك العالم من خلال خرائط من مقولات ومفاهيم. وهذه الخرائط تشبه العالَم الخارجي، ولذا يتم إدراك العالم المحيط بنا. لكن هذه الخرائط متجسدة في فضاءات تفعيل النيورونات، وكلما زاد تفعيل النيورونات وإثارتها كلما زادت القدرة الإدراكية للعقل.

من جهة أخرى، من الممكن دائماً طرح أفكار ممكنة، وهذا ما تقوم به العلوم والفلسفة. على هذا الأساس نقدّم الفيزيو فلسفة المشتقة من الفيزياء و الفلسفة. بالنسبة إلى الفيزيو فلسفة، لابد من دراسة العقل على ضوء الفيزياء بدلاً من البيولوجيا أو علم آخر. من هنا يكون العقل نظام فيزيائي تحكمه القوانين الطبيعية المعروفة في الفيزياء كقوانين ومبادئ ميكانيكا الكمّ . فمثلا ، تعتبر ميكانيكا

الكم أن الجسيم يعبر كل الممرات الممكنة في الوقت ذاته، لكن لتضارب وتناقض تلك الممرات تختزل بعضها البعض ويبقى للجسيم ممر واحد. من المنطلق ذاته، العقل يحتوي على كل المعتقدات الممكنة ولتناقضها تختزل بعضها البعض فتبقى بعض المعتقدات فقط التي لا تناقض بينها. هذه المعتقدات الباقية من جراء عدم اختزالها تشكل ما يعي العقل. هكذا تفسِّر الفيزيو فلسفة وتحلِّل ما يكوِّن الوعي؛ فالذي نعيه هو الذي لا يتم اختزاله من جراء عدم تناقضه مع معتقدات أخرى لدينا. من هنا كلما حصل تناقض اختزله العقل، ولذا يرفض العقل الاعتقاد بالمتناقضات.

ينجح هذا النموذج الفيزيائي للعقل في تفسير بعض الظواهر. فمثلاً، يؤكد الاختبار السيكولوجي على الحالة التالية: إذا ظهر منبه على شاشة ومن ثم ظهر منبه آخر على الشاشة ذاتها بعد فترة قصيرة جداً، سوف ندرك المنبه الثاني و ليس المنبه الأول. المنبه الأول قد يكون قرصاً ملوناً، والمنبه الثاني قد يكون خاتماً ملوناً يظهر تماماً خارج المنبه الأول فيكون المنبه الأول داخل المنبه الثاني. هنا المنبه الثاني يختزل المنبه الأول، ولذا ندرك المنبه الثاني وليس المنبه الأول. هكذا بالنسبة إلى الفيزيو فلسفة، بما أن ما نعيه هو الذي لا يتم اختزاله، إذن من الطبيعي أن نعي المنبه الثاني الذي لم يُختزَل وأن لا نعي المنبه الأول الذي تم اختزاله. من هنا تنجح الفيزيو فلسفة في تفسير الحالة السيكولوجية السابقة وبذلك تكتسب فضيلتها .

تضيف ميكانيكا الكم قائلة إن مبدأ اللايقين يحكم عالم ما دون الذرة. بالنسبة إلى هذا المبدأ، من غير المحدد معرفة سرعة الجسيم ومكانه في آن واحد. على أساس هذا النموذج الفيزيائي تعتبر الفيزيو فلسفة أن المعتقدات غير محددة. و بما أن معتقداتنا غير محددة، إذن المعتقدات ذاتها قد تؤدي إلى نتائج مختلفة ومتعارضة. هكذا تفسر الفيزيو فلسفة لماذا نصل إلى نتائج مختلفة من خلال المعتقدات ذاتها. فمثلاً، نعتقد علمياً أن الكون مسطح ومنسجم لكن هذا الاعتقاد يوصل بعض العلماء إلى اعتبار أن الكون قد تضخم في بدايته ولذا هو مسطح ومنسجم، و الاعتقاد ذاته يوصل علماء آخرين إلى الإعتقاد بأن الكون وجد نتيجة اصطدام غشاءين ولذا الكون مسطح ومنسجم. فرغم أن الكون هو ذاته الذي يسبب معتقداتنا، ولكننا نختلف في ما نستنتج منه، وبذلك تتنوع أنظمتنا

الفكرية. وهذا لأنه من غير المحدَّد ما هي مضامين معتقداتنا.

بالإضافة إلى ذلك، إحدى المشاكل الفلسفية و العلمية هي كيف يدرك العقل العالَم ويصوّره. للفيزيو فلسفة جوابها الخاص ألا وهو: بما أن المعتقدات الممكنة كافة محققة في عقلنا، إذن معتقداتنا هذه تعبِّر عن الأكوان الممكنة كافة و التي من ضمنها عالمنا الواقعي. لذا يتمكن العقل من إدراك العالَم وتصوّره. هكذا تنجح الفيزيو فلسفة في التعبير عن إمكانية إدراك العالم، وبذلك تكتسب فضائلها. ولكن لماذا لابد من دراسة العقل على أساس الفيزياء بدلاً من البيولوجيا أو علم آخر؟ جواب ذلك كامن في حقيقة أن الفيزياء أي العمليات الفيزيائية هي الأساس في تشكيل وتكوين كل شيء. فمثلاً، الظواهر البيولوجية كالخلايا و الأعصاب تتكوّن من ذرات وجسيماتها الفيزيائية المحكومة بقوانين الفيزياء. لذا لا بد من دراسة الأشياء كافة ومن ضمنها العقل على ضوء الفيزياء.

فلسفة الوجود المادي

لغوياً الوجود يقابله العدم، وإذا تركنا الوجود القديم وتتبعنا الكلمة في المفهوم اللغوي نجد أن معناه ا ينحصر في كل ما أوجده الله تعالى من العدم. فالوجود المادي واقع تحت أبصارنا نشاهده ونلمسه، ولا مجال لإنكاره، لأننا نتعامل مع مكوناته، وهو جملة الموجودات المادية بقوانينها كالأجرام السماوية السابحة فوق رؤوسنا، والأجسام المتحركة من حولنا. البحث في المادة قد تشعب وتفرع، بعد أن كانت العناصر أربعة :النار والماء والتراب والهواء. ولكن إذا كان وحدة تكوين الماء هى قطرة الماء ووحدة تكوين الترابة هى ذرة التراب ولكن مم تتكون الرياح والنار ما هى وحدة تركيبهما؟؟؟، فقد تجاوز عددها مئة عنصر في الطبيعة. مع العلم عزيزى القارئ أن ليست المادة تلك التي تتخذ من صلابتها وجسامتها شرطا للحقيقة، لأن الحقيقة المادية نفسها غير مدركة بالكامل فدائماً العلم مكتشف المادة فى تطور مستمر. فعلى سبيل المثال الحديد يتكون من جزيئات والجزيئات تتكون من ذات والذرات تتكون من إلكترونات (فى مستويات طاقة مختلفة) ونواة بينها وبين المستويات الطاقية مسافات فراغ كبيرة نسبياً فالمادة هى طاقة وفراغات.

فلسفة اللانهائى

كلمة لانهاية infinity تدل على "ما لا حدود له" أو "اللامنتهي" أو "غير المحدود" تستخدم بعدة مفاهيم مختلفة لكن يجمع بينها جميعا فكرة واحدة هي "عدم وجود نهاية" أو "شئ أكبر من أكبر شيء يمكن تخيله (ما لا يمكن تخيله أو تصوره). من هذا المنطلق فهي ترتبط بالفلسفة والرياضيات والإلهيات والحياة اليومية أيضا. وأوّل من استعمل الرمز المعروف الآن (∞) لهذا التعبير، كان جون والّيسن وهى لها قيمة رياضية تقاس به كمية غير محدودة ولكنها غير متغيرة وليس لها اتجاه. (∞) هى كيان مختلف عن أي كيان عددي آخر في خاصياته وسلوكه.

من أين جاءت فكرة اللانهاية إلى العقل البشري إذن؟ وهي فكرة مفقودة في الواقع؟

الفكرة المفقودة

الكيان اللانهائى هو دالة لقصور المتلقى عن الإدراك والإحاطة. في الفلسفة اللانهاية ترمز للمطلق أو أصل كل شيء. فالزمن، والفراغ، والكون، والروح، والمطلق، والغيب، هى أصول لا يمكن أدراكها فهى لا نهائية بالنسبة للإنسان والفكر الواعى. والإنسان يكفّ عن التفكير في هذه المسألة، ليس لأنه حصل على جواب، بل لأنه تعوّد على حالة لا يتلقى فيها جواباً على سؤاله، وينتهي الإشكال القائم في سؤاله باقياً على حاله لا يُحَل. ويبدو أنه من الصعب أن يتخيل الإنسان شيئاً بدون نهاية. بينما عدد الناس في العالم، وإن بلغ مليارات من الأفراد هو عدد نهائي. كذلك عدد الشّعرات في الرأس، وحتى عدد حبّات الرمل على الشاطئ هو عدد نهائي، يُمكننا، لو أوتينا الصبر والرغبة أن نعدّه، فلا نفرِّط في حبّة مِنه على كثرته.

الفيزياء والفلسفة

إن الفلسفة هى الحضن الدافيء والرقيق للفيزياء! فالعلّة الفيزيائيّة لا يمكن الوصول فيها إلى المراد في التفسير من دون طريق فلسفيّ يسبقه. لقد لعبت الفلسفة الدور الأكبر في إيصالنا إلى

نظريّات وفرضيّات لا حدّ لها في علم العلوم(الفيزياء). لقد قلت وإدّعيت يوماً إلى أنه لولا الفلسفة ما وصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من تقدّم هائل في هذا المجال! وإليك بعضاً من هذا الإدّعاء!

أوّلاً: لقد كانت الفيزياء والرياضيّات مثل الدويتو الغنائي لا يمكن الفصل بين الاثنين بسهولة في أكثر الأحيان! ونحن نعرف أنّ الرياضيّات لا يمكن فهما بشكل صحيح إلا بالفلسفة! فالصفر والعدد وحركة العمليّات الأربع وحالة التساوي والتضاعف والتناقص والفوق والتحت، اليمين واليسار، المنطق والجدل الرياضيّ والرياضيّات التجريديّة وغير ذلك كلّها تحتاج وقد احتاجت بالفعل وعزّزت بالفلسفة، قبل وبعد وضع القاعدة الرياضيّة! وبالتالي نعتبر الرياضيّات لغة موفّقة للفيزياء وبذلك نصل إلى أهميّة الفلسفة للفيزياء مروراً بالرياضيّات. بالإضافة إلى إعتبار الفلسفة أصلاً، تعبيراً عالي المستوى لفهم وإدراك وإبرام المنطق الفيزيائيّ.

ثانياً: عندما نريد أن نتحاور مع مسائل فيزيائيّة معقّدة ترتبط بظواهر حسيّة أو بصريّة نحتاج أكثر ما نحتاج إلى حوار صامت نتأمّل من خلاله ما وراء التفسير الظاهر، وهذا عين الفرضيّة التي توصلنا إلى طريق صحيح للبحث عن الحقيقة المطلقة.

أكثر ما يؤرّق الكثير من علماء الفيزياء هو الحوار المستمرّ الذي يستهلك التأمّل والذي نحتاجه أكثر من حوار كهذا "فهم يتدبّرون بكلّ شيء للوصول إلى التفسيرات العجيبة ونحن نقضي الوقت الثمين في تصريحات من سيستلم الحكومة المبجّلة السيد سين المخلص جداً أو السيد صاد المخلص جداً لهذا الوطن الذي فرضت عليه مجاميع عبادة الكراسي" هكذا هو الحوار الأعقد والأسهل بنفس الآن! التدبّر والاستنباط، التفكّر والنزول إلى حقل التجربة. تدبّر في القول الذي أوجد لنا عالمنا الكبير من خلال العالم الدقيق!!.

إنّهما عالمان يقعان على طرفي الكون المترامي الذي نراه في مخيلتنا أكثر وأدقّ من أعتى المجاهر، حيث يقول الإمام عليّ عليه السلام: تحسب أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!.

والفلسفة تجمع بين الإثنين بتحدّ لا سبيل لنكرانه! حيث تقول الفلسفة أنّه عند ظروف معيّنة يمكن للكون أن يحتوي خصائص جسيم دقيق وأنّ لهذا الجسيم الدقيق القدرة على أن يحوي عوالم

كونيّة متكاملة! وهذا يتّفق بدقّة مع العديد من النظريّات الفيزيائيّة المعاصرة التي تشرح أنظمة معقّدة بأسلوب فلسفيّ رياضيّ وفيزيائيّ تستطيع أنت أن تحسّه وتلمسه بقلبك وعقلك وحتى بيدك الجميلة!

لقد قالت الفلسفة أنّ الأجزاء الصغيرة للجسيم الأساس أكبر وأثقل من الجسيم نفسه! ويمكن لجسيم ما أن يكون موجوداً في عدة أماكن في نفس الوقت! وقد شرحت لنا الرياضيّات الفيزيائيّة المعاصرة المستندة على نظريات آينشتاين وهايزنبرغ وشرودنغر هذا الرأي الفلسفيّ ليخرج لنا مبدأ جديد رائع يدرّس في جامعاتنا على أنّه حقيقة لا مجال لنكرانها!

المعروف عن جسيمات التكوين الدقيق أنّ لها كتلة صغيرة جداً إلى الدرجة التي فيها إن تفاعلت مع أيّ شعاع ضوئيّ أو إلكترونيّ يؤدي به إلى الزعل والهروب لغيير موضعه بشكل سريع! أي أنّنا لن نستطيع المسك به لدراسته، حينها نأخذ معلوماتنا عنه وعن تركيباته بالتحليل الرياضيّ المستند على البعد الفلسفي الإستغراقيّ (حالات التأمّل التي يستطيع بها ومعها كشف بعض الأسرار الوجوديّة غير الملموسة وغير المحسوسة إلا له! فيعرف المؤثّر لا الأثر! والوصول إلى درب السالكين إلى صاحب الجلال والجمال والإنبثاق والولوج في هذا الكون الواسع).

ألم يكن غاليليو فيلسوفاً عبقريّاً توصّل إلى الكثير من الاكتشافات من خلال الاستغراق الغيبيّ ليصل إلى مرحلة التصميم ثمّ البحث والتفتيش للوصول إلى إكتشافاته العظيمة في علم الفلك! وقد أدّت إكتشافاته إلى تغييرات جذريّة في صورة العالم العلميّة. وفيما يتعلّق بنظريّة الكون الحركيّ التوسّعي والدائم في حركة التوسّع، وعلم الكون الكمّي وما توصّل إليه العلماء من معلومات حول الثقوب السوداء التي يعتبر وجودها في هذا الكون وجوداً حتميّاً في الجانبين الرياضيّ والفلسفيّ والتي تنبأت بها نظريّة النسبيّة العامّة (الكثير ممّا تتطرّق له النسبيّة العامة لا يدخل في حدود العقل التقليديّ وإلا كيف يستطيع إنسان عادي أن يتصوّر عالماً أو كوناً لا وجود فيه لليمين أو اليسار أو لا وجود للأعلى والأسفل أو كيف يمكن التوفيق بين العقل الصحيح والتجربة التي تؤكّد وجود ميزون داخل البروتون وأنّ الميزون نفسه يمتلك بروتوناً! أي لا يمكن لإنسان أن يستوعب هذا دون التفكّر والتدبّر والفهم المتقدّم للكثير بما يرتبط بالفلسفة أو الضرورات التي تتيح للعقل أن يسبح في عوالم غير تلك

العوالم!).

علاوة على ما تفسّره النظريّات الفيزيائيّة من فلسفة فيزيائيّة وفيزياء فلسفيّة فيما يتعلّق بالإنتروبيّ الكونيّ (حاصل قسمة كمية الحرارة في الكون على درجة حرارة الكون والتي تكون بين العمليات الأديباتيّة، يساوي مقداراً ثابتاً وهذا الثابت هو الإنتروبيّ حيث أنّ التغيّر في كمية الحرارة يساوي صفراً وعليه يكون التغيّر في الإنتروبيّ يساوي صفراً أيضاً). و إنّ أوّل من فكّر في الموت الحراريّ للكون هو بولتزمان الذي بحث عن معنى درجة الحرارة والإنتروبيّ للمادة والذي قاده إلى إكتشاف الكثير الذي أدى إلى إكتشاف الذرة ثمّ إلى إكتشاف الفوتونات. وفي الدراسات المعمّقة الحاليّة يبحث العلماء عن معنى درجة الحرارة والإنتروبيّ للثقوب السوداء والذي سيؤدي إلى معرفة حقيقة بناء الكون من خلال معرفة البناء الأوّل للذرّة الأولى.

وهنا نشير إلى واحدة من الطرف التي مازالت تأخذ وضعاً رائعاً في الجانب الفلسفيّ فيما يتعلّق بمسألة الحضارات خارج كوكب الأرض. حيث هناك العديد من النماذج من السيناريوهات الممكنة والتي يمكن تنميتها وتوفير الأجواء الجميلة لتحمّل فكرة الخلق في الجانب الأخر من الكون! ولقد لعبت نظرية النسبيّة لأنشتاين دوراً كبيرا في قبول حقائق فيزيائيّة وهي المستندة إلى الفلسفة أصلا كما أشرنا. لكنّ الطريف الذي مازالت تتحدّى فيه الفلسفة العلم الحاليّ لتحثّ العلماء على العمل والتبصّر هو طرفة وجود جسيمات ذات سرعة أكبر من سرعة الضوء وهذه الجسيمات هي التي أطلق عليها بالتخيونات (بإعتبار أنّ الفلسفة منفتحة على عقل الإنسان الذي يستوعب أشياء أعظم من الوقوف عند معياريّة سرعة الضوء!) والتخيون مصطلح من الإغريقيّة يعني السريع.

نواة الظاهر والمظاهر

النور هو الحق بذاته الذى يبرهن على نفسه بنفسه بمحض حضوره دون الحاجة إلى وسائط .... وهو الذى يخرج الأشياء إلى عالم الظهور والعيان فالأشياء تعتمد عليه فى ظهورها وهو لا يعتمد عليها فى ظهوره فهو برهانها وهى لا تصلح أن تكون برهانه. فهناك فرق بين

الظاهر وبين المظاهر: فالظاهر يظهر فى المظاهر دون أن تحصره أو تحتويه أو تستنفده .... فهو يتجلى فيها بصفاته وأسمائه التى لا حصر لها. أما المظاهر فهى وحدات محددوة هى شتيت من أجزاء.. براويز مختلفة وإطارات متباينة يتجلى من خلفها حكم الأسماء والصفات النوارنية.

فالكون والوجود والتاريخ أشبه بحجر رشيد... يخيل للرائى الذى يراه للوهلة الأولى أنه يرى نغبشه وشخابيط بلا معنى على الحجر.. كما يخيل له أنه تاريخ مجموعة من حوادث عشوائية ومصادفات.. ولكن العارف يستطيع أن يفض الشفرة الإلهية للحوادث ويدرك مضمونها وحركتها ومسارها وحكمتها... كما كشف شمبوليون شفرة الهيروغليفية على حجر رشيد وتمكن من قراءته... فإذا بكل شئ له معنى وإذا بكل مصادفة تافهة لها مكانها فى الخطة الإلهية الشاملة.. والحياة لذة عظيمة عند أصحاب الهمم والبصائر لأنها قراءة هادئة ممتعة لسطور الحكمة الأزلية فى كتاب الكون الذى تتعاقب صفحاته عبر أمام العين كل اليوم.

ويقول الصوفى الفقير الذى يلبس الخرقة... نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف... واللذة التى يروى عنها الصوفى هى لذة شهود الله فى آيات عظمته وروائع حكمته.... هى تلك القراءة المتأنية لشفرة الوجود والاستبصار لخبايا الأقدار..

فالعلم هو إدراك الجزيئات الحيوية وغير الحيوية فى حركتها وسكونها وقوانينها وهو علم بالمقادير والكميات والعلاقات ولكن العلم عاجز عن إدراك الماهيات والحقائق النهائية وهو فى هذا المقام أداة ناقصه مضللة. فالعلم حجاب على المعلوم والعالم محتجب باليقظة كما أن الجاهل محتجب بالغفلة لأن العلم يشتت عقل العالم بين أجزاء ووجهات النظر.... فالعلم ذو طرقات ذوات فجاج والفجاج ذوات مخارج والمخارج ذوات اختلاف والاختلاف متاهه.. والعقل إذا درى رجح بين احتمالات ووقع فى المختلفات.

وحينما يصل العابد إلى منتهى المعرفة ويدرك جهله أمام الذات وعجز جميع وسائله يبدأ آخر مراحل هجرته إلى الله بالتجرد من هذه الوسائل والخروج منها.. فهو يخرج من كل ما

يبدو مما سوى الخالق.... يخرج عن علمه وعمله ومعرفته ونفسه وصفته وأسمه ويخرج عن الحرف والعبارة.

الفسفة ثم ماذا؟

الدرس الفلسفي اليوم هو حاوية كبرى لمجموع أضداد وتناقضات وتحولات المشهد الفكري المعاصربكل ما اختلط فيه من عناصر فكرية وأدبية وجمالية لا يكاد يحصرها مبحث شامل او ينظرها معاين تاريخي. ولعل ماجلبته الحداثة ومابعدها إلى الفلسفة اليوم هو تكريس أكبر عمليات هدم معرفي تلك التي تمركزت على افراغ حمولة العقل من أوهامه (الميتافيزيقية) و(التاريخية) و (الوضعية) لصالح آفاق ومسطحات أخرى تقوم على إعطاء دفقة أكبر للاعتباط اللغوي ولعبة (الأوهام) و (التمثيل المعرفي) انطلاقا من فكرة لاتخلو من بصمات (نيتشه) القائلة بضعف منطق (الحقيقة) وخلو العالم من (النسقية العقلانية) أو (السببية التامة) التي تؤهله لأن يكون عالما (انسانياً) مفرط بالإنسانية وهو عالم انتهى على أيدي الكبار من مكافحي العقلانية اليوم إلى مجرد عالم موضوعي بلا ذات عارفة، وعالم لغوي شامل يتخطى الذات والموضوع معا. ولعل غاية ما توصلت إليه نظم المعرفة اليوم وبعد إرهاصات ومحاولات أولية هي تلك الفكرة القائلة (بموت الفلسفة) كما نجدها في كامل نضجها لدى (مشيل فوكو) و (جيل دولوز) وهي امتداد لميتات أخرى مثل و(موت الانسان) و(موت المؤلف) وبالتالي (موت الفلسفة)، تلك الميتات الناضجة التي حولت نهايات القرن العشرين إلى نهايات معرفية كبرى ،ومراجعات سلبية وانتحارات (تصورية) أدت الى رفع الحد الفاصل بين (المعرفة) و(الوهم) و (الحقيقة) و (التمثل) وامتزاج (العيني) بـ (الاشهاري) كما هو حاصل في التداعيات الأخيرة لفكر (مابعد الحداثة) في طروحات لوتيار وبوردريار الأخيرة .

إن هدف هذه المحاولة هو فحص وتتبع الأنساق المعرفية الكبرى في اللعبة الفلسفية اليوم التي افضت الى مقولة (موت الفلسفة)، وما اذا كانت الفلسفة قد ماتت حقا؟ أم أن موت الفلسفة ماهو إلا طور من أطوار تخطيها والذهاب إلى (ما بعدها)؟ وكيف يمكن للخطاب الفلسفي المعاصر

أن يحيا هو الآخر داخل مشهد الموت الفلسفي المعاصر؟ وهل تعد الفلسفة اليوم منظومة خاوية من الأفكار والتصورات أم هي العامل الأساسي في صناعة موت (الآخرين) والحد من طغيانهم الوجودي في ضوء الإشكاليات الكبرى للوجود والعدم واللغة أو ما نسل عنها من ثيمات الهوية والآخر والمركزية العقلية الغربية،تلك الاشكاليات التي ما زالت تغذي مناهج البحث الانساني بالرغم من تغير الوسائل المعرفية وتسارع لعبة التقنيات التفسيرية وتقاطع جهوياتها النظرية والعملية! وعليه فان لهذه الدراسة حدودا معينة أبرزها انعدام الأحكام أو إطلاقها وخلوها كما أرجو من الانبهار بالآخر الغربي أو الغير الأجنبي، وأخيرا هي قراءة بصوت عال أكثر منها كتابة مبيتة ومصنوعة جيدا ،بدون أخطاء ضرورية وتناقضات صحية لابد منها فالذي يريد أن يسلك مغامرة الرؤية لا باس أن تدخل إلى عينيه بعض الضلال فلا يمكن رؤية الشمس مباشرة. ولنا الحق إزاء التباس مشهد عصرنا الفكري أن نعتبر سؤال فهم طريقا موازيا للفهم ان لم يكن منافسه الأكبر وعلى ذلك فإن السؤال الذي نجمع عليه اليوم هو مالذي يحدث في فكر مابعد الفلسفة ؟ ومن اي فكر نسلك هذا السؤال وكيف ولد ونما وتبلور وتنسق وتخلق وهل ما زلنا قادرين على تثبيت فكر متحرر وهائج كهذا الفكر، فضلا عن سؤال ألا صالة والتوصل والمسيرة والحيرة والقلق على الفهم أو عدمه. لعل تلك مبررات كافيه لأن نبدأ رحلة مع ما هو متحول ومتسارع وخاطر وعابر وإن كان ذلك لا يفضي إلى نتائج حاسمة أو شواطئ مريحة. ولكن ما نفع الموجة إن لن لم ترقص في اعماق البحر وتصير تيها وسمكة وأثر الا يقع عليه حافر. ومانفع الفكر إذا لا يقدم على لحس عدمه وابتلاع سؤاله المصيري إلى النهاية ومن النهايات بنبأ ونبتدئ مرة أخرى .

المراجع :

- إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية ١٤٤/٢.
- ابن باجة الأندلسي: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة (ت ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، فيلسوف مولع بالطبيعيات والفلك والطب والشعر. من كتبه: "اتصال العقل." انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤٢٩/٤.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤٥٨/١.
- ابن سينا والنفس الإنسانية، د. محمد خير حسن عرقسوسي وحسن ملا عثمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢، ص ١١٩ – ١٢٢.
- ابن سينا والنفس الإنسانية، د. محمد خير حسن عرقسوسي وحسن ملا عثمان، بيروت، ١٩٨٢، المرجع المذكور، ص ١١٣.
- ابن سينا، بمناسبة الذكرى الألفية لمولده، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٨٠، فصل: علاقة الفلسفة الحديثة بمفهوم العقل عند ابن سينا، د. غانم هنا، ص ٩٢. انظر أيضًا: رسالة في معرفة النفس الناطقة، طبعة نادر، ص ٢٩.
- ابن طفيل :أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، (٤٩٤– ٥٨١هـ / ١١٠٠ - ١١٨٥م)، طبيب وفيلسوف وشاعر عمل في بلاط الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، صاحب قصة حي بن يقظان. انظر: الزركلي: الأعلام ٢٤٩/٦ .
- أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٥٦.
- أبو الوفا التفتازاني: دراسات في الفلسفة الإسلامية ص١٨.
- الأصفهاني – حسين عشاقي – وعاية الحكمة في شرح نهاية الحكمة – ص٤٦٠– الطبعة: الاولى ١٣٨٢هـ – ش – المطبعة: توحيد قم – التوزيع: قم – شارع شهيد

- تهافت التهافت، ص ٣١٥. انظرْ أيضًا: في فلسفة ابن سينا، تحليل ونقد، د. محمود ماضي، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٧، ص ١١٨.
- جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، ص ٢٤١.
- حامد طاهر: مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص٢١.
- حسن عباس زكى الإنسان والوجود، النهار للطبع والنشر والتوزيع ١٩٩٩ .
- الخوانساري –المحقق ألاقا حسين – الحاشية على شروح الإشارات (وشرح الإشارات وشرح الشرح وحاشية الباغنوي – وبذيلهم حواشي ألاقا جمال الدين الخوانساري – ج ٢ ص٢٤٥– الطبعة: الأولى ١٤٢٠ق ، ١٣٧٨ش – المطبعة: أسوة – الناشر: مركز إنتشارات دفتر تبليغات إسلامي (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي قم – تحقيق أحمد العابدي).
- رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٨٨.
- رزق – خليل – فلسفة صدر المتألهين قراءة في مرتكزات الحكمة المتعالية ص١٩٥ ص١٩٤ – الطبعة: الأولى ١٤٣١– ٢٠١٠م – المطبعة: دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع – الناشر: دار الصفوة.
- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨١.
- سيمون ڤايل، مختارات، رهانات العِلْم: حول النظرية الكوانتية، ص ٦٥، دار معابر، ٢٠٠٩.
- شاكر الفحام والأستاذ أحمد راتب النفاخ من مقدمة رسالة أسباب حدوث الحروف،

مطبوعات مجْمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٢، ص ٧.

- الصدر – آية الله السيد رضا الصدر: الطبعة الثانية – مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي– الناشر: مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي) .
- الصفاء – أخوان – رسائل إخوان الصفاء – ج ١ (فصل تجرد النفس واشتياقها الى عالم الأفلاك) الطبعة: الأولى ١٤١٢– ١٩٩٢م – المطبعة: الدار الإسلامية – بيروت – الناشر والتوزيع: الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع .
- الطبطبائي – السيد محمد حسين – الميزان في تفسير القرآن – ج الرابع عشر – الطبعة: الأولى المحققة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م – المطبعة: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان الباحث: وليس بالمستحيل على نبي الله أن يسافر إلى الفضاء ويرى عجيب الملكوت ويخبر الناس بهذه العلوم وأن رؤية هذه الافلاك والسفر لها بتجرده المادي الجسدي ليس بعزيز على أنبياء الله سبحانه وتعالى بل هذه من مميزاتهم .
- المنهج الجديد في تعلم الفلسفة، محمد تقي المصباح، المجلد الأول، دار التعارف، بيروت ١٩٩٠ ص ٢١٢– .٢١٦ .
- النجاة، فصل في بطلان القول بالتناسُخ، ص ١٥٦، موقع الفلسفة الإسلامية.
- النفس البشرية عند ابن سينا، ألبير نصري نادر، بيروت، ١٩٦٨
- الهادي – جعفر – الله خالق هذا الكون دراسة علمية حديثه للمناهج والنظريات المختلفة حول نشأة الكون ومسألة الخالق – الطبعة :الثانية ١٤٢٤هـ المطبعة – مؤسسة الإمام الصادق (ع) – الناشر: مؤسسة الإمام الصادق – التوزيع: مكتب التوحيد، ايران، قم .

- اليزدي - محمد تقي مصباح – المنهج الجديد في تعليم الفلسفة - ج٢– المطبعة دار التعارف للمطبوعات بيروت – لبنان
- عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٨٨
- عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى
- عَزَّة مريدن، ابن سينا، بمناسبة الذكرى الألفية لمولده، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٨٠، فصل: طرائفه العلمية والخاصة، جامعة دمشق.
- علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٣١/١، وعبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٤.
- علي أحمد – مجلة الكلمة مفهوم الزمن بين صدر الدين الشيرازي وآنشتاين – العدد ٢٣/ ١٩٩٩م
- الغزالي: المنقذ من الضلال ص١٠١.
- قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي ص٢٧، وفوقية محمود: مقالات في أصالة المفكر المسلم ص٤٩.
- محمد مظاهرى."الإنسان وعالم البرزخ" تعريب السيد باسم الهاشمى. ١٩٩٦. دار المحجة البيضاء.
- مصطفى محمود لغز الموت. دار المعارف ص ٨٤.
- مقدمة رسالة أسباب حدوث الحروف، للدكتور شاكر الفحام والأستاذ أحمد راتب النفاخ، مطبوعات مجْمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٢، ص ٧.
- ناجي – الدكتور مجيد عبد الحميد – فن التعبير والأسلوب – السنه الأولى الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية كلية اللغة العربية – لندن المنهج الدراسي.
- هاد خياطة، التصوُّف الإسلامي بين وحدة الشهود ووحدة الوجود، دراسة ، معابر، الإصدار الثالث ، الربع الثاني من ٢٠٠١.

ملحق

الدوجماطيقية.. وهم امتلاك الحقيقة المطلقة

الدوجماطيقية تعريب لكلمة Dogmatism، ولها ترجمات عديدة، مثل: وثوقية، قطعية، توكيدية، إيقانية، معتقدية. وهي تعني: الاعتقاد الجازم واليقين المطلق دون الاستناد إلى براهين يقينية، وإنكار الآخر ورفضه باعتباره على باطل مطلق. ومن ثم فهي مبدأ التعصب، وسمة لكل متزمت، ومنشأ الحروب العقائدية.

والدوجماطيقة ليست مذهبا فلسفيا أو دينيا، وإنما هي – في أكثر معانيها انتشارا– سمة وطريقة تفكير تتسم بها أي فرقة أو مذهب أو فلسفة تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة بشكل شامل، ولا تقر بأنها قد تحتمل شيئا من الخطأ أو النقص، وتقطع بأن ما تحوزه من معارف ومعتقدات لا يقبل النقاش ولا التغيير، حتى وإن تغيرت الظروف التاريخية، أو السياقات المكانية والاجتماعية، فهي إذن مقدسة ومنزهة عن أي نقد، وعدم إخضاع هذه المعتقدات لفحص نقدي أو تحليلي يراجع الأسس التي تقوم عليها، ودون بحث في حدود وقدرات العقل المعرفية، فضلا عن عدم تمحيص الطرق التي توصل إلى المعرفة الصحيحة في كل لحظة تاريخية. يواجه الفكر المعاصر خطر الاستقطاب من طرفين متنازعين، يتمثلان فى رؤيتين للغلو أصبح لهما الصوت الأعلى فى الجدل الجاري على مختلف الساحات، وفي العديد من الثقافات، وهما: تيار التطرف العلمانى وتيار التطرف الديني.. إذ يتحدث التيار الأول وكأن الله غير موجود، بينما يتحدث التيار الثانى وكأن الإنسان غير موجود! بمعنى أنه ينزع من الإنسان كل فاعلياته ومسئولياته ومواهبه. التيار الأول جعل مرجعيته المادة وقيم القوة وطموحات الفردية، والتيار الثانى يفهم تعاليم الله على أنها تعاليم شكلية حرفية تتعلق بالظواهر أكثر مما تتعلق بالبواطن، ومن ثم حوّلها من تعاليم للروح والجسد معا إلى تعاليم طقوسية، وقتل فلسفتها التقدمية من ناحية (العدل) والروحية من ناحية أخرى (الإحسان).

وكلا التيارين - رغم تعارضهما بل وتشاحنهما على الساحتين الثقافية والسياسية – يشتركان في مجموعة من السمات التى تجعل الصراع بينهما صراعا عقيما، هذه السمات هي: توهم الاستئثار بالحقيقة، ونفى الآخر، وقصور البصر والبصيرة، وثقافة التسلط، والانغلاق على نظام قيم معين بصورة نصية، وعدم الرغبة في فتح قنوات للحوار، وازدراء الرؤى المخالفة وتخوينها، وعدم السعي للبحث عن أرضية مشتركة. وهذه كلها ببساطة هي سمات الدوجماطيقية. وفي ظننا يكمن المنشأ الفلسفي للتطرف في طبيعة منهج التفكير، فالعقل المتطرف عقل مغلق على نفسه، عقل ذو بعد واحد، ومن ثم يستحيل عليه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها ثابتة لا تقبل المناقشة، ومؤكدة بشكل نهائي. فأي تطرف يصاحبه جمود في الفكر أو السياسة أو الدين أو حتى الفن هو (دوجماطيقية) .. بلغة الفلسفة.

صعود على الساحة الدولية

غير أن العقلية الدوجماطيقية الدينية والسياسية والفكرية لا تزال – ولا شك - موجودة نظريا وعمليا وسياسيا في كل بلدان العالم. بل يمكن القول أنها تشهد صعودا الآن على ساحة السياسة الدولية، بفضل النزعة الدوجماطيقية للحزب الجمهوري الأمريكي. وأكبر علامة على ذلك سيطرة لغة الحرب والاغتيال في حل الصراعات، وحلول لغة البندقية مكان لغة الحوار والتفاوض، وغلبة الرؤية المذهبية للصهيونية المسيحية ذات البعد المقترن بنهاية العالم المحتومة وفق تصورهم وسيناريو هذه النهاية الذي يضع سقفا للتفكير ويفرض حدودا على العقل، لأن التاريخ إذن يسير وفق اتجاه تلك الحتمية، فلا مجال البتة للنقاش أو تغيير نظم التفكير.

ومن الضروري التأكيد مجددا على أن الدوجماطيقية ليست سمة تلحق بالتطرف الديني وحده، بل هي سمة التطرف العلماني أيضا، وسمة التطرف الحضاري. ولذا نجد الدوجماطيقية كسمة تظهر بوضوح في بعض المواقف الغربية التي تتخذ موقفا معاديا من الحضارات الأخرى، وتزعم أن نموذجها الحضاري هو النموذج الأمثل بشكل مطلق! وهي لذلك تعمل جاهدة على تعميم هذا النموذج من خلال العولمة وترسيخ مفهوم صراع الحضارات الذي تنظر فيه إلى

حضارتها كممثلة للمدنية، أما الحضارات الأخرى فهي إما بدائية أو بربرية! ومن ثم تقف منها موقف التحفظ والتعالي، إن لم يكن العداء والاحتشاد من أجل سحقها وإبادتها. وحتى نتبين طبيعة المنشأ الفلسفي للتطرف لا بد من تحليل فلسفي عميق لمفهوم الدوجماطيقية، من أجل اكتشاف السمات المشتركة بين كل تيارات التطرف على مختلف الجهات المتعارضة والمتصارعة.

الأساطير المؤسسة للدوجماطيقية

تتنوع أصول ومبادئ الدوجماطيقية بتنوع صورها وأشكالها، وهي أشبه ما تكون بقواعد فخارية لقصر من الرمال، وتتمثل فيما يلي:

١. اليقين المطلق دون براهين كافية:

الأصل الأول لكل دوجماطيقية هو: اليقين المطلق الذي تتسم به بعض المعتقدات اعتمادا على التسليم دون الاستناد إلى براهين يقينية، ودون تمحيص أو تمهيد نقدي للأسس التي تقوم عليها أو حتى إحاطة بعمقها وفلسفتها ومقاصدها كي يتسنى الدوران معها مع تغير الظروف.

٢. التراوح بين قدرة العقل المطلقة وسلطة النص المصمتة:

من أشكال الدوجماطيقية ذلك الاتجاه الذي يعتمد على الإيمان المطلق بقدرة العقل. ويشير المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية إلى أن هذا الاتجاه يذهب إلى إثبات قيمة العقل وقدرته على المعرفة وإمكان الوصول إلى اليقين. وإذا كان مذهب الشك يوصي بالامتناع عن إثبات الحقائق أو نفيها، فإن الدوجماطيقية ترى أن العلم الإنساني لا يقف عند حد، وتؤكد قدرة العقل على المعرفة والتوصل إلى اليقين. وقد سارت هذه النزعة في فلسفة العقليين إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر، ونحا نحوها التجريبيون الذين أكدوا إمكان المعرفة عن طريق التجربة. ولذا فهي ضد الشكية حسب هذا الشكل الذي يذكره المجمع.

وفي المقابل نجد لدى كل التيارات الدوجماطيقية هيمنة للنص المرجعي دون محاولة

للتفاعل معه أو تفعيله. ويلاحظ أن للدوجماطيقية العقلية أشكالا ساذجة، مثل الدوجماطيقية الساذجة التي نجدها – كما يقول د.يحيى هويدي – عند رجل الشارع، فرجل الشارع متعصب لآرائه إلى أبعد الحدود، لا يقبل أن يناقش آراءه ومعتقداته أحد، يعتقد في ذكائه المفرط وقدرته الخارقة على معالجة الأمور.

٣. افتقاد الروح النقدية:

من الأصول التي تستند إليها كل الدوجماطيقيات افتقاد الروح النقدية. ومن هذه الزاوية تعد الدوجماطيقية مقابلا للنقدية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه الفيلسوف الألماني كانط في كتابه (نقد العقل المحض) عندما وجد أن الدوجماطيقية لها استخدامان. أولهما إنشاء البراهين العلمية القاطعة المستندة لمبادئ قبلية، أي مبادئ عقلية أولية وضرورية غير مستمدة من التجربة، فهي قبل أي تجربة. وهذا الجانب للدوجماطيقية غير متعارض مع الرؤية النقدية، والنقدية هي الفلسفة التي تهتم بنقد العقل لبيان قدراته وحدوده والشروط التي تحكم عمله، وتبين ما الذي يستطيع أن يعرفه، وما الذي لا يستطيع أن يعرفه. فهي بهذا المعنى تؤسس القواعد الأولية للفهم والتصور، والتي بدونها لا يمكن الانطلاق لأي رؤية، أي أنها المفاهيم التأسيسية أو ما قبل المنهج كما يسميها الفلاسفة.

ثانيهما: التوصل إلى معارف ميتافيزيقية (أي معارف تتعلق بما وراء الطبيعة)، دون نقد سابق لقدرات العقل وبيان حدوده المعرفية، ودون بيان للكيفية التي توصل بها العقل إلى هذه المعارف الميتافيزيقية، ودون بيان وجه الحق الذي استند إليه العقل في إقراره لهذه المعارف. وهذه هي الطريقة الخاطئة للدوجماطيقية التي كان يستخدمها الفلاسفة الميتافيزيقيون حتى زمن كانط، أي حتى القرن الثامن عشر، مثل أفلاطون، وأوغسطين، وديكارت، وليبنتز وفولف وغيرهم. وبهذا المعنى الثاني تعارض الدوجماطيقية الفلسفة النقدية. وفي أحيان أخرى يستخدم كانط الدوجماطيقية كمعارض للشك في معرض الحديث عن مصادر وطبيعة المعرفة.

السلطة المطلقة للآباء أو الأجداد أو المفكرين والعلماء:

يتجلى هذا الأصل في طريقة البعض في تأكيد معتقداته عن طريق دعمها بسلطة الآباء أو الأجداد أو المفكرين أو العلماء أو غيرهم من أصحاب النفوذ المرجعي، وهذه هي طريقة الذين يقولون: إن الحق يعرف بالرجال! وبهذا المعنى تكون الدوجماطيقية نظرية تقرها السلطة المعرفية (دينية كانت أم علمانية)، ويلتزم بها الأعضاء الواقعون تحت هذه السلطة، دون تمحيص أو برهان كاف. فتظهر هنا طريقة الكافرين الدوجماطيقية في تأكيد معتقداتهم بسلطة الآباء دون برهان عقلي، ودون اهتداء إلى طريقة التفكير السليم. ولذا فالدوجماطيقية هنا - كما يقول لالاند في موسوعته الفلسفية: – هي حيلة فكرية مخاتلة قائمة على تأكيد المرء لمعتقداته بأمر وسلطان، ودون القبول بأنها قد تحتمل شيئا من النقص أو الخطأ أو أن تطويرها لازم وضامن لاستمرار فاعليتها.

وهذا ما يرفضه القرآن الكريم، لأن المعتقدات ينبغي أن تؤسس على براهين وليس على سلطة الرجال، ولذا قال الإمام عليّ: (إن الحق لا يُعرف بالرجال، ولكن يعرف الرجال بالحق). ومن ثم نبذ الطريقة الدوجماطيقية في التفكير التي تقوم على التسليم دون تمحيص. وفي تاريخ الفلسفة يستخدم هذا المعنى للدلالة على الدوجماطيقية. جاء ذلك في المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية واستعمل اللفظ بعده (أي بعد كانط) للدلالة على التسليم دون تمحيص.

ونشير هنا إلى أن (مذهب الشك) الذي يزعم بشكل يقيني – وهنا المفارقة – أن المعرفة غير ممكنة مطلقا يمثل دوجماطيقية سلبية، أي هي القفاز نفسه .. مقلوبا. وبطبيعة الحال فإن (الشك المنهجي) غير (الشك المذهبي)، فالشك المنهجي هو مجرد خطوة في عملية التفكير نحو المعرفة المنضبطة، مثلما فعل إبراهيم عليه السلام مع عقائد قومه في الكواكب والنجوم.

ومثل هذه الشكية المنهجية ليست دوجماطيقية على الإطلاق، على العكس من الشكية المذهبية التي تجزم بشكل يقيني دوجماطيقي بأن المعرفة غير ممكنة مطلقا، وأراه الله البرهان بمعجزة ولم ينكر عليه السؤال، وكذا موسى حين سأل ربه أن يراه. فالعقل لا مصادرة عليه، وإنما تحميه في النهاية حدوده وسقف بشريته.

الدوجماطيقية في التاريخ

نشأت الدوجماطيقية منذ بدأ الإنسان يزعم أنه قادر على معرفة الحقيقة المطلقة. وفي نطاق الفلسفة يمكن القول إن أكثر المذاهب تمثيلا للدوجماطيقية هي معظم الفلسفات القديمة. ومن المتعذر الحديث عن مضمون هذه الفلسفات في هذا السياق؛ لأن الدوجماطيقية – كما أسلفنا – ليست مضمونا بقدر ما هي سمة وموقف يزعم امتلاك الحقائق اليقينية المطلقة. وتعد فلسفات بارمنيدس وأفلاطون وأرسطو والمدرسة الأفلوطينية الجديدة نماذج جيدة للفلسفة الدوجماطيقية بامتياز. وقد ترك لنا بارمنيدس قصيدة (في الطبيعة) التي يذكر فيها ما يعتقد أنه الحقيقة المطلقة على نحو دوجماطيقي يقيني. أما أفلاطون فمحاوراته تحمل اعتقادا دوجماطيقيا بعالم المثل وبتصورات دوجماطيقية لطبيعة الكون والحياة والإنسان وشؤون السياسة والاجتماع البشري. ومن هذه المحاورات (محاورة الجمهورية) و(فيدون) و(مينون) و (القوانين)...إلخ

ونجد الطابع الدوجماطيقي في ميتافيزيقا أرسطو لا سيما في كتابه (الميتافيزيقا). والحال نفسه في أعمال أفلوطين Plotinus الفيلسوف المصري اليوناني (٢٠٣م - ٢٧٠م)، لكن مع مزيد من الدوجماطيقية المفرطة، لا سيما في كتابه (التاسوعات). وفي العصور الوسطى نجد معظم فلاسفة المدارس الفكرية وعلماء اللاهوت مثل أوغسطين وتوما الأكويني. أما في العصور الحديثة فتتمثل الفلسفات الدوجماطيقية في الفلسفات العقلية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثل فلسفة ديكارت، ويمكن القول بأن دوجماطيقية ديكارت أشبه باللاهوتية، وما العقلانية عنده إلا قناع مضلل، وأيضا بسكال، ومالبرانش، وإسبينوزا، وليبنتز، فكثير من

أطروحاتهم تتسم بالدوجماطيقية.

وقد اعتبر كانط أن فولف Wolff هو أكبر الفلاسفة الدوجماطيقيين جميعا، لأنه لم يمهد طريق العلم بواسطة نقد العقل وبيان حدوده وقدراته، كما يعتبر أن دوجماطيقية فولف تشتمل على نقص لا يمكن أن ينسب إليه وحده، لأنه ينسب كذلك إلى طريقة التفكير الدوجماطيقية الذائعة في عصره .

وكريستيان فون فولف :فيلسوف ألماني ولد سنة ١٦٧٩م. ومات ١٧٥٤م. وله فضل على اللغة الفلسفية الألمانية، وكان تلميذا للفليسوف ليبنتز. ومن مؤلفاته (الفلسفة الأولى أو الأنطولوجيا)، (الكوسمولوجيا العامة)، (علم النفس التجريبي) و(اللاهوت الطبيعي) وغيرها.

وبعد فولف نجد فلسفة هيجل في القرن التاسع عشر، حيث زعمت امتلاك الحقيقة المطلقة، وفسرت كل شيء بطريقة دوجماطيقية شاملة، واعتبرت نفسها الفلسفة المطلقة التي حازت كل معرفة بالحقيقة. بل يمكن القول إن أكبر فلسفة اتسمت بالدوجماطيقية في العصر الحديث هي فلسفة هيجل.

ومن أكبر الممثلين للدوجماطيقية في القرن العشرين الأصولية الماركسية التي تزعم أن تعاليم ماركس ولينين هي مبادئ وقواعد مطلقة تصلح لكل زمان ومكان. والأصولية الماركسية تتسم بالجمود الأيديولوجي النظري، وهي سمة أي مذهب دوجماطيقي يرفض التجديد، حيث تصبح كتابات الآباء المؤسسين مراجع أقرب للنص المقدس.

هؤلاء قد تعرضوا لنقد شديد من الماركسيين الجدد الذين ينظرون بمرونة إلى تعاليم ماركس، كما أن الدوجماطيقيين الماركسيين بدورهم هاجموا نقادهم، واتهموهم بأنهم فسروا تعاليم ماركس بطريقة تتلاءم مع المتغيرات والضغوطات الدولية في ظل هيمنة الرأسمالية.

وهكذا نجد أن كثيرا من المدارس الفلسفية والفلاسفة والأفراد تتسم مواقفهم بإحدى سمات الدوجماطيقية، أو تشتمل مذاهبهم على أصل أو أكثر من أصولها، ومن ثم تتخذ فلسفاتهم شكلا أو أكثر من أشكال الدوجماطيقية المذكورة آنفا. ومن المتعذر إحصاء

الفلسفات والمذاهب الدوجماطيقية، خاصة أنها سمة وليست مذهبا دينيا أو عقليا محددا، بل هي تسري في معظم المذاهب.

الرؤية الإسلامية والدوجماطيقية

الدوجماطيقية يرفضها كثير من علماء أصول الفقه الإسلامي الذين يراعون في تفكيرهم المصالح المرسلة، والضرورات، والاستحسان، وظروف العصر. ومن أكبر النماذج الفقهية البارزة التي تناهض وترفض الدوجماطيقية المنغلقة الإمام الشافعي الذي اختلف مذهبه الفقهي في مصر عن مذهبه القديم في العراق. ومن بين أسباب هذا الاختلاف مراعاة ظروف الزمان والمكان. ولكن من جهة أخرى يتسم بعض الفقهاء بهذه السمة الدوجماطيقية، حين يرفضون مراعاة ظروف المكان والزمان، ولا يأخذون بالمصالح المرسلة والاستحسان وغيرها، وهو ما يحدث حين يغلب التقليد في الفقه على الاجتهاد. كما نجد الدوجماطيقية عند بعض التيارات المتعصبة في علم الكلام وأصول الدين، حيث يعولون على قدرة العقل التي يزعمون مطلقيتها، ويعطونها الحق في تناول الصفات الإلهية! أو لدى الذين يفهمون آيات الصفات فهما تشبيهيا أو تجسيميا استنادا للفهم الظاهري لبعض النصوص.

ومن ناحية أخرى فإنه من فساد منطق أي فكر الزعم بأن أي تعاليم بشرية هي مبادئ وقواعد مطلقة تصلح لكل زمان ومكان. فالبشر ذوو عقول نسبية متغيرة، ومن ثم فإن على الإنسان أن يسعى لمعرفة الحقيقة بالبحث في الكون والنفس، وفي كلام الله المنزل، دون الزعم باحتكار حق التفسير. والقرآن يؤكد على إمكانية المعرفة ووجود معايير للمعرفة الحقة، وينتقد الأساليب الزائفة غير البرهانية، ويدعو للمعرفة التجريبية المبنية على النظر في الكون والآفاق والنفس، وغير ذلك من الأساليب التي توصل للمعرفة المضبوطة.

ويرفض القرآن بوضوح التسليم بأقوال السابقين دون الاستناد إلى براهين يقينية، فقال: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ

شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ) (البقرة: ١٧٠). وهذا أمر مستهجن وضد مبادئ العقل المنطقي وضد البداهة؛ لأن المعتقدات ينبغي أن تؤسس على براهين وليس على سلطة الرجال، وإنما يكون الاشتراك في المنهج لا في الظرف، وتجميد شروطه، وتجاهل حركة النص في التاريخ. والموقف الفلسفي الأمثل هو الموقف النقدي الذي ينقد العقل لبيان قدراته وحدوده، والشروط التي تحكم عمله وتبين ما الذي يستطيع العقل أن يعرفه، وما الذي لا يستطيع أن يعرفه؟ وما هي الطريقة المنضبطة التي يتوصل بها العقل إلى المعارف؟

فالعقل المنضبط بمعايير البرهنة والاستدلال العلمي له دور لا يُنكر في عملية المعرفة بالواقع، وفي الاستدلال على وجود الله تعالى، لكنه غير قادر على معرفة الغيب، عندها يجب عليه التسليم. ومع الإقرار بنسبية العقل البشري وتطوره بتطور العلم والمعارف، وجب نبذ الجمود الأيديولوجي النظري الذي تتسم به الدوجماطيقية التي تعارض التنوع والحوار والتجديد والارتقاء وسنن التغير.

المؤلف في سطور

د.على محمد على عبد الله

– أستاذ باحث بالمعهد القومى لعلوم البحار والمصايد.

– حاصل على درجة دكتوراه الفلسفة في كيمياء المبيدات عام ١٩٩٠.

– حائز على جائزة الدولة التشجيعية فى الكيمياء عام ١٩٩٦.

– جائزة علوم البيئة فى عام ١٩٩٦.

– ضم اسمه فى الموسوعة الأمريكية "WHO's is WHO" عام ١٩٩٧، وحصل على جائزة أحسن باحث عام ١٩٩٩ من إحدى الجمعيات الأهلية التابعة لليونسكو.

– عين مديراً لفرع المعهد بالغردقة فى الفترة من ٢٠٠٢–٢٠٠٤.

– عمل مديرًا للمعمل المركزى بالمعهد بالإسكندرية.

– عمل مشرفاً على مشروع المسح البيئى للملوثات العضوية.

– عمل مستشاراً بيونسكو باريس لمدة ثلاثة أعوام.

– عضو فى العديد من الجمعيات العلمية المصرية والأجنبية.

– قام بنشر عدد ١٥٠ بحثاً ومقالاً فى الدوريات العالمية والمحلية. كما أن له عدداً من الكتب باللغة العربية والأجنبية نشرت بالهيئة المصرية العامة الكتاب ودور النشر العالمية.

محتويات الكتاب